

جمال الدين الألويسي

أدب الزيات في العراق

الطبعة الاولى

١٩٧١ م - ١٣٩١ هـ



جمال الدين الألويسي

shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

الأوب الزيات في العراق

الطبعة الاولى

١٩٧١م - ١٣٩١هـ

للهدوء

الى الذين تروقههم الكلمة المهندسة ويطرهم الاسلوب البليغ .
الى الذين يرون استخدام العامية في التعبير والتحرير اثماً دينياً
وقومياً وهم قادرون على اصطناع الفصحى .
والى الذين يحسبون الفصحى الدعامة الاولى للجامعة الموحدة العربية
أهدى هذه الاشتات .

جمال الدين الألووس

مُقَدِّمَة

الزيات أحد الكتاب القلائل الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أديها عن فهم ، ويعالجون أديها عن ادراك ولا سيما البارزون منهم ، خلا مكان العقاد من قبل خمس سنين ، وهما ان الأجل المحتوم يخلي مكان الزيات في الثاني عشر من شهر أيار سنة ١٩٦٨ . وطه حسين يعاني العلة حبيس الفراش عافاه الله وابقاه للأدب واللغة ذخراً .

والزيات أقوى الثلاثة اسلوباً وأوضحهم بياناً وأوجزهم مقالة وأنقاهم لفظاً ، يعنى بالكلمة المهندسة ، والجملة المزدوجة ، وعند الكثرة الكاثرة هو أكتب ككتابنا في عصرنا .

عرف الزيات العراق واحبه منذ خمسة وثلاثين عاماً ، وهي مدة من الزمان اكتمل فيها شباب ، وشاخ فيها كهول ، واختفى فيها جيل ، ونجم خلالها جيل ، غير ان افكاره لم تغب عنا طوال هذه الحقبة ، وقلمه الرفيع ظل يواصلنا بالقول الجديد ، ويزودنا بالرأي السديد ، ومترجماته ومؤلفاته ما زالت مصدراً ثراً وينبوعاً سائغاً لمن يتذوق الكلمة المهيبة والصورة الجمالية أو الفكرة الهادفة ، والزيات أشد الناس التزاماً بالأساليب العربية المشرقة وأكثرهم عنساية باللفظ الانيق للمعنى الرفيع ، يعرف للكلمة حقها ويقدرها قدرها ، وهو القائل في الدفاع

عن البلاغة : « وفي اختيار الكلمة الخالصة بالمعنى ابداع وخلق ، لأن الكلمة مينة ما دامت في المعجم . فإذا وصلها الفنان الخالق بأخوتها في التركيب ، ووضعها في موضعها الطبيعي من الجملة ، دبت فيها الحياة ، وسرت فيها الحرارة ، وظهر اللون ، وتهيأ لها البروز ، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة ، إذا وضعت موضعها على الصورة اللازمة ، والنظام المطلوب ، تحركت الآلة ، وإلا ظلت جامدة ، وللكلمات أرواح . والزيات صاحب رسالة ، رسالته ظلت تبشر بالأدب ، والفن ، والحرية ، وبالعروبة والإسلام .

والزيات جاحظ القرن العشرين ، ارقى بالمقالة حتى تسنمت قمة الكمال ، امست واضحة لها دلالتها الدقيقة المحددة الإبعاد ، والمتساقطة الافكار ، بيان مشرق ، ووصف مقصود ، وأدب هادف ، تغرس الوطنية ، وتربي الكرامة ، وتزرع العزة ، وتنمي القومية ، وتعمق مفاهيم العروبة ، يوم كانت مفاهيم العروبة غائبة في أذهان الكثرة من الساسة والمثقفين هنا وهناك .

والزيات علم من شوامخ أعلام الأدب العربي في العصر الحديث ، ورأس مدرسة ما زال ينهل من معينها العذب المتأدبون وعشاق الأناقة الذين تروقه الكلمة الانيقة والجملة البليغة والفكرة المدروسة .

وكان لمدرسته أثرها في توجيه الجيل إلى نشر العربية والثقافة الإسلامية .. أبرزت كتاباً ، وخلقت كتاباً ، ووجهت الادباء إلى رحاب القومية المتفتحة ، ونأت بهم عن الاقليمية المغلقة ، وانطلقت بأقلامهم إلى القيم العربية الحضارية ، وظلت رسالته ملتقى لشيوخ الأدب ومحتوى لأقلامهم ، ومنبراً لأفكارهم ، وميداناً لنقدهم وآرائهم .. فإذا ما انقطع عنها رائد ، حل مكانه عائد يعود عليها بدم جديد وأدب

من لون طريف ، وكانت مدرسة لكتاب جدد ناشئين ، صقلت أقلامهم ، وأشاعت أفكارهم ، ورفعت أقدارهم ، وعوضت قراءها من فقدوا من الشيوخ الذين كانوا الطلائع من كتبها ، كأمثال الدكتور طه حسين ، وأحمد أمين ، ومحمد كرد علي ، والرافعي ، والمازني ، والعقاد ..

رَبَّتْ جيلاً ، وأنشأت أدباً ، وهيات أدباء ، وقامت على صفحاتها معارك النقد والتجديد . ربع قرن وهي تبشر بالعروبة النامية والافكار الواعية ، وتعتبر عن الأحداث الكبرى التي تشغل الرأي في العالمين العربي والإسلامي ، وتغرب عن المشاعر والأحاسيس التي تصطرع في نفوس المواطنين في أقطار العروبة من المحيط إلى الخليج ، فكانت مقالات الزيات تقف بالمرصاد لأعداء العروبة والإسلام ، الذين راحوا بدعاياتهم المضللة يشككون أبناءنا بقبائليات أمتهم ، ويزهدونهم بقومات حضارتها ، ويفسدون عقائدهم ، فكانت مقالات الزيات تنير الطريق ، وتغرس العقيدة ، وتجدد الأمل ، وتنمي المعنويات .

كان صدور الرسالة بعد عودة صاحبها من العراق ، فقد ندب الزيات للتدريس في العراق سنة ١٩٢٩ واستمر لبشه فيه الى سنة ١٩٣٢ ثلاث سنين مليئة بالعمل والفكر ، اختلط فيها بأدبائه ومفكره وقادته وشعرائه ، فتملأت أفكار الدعوة للقومية العربية وللوحدة ، عرف أبعادها وأفكارها من كبار دعايتها ، مثل فيلسوف القومية ساطع الحصري ، والتمالي ، وإسحق الهاشمي ، والسبيني ، والراوي ، والأثري ، والرصافي ، والزهاوي ، وطه الهاشمي ، فظهرت الرسالة في زمن نضج فيه تفكير صاحبها بالعروبة في الزمن الذي نفّض فيه السكان العربي عن نفسه الخمول والخنوع ، وراح يتطلع الى التخلص من الاستعمار وإلى حكم وطني حر غير مقيد أو مكبل بقيود المعاهدات . صدرت الرسالة في وقت برزت فيه ملامح الشخصية العربية واضحة ، وتحركت فيه التطلعات العربية

الى حرية كانت مؤودة ، وحقوق كانت مهدورة ، وكرامة كانت مضاعة في العراق ، في مصر ، في سورية ، في الجزائر ، في المغرب . ثورات ومناهضات للاستعمار ، ومظاهرات وثورات على عملائه وأذنايه .

في هذا الزمن المضطرب بالافكار المتناقضة ، صراع بين القديم والحديث ، وصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، وصراع بين الرجعية والتقدمية ، ونزاع بين المحافظين والمجددين ، وعراك بين الاقليمية الضيقة وبين العروبة الرحبة الواسعة الشاملة للوطن العربي مغربه ومشرقه ، فكانت الرسالة ثورة على الجلود على القوالب المألوفة في التحرير والتعبير ، وكانت مشعلا لإنارة الدرب للسائرين من المتأدبين .

مولد الزيات ونشأته :

ولد الزيات عام ١٨٨٥ في قرية « كَيْفَرْدَمِيْرَة » من مركز « طُلُخَا » ، وتلقى علومه في الأزهر ، مكث في هذه الجامعة الكبرى عشر سنوات يتلقى العربية والشريعة والتأريخ والأدب ، وظهرت بواكير أدبه فيما كان يجبره من مقالات اجتماعية وأدبية ونقدية للأزهر خاصة ، نشرتها له صحافة ذلك العهد ، ثم انتقل الى الجامعة المصرية القديمة مع زميله طه حسين ، مما أثار ثائرة شيوخ الأزهر عليهما ، وكتب في « الجريدة » التي كان يصدرها أستاذ الجيل احمد لطفي السيد وكتب في مجلة مصر الفتاة التي نشر على صفحاتها بعض الفصول الادبية مع صديقه طه حسين ، وكتب في مجلة السياسة التي صدرها الدكتور حسين هيكل .

الزيات في الأزهر :

وصف الزيات حياته الأولى في الأزهر ، قال : « كنتا ثلاثة ألفت بيننا وحدة الطبع والهوى والسن ، فالطبع مرح فكاهي ، والهوى درس الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تتجاوز السادسة عشرة ، وكان

طه قاعدة المثلث ، ومحمود زناقي وأنا ضلعيه القائمين . أو كان المبرّد صاحب الكامل قلب الطائر ، والزنجشري صاحب الكشاف وثعلب صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ، لقّب بها بعضنا بعضاً ، لنزعة فكرية أو فنية كان ينزعها كل منا في نظر أخويه ، ووجه الشبه بيننا وبين الطائر ، فان حياتنا كانت كحياته تردد إلى كل روضة ، وتغريد على كل شجرة ، وتحليق في كل جوّ ، كنا ننتقل من حلقة العلم إلى درس الأدب ، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر ، إلى دار الكتب ، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف نعرض عليها ما كنّا نسميه يومئذ شعراً ، ثم ننتهي إلى دار أهدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، ونتذكر ما حفظنا من أدب ، ونقدّار بما سمعنا أو رأينا من سخف ، فإذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة ، فتعيد ما وعت لا تخرم منه حرفاً ، فنصحح أو نستكمل أو نستفيد . وإذا سئمنا أو وئدنا ، فزعنا إلى حافظة محمود الخصبية فيسرّتي عن خواطرنا بمقطعات من أعذب النوادر يحكيها عن نفسه أو يرويها عن أبيه ، ويضيق الطائر بقلبه النابض بالأمل والحب ، ويحناحيه الخافقين بالخيال والنشوة ، يضيق نفسه بعشه الباغم في ركن من الرواق العباسي بالأزهر فيخرج إلى هدوء الطبيعة ، يستمتع بمفاتنها في خمائل المطرية ، أو في حدائق الجزيرة ، فتتصل بالحياة المصرية ، وننال من ثمار المدنية ، ثم نعود إلى الأزهر فنجد الاختلاف شديداً بين حياته وحياة الناس ، فنقلق ونثور ، ويكون حظ هذا القلق وهذه الثورة التمرد على الأزهر المنعزل من العالم ، والسخر من الطلاب ، والعبث بالشيوخ الجاهلين بالأدب .

وسافر الزيات إلى باريس ، ودرس الحقوق ، وتعلم الفرنسية ، وترجم منها ، واقتن بالاساليب كتبها ، غير أنها لم تصرفه عن لغته ، ولا

طغت بأساليبها على أسلوبه العربي الأصيل ، وفي هذه الفترة التي أصابه فيها حب فتاة فرنسية شغل قلبه وفكره ، وقع نظره على قصة للشاعر الألماني الكبير (غوته) هي - آلام فرتر - قصة الحب الخالدة ، فآثر أن يترجمها ، لأنها تعبر عن عواطفه المكتومة .

فقال في العوامل التي دفعته الى ترجمتها سنة ١٩١٩ :

« كنت أجتاز هذا الحين وأنا شاب طرير ، حصره الحياء والانقباض والدرس ، ونمط التربية ، وطبيعة المجتمع ، في دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده ، واحساس مشبوب يتوقد بالجمال ، وقلب غريب يتحرق ظمأً الى الحب ، فالطبيعة في خيالي شعر ، وحركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة . وكان فهمي لكل شيء ، وحكمي على كل شخص ، يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزور نتائجه المثل الأعلى ، ثم فجّر هذه الحال التي وصفت هوى دخيل هادىء . وأحسست أن وجودي الخالي قد امتلأ ، وقلبي الصادي قد ارتوى ، وحسي الفائز قد سكن ، ورحت أسلك هذا الطريق السحري محملاً على جناح الهوى ، حتى ذكرني الزمن الغافل ، فأقام فيه عقبة الخيال بالواقع ، والحبيب بالخطاب ، والعاطفة بالمنفعة . فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحاً غير ذلك النواح ، ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالاً غير تلك الحال ، وكنت أقرأ ولا أدري في الحادثة سواي ، وأشعر فلا أشعر إلا بهواي ، وأنذب ولا أنذب إلا بلواي . »

وفي هذه القصة المعبرة عن أحاسيس الشباب ، قال غوته لصديقه كريمان :

« وكل امرئ يأتي عليه حين من دهره ، يظن فيه أن فرتر إنما كتبت له خاصة . »

والزيات في ترجماته لا يكتفي بالنقل الحرفي ، وطريقته : « أنفي

أترجم النص الأجنبي الى العربية نقلاً حرفياً ، ثم أعود فأجربه على الأسلوب العربي الأصيل ، ثم أعود مرة ثالثة فأفرغ في النص روح المؤلف ، وشعوره باللفظ الملائم ، والإعجاز المطابق ، والنسق المنتظم ، فلا أخرج من هذه المراحل الثلاث إلا وأنا على يقين جازم بأن المؤلف لو كان كتب قصة أو قصيدة بالعربية لما كتبها على غير هذه الصورة . لذلك جاءت ترجماته مثلاً لدقة التعبير ، وتخيّر الالفاظ التي تنقل الصورة والفكرة ، وهي من جمال الأسلوب وأناقة لا تقل روعة عن الأصل .

وترجم الزيات قصة « رفائيل » ، وهي إحدى روائع لامارتين شاعر فرنسا الأكبر ، بأسلوب عاطفي ، حكى فيها قصة غرامه أيام شبابه ، وقد تدفق حسه بالجمال والطبيعة ، وفاض قلبه بالحب لمحبيته « جوليا » ، قال : « وجدت في حظها مشابة لحظي ، فكلانا طريد هم ووحيد غربة ، وكلانا نضو أسقام وأليف وحدة » ، وهي مثلي تتجنب الضوضاء وتتقي عيون الناس . لقد أثرت في كل قلب ، وامتزجت بكل نفس دون أن تتصل بانسان ، أو تتحدث الى أحد ، كانت الفكرة في كل خاطر ، والفتنة في كل ناظر ، والكلمة في كل فم ، والجلال في كل قلب . إن هذا النوع من الناس يشيعون الأنوار ، ويخطفون الأبصار ، ويجذبون الى مدارهم من حولهم دون أن يفكروا في ذلك ، أو يقصدوا اليه ، أو يشعروا به ، لهم ما للشموس من نظام وجاذبية ، فهم يجذبون من تابعيهم الأبصار والأفكار والنفوس ، فتتعلق بهم ، وتجري في الفضاء على ضوءهم .

وترجم قصيدة « البحيرة » للشاعر نفسه ، وقصيدة الوحدة ، وهاتان القصيدتان من أروع قصائد لامارتين ، بسل من أروع الشعر العالمي ، وترجمها شعراء وكتّاب ، ولكن ترجمة الزيات تبقى هي المتفوقة على بقية الترجمات العديدة مثل ترجمة علي محمود طه المهندس ونقولاً فياض وغيرها .

الاستقامة والوضوح سمته :

والزيات أديب مطبوع ، تتسم كتاباته بالصدق ، ومقالاته بالفن . وهذا سر بقاء ما كتب ، بليغ ، وسر بلاغته وصف الشيء بصفته ، ووضع الكلمة في موضعها . وهو يفضل الإيجاز على الإطناب ، وجرهر إيجازه الإبانة والأناة . ظل يكتب في تواصل ، ولم يتخلف عن مجالات العلم والفن ، ويعبر عن متطلبات الحياة العربية مع دفقات من الايمان تغمر قلبه بالحرارة والحياة ، وتزخر بالشعور والوطنية ، ويتميز مذهبه في الحياة بالاستقامة والوضوح كما وصف نفسه :

« وبفضل هاتين الميزتين - الاستقامة والوضوح - بلغت الغاية التي قصدتها منذ وعيت ، ولم أبلغ الثراء الضخم ولا الجاه العريض ، ولكن بلغت عليه العيش الرخي ، والبال الرضي ، والذكر الحسن ، والسعادة الحقة أقرب الى الرضا والسكينة منها الى المال والمنصب ، وحرصت على أن يكون مذهبي واضحاً ، حتى إذا كانت المشكلة الصعبة تعرض فيكون حلها يسيراً بشيء من النفاق ، وقليل من المصانعة . ولكني كنت أنفر من ذلك كله ، واحاول أن أعالجه بالصدق والصبر والصراحة فتتحل بعد ان تترك في النفس من الأثر ما يتركه الجرح في الجسد من الندوب . ولكن هذه الندوب ستظل على الزمن مثاراً للذة من لذات الروح ، فيها العزة والحرية والكرامة . نهج لي هذا المذهب ، وألزمني إياه طبع حر مسالم ، فأنا منذ حملت نصيبي من عبء الحياة أحاول أن أستقل في عملي عن إرادة الغير ، وأستغني بقدرتي عن معونة الناس ، فلم أضع يدي ولا عنقي في أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد صعود العُلى على أكتاف الطوال من ذوي السلطان ، وإنما اضطربت في مجالي الحيوي طليقاً من كل قيد إلا قيد الخلق ، مستقلاً عن كل عون إلا عون الله ، بذلك سلمت نفسي من رذائل الوظيفة ، فلا جن ولا ريا ولا ملق ،

وبرئت حياتي من نقائص التبعية ، فلا خضوع ولا إغضاء ولا ذلة .

والزيات كما تحدث عن نفسه حيي وقور هادي يكره المباحكة والمجادلة ، وينأى بطبعه عن الخصام ، يشي بتؤدة ، ويتحدث بصوت خفيض ، ويتأمل بعمق ، ويرسل أفسكاره كالنسيم تجري رُخاءً حيث أراد . فاذا أحس كرامته أو كرامة أمته يعتدي عليها أو عليه غريب أو قريب ، ثار كالبركان ، وراح يرسل من قلمه شواظاً من نار يقذف به ذلك الجبار ، وقراء الرسالة يذكرون غضبته العارمة يوم تناول « النبيل عمرو إبراهيم » أحد الأمراء وتعاظم على المصريين أبناء الفلاحين — كما حلاله أن ينعتهم — أمثال محمد محمود ومحمد حسين هيكمل ، ثار ثورة الأسد الجريح يؤدب ذلك الأمير المتناول ، فقال : « إن الوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم في تقويته وترقيته وخدمته ، فالفلاحون على درجته العليا لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه ، والأمراء درجته السفلى لأنهم فيه معنى السرف الذي يفقر والترف الذي يوهن والبطالة التي تميمت ، وبين هاتين الدرجتين تفاوتت مواقف الوزراء والكبراء على حسب ما لكل منهم عليه من فضل . لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك تمسك « القرباج »^(١) ، ونحن نمسك الفأس ، وتأكل الذهب ، ونحن نأكل التراب ، وتعبد الشيطان ، ونحن نعبد الله ، وبتكلم التركية ونتكلم العربية . لا يا سيدي النبيل ، ليس المصريون في الجنسية والوطنية سواء ، فان منهم من تتمتع بالقانون لا بالأصالة ، وتوطن لمنفعة ، وكيف يستوى في ميزان الوطنية من يقف على مصر يده وقلبه ودمه ، ومن لا يعرفها الا معرفة الغرماء ، ولا يعيش فيها إلا شهور الشتاء .

وثأر لنفسه حين عرض به صديقه محمد كرد علي ، فكتب يرد عليه بأدب جم ، ولكنه ثار ثورة عارمة حين ظلمه العلامة أمين الخولي ، ولم يقف بسهامه الرائشة عند تسديدها الى جسم الخولي ، وإنما أبعد الرمي الى زوجه وشريكة أدبه وحياته ابنة الشاطئ . وسبحان من تنزه عن الخطأ ، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ؟ .. كفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه .

الزيات في العراق :

كتبت جريدة البلاد في ١ كانون الأول سنة ١٩٢٩ خبر وصول الأستاذ الزيات ، قالت : « وصل بغداد أخيراً حضرة الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي ذكرنا خبر تعيينه استاذاً للادب العربي في دار المعلمين العالية ببغداد في عدد سابق . وقد قالت السياسة بمصر في توديع حضرته ما يلي :

» رسول الثقافة المصرية :

علمنا أن الحكومة العراقية تعاقبت مع الأديب الكبير الاستاذ أحمد حسن الزيات على أن يتولى منصب أستاذ الآداب العربية في مدرسة دار المعلمين العليا ببغداد ، وقالت :

» ولنا في حاجة لأن ننوه بتوفيق الحكومة العراقية في هذا الاختيار ، فالأستاذ الزيات من أعلام المدرسة الأدبية الجديدة ، وله طرافة في النقد الأدبي يشهد بها مؤلفه المعروف في « تاريخ الأدب العربي » وبيان ساحر يذكره كل من قرأ ترجمته « لآلام فرتر » و « رفائيل » . والاستاذ الزيات انما يذهب الى العراق رسولاً للثقافة المصرية الجديدة التي يبدو أثرها اليوم واضحاً في جميع البلاد العربية ، وسوف يكون له من

مهمته في عاصمة العراق وسيلة لتقوية الروابط الفكرية والاجتماعية بين القطرين الشقيقين » .
تحية بغداد :

افتتح أول درس ألقاه الزيات بالكلمة التالية :

... ثم ألقى السلام على دار السلام وحاضرة الإسلام ، وأنحنى إجلالاً لأحفاد الهاشميين وسلائل العباسيين ، أولئك الذين بلغوا رسالة العلم والادب وأدوا أمانة الحضارة والفن الى العالم الحديث ، ثم أحيي فيكم ناشئة العراق ومعقد آماله ومجدي شبابه ، فأحبل اليكم عطف إخوانكم في مصر وشدة إعجابهم بنهضتكم وحسن تقديرهم لخطتكم ، وقوة أملهم في أن يعود العراق بفضلكم وعملكم كما كان مغدق الجذع مشمر الافنان جياش الينابيع بالقوة والثروة والعمران والسلطان والحضارة .

ان بغداد لم تحل من التاريخ الإنساني هذا المحل الأرفع الأوسع لأنها عاصمة قطر وحاضرة خلافة وسوق تجارة ، وإنما شغلت صحائف الدهر وملأت مسامع الكون ، لأنها كانت عنواناً لحضارة نظمت القديم والحديث ، ورمزاً لثقافة شملت الشرق والغرب ، ومناراً لهداية عمت البر والبحر ، وبرزخاً بين الظلام والعدم نجت عليه الإنسانية بتراتها التليد من علم وأدب وفن الى هذا العصر ، وما أوزرت العمارة والحضارة عن « الزوراء » وقفجرت الدواهي على العالم العربي الا بتغلب الأعاجم وتحكم الهوى وشيوع الجهالة . فاذا عقدتم القلوب يا شباب العراق على استرجاع المجد والذهب ، واسترداد التراث المنهوب ، فلا سبيل ولا دليل إلا العلم . وإذا لجأتم اليوم الى أوروبا ومصر فانما تسترجعون من الأولى بضاعتكم وتستردون من الثانية أمانتكم ، فان علومكم بعد أن تجهتم الشرق لها وأضعف الزمان أهلها ، نزحت الى أوروبا عن طريق الشام والمغرب ، فأحييتها من موات ،

وأوجدتها من عدم . أما حضارتكم وثقافتكم وخلافتكم ، فقد لجأت فلولها الى مصر بعد أن رأت بغداد يصرعها غدر الفرس وقوحش النتر ، ورثت مصر بغداد ، والليث لا يرثه إلا شبله ، والعظيم لا يخلفه إلا مثله ، ولكن مالي أقول ورثت ، وبغداد القوية العظيمة إنما هيضت ولم تمت ، وهل الأمة التي سجلت أخبارها في كل خاطر ، وطبعت آثارها في كل ناظر ، تقوى يد الحدثان على محوها من سجلات الوجود ؟

إن بغداد التي أنشأها العرب وحضرها العلم ، لا يجدها إلا العرب ، ولا يغمرها إلا العلم ، وقد اذن الله لمدينة المنصور ووليدة النور ومهبط وحي العلم أن تخلص من سلطان يأجوج ومأجوج بعد أن فدحها سبعة قرون ، فتولى أمرها صفوة الأمة العربية ، وتبوأ عرشها فرع الدوحنة الهاشمية ، وأخذ ققام الجهل والفقر والظلم ينجاب رويداً عن سماء الرافدين ، إن بغداد هي الموطن الروحي لكل عربي ومسلم فبأدبها نتثقف ، وبحضارتها نتشرف ، وبمجدها نفتخر . عرفتها صغيراً في ألف ليلة وليلة فكانت موطن الأحلام والأنعام والشعر والسحر والحب والفخامة ، وعرفتها كبيراً في التاريخ والأدب فكانت عرش الشعب وكعبة الأدباء ومبعث الأنوار وملئقى الأفكار ودار الحكمة ، ثم رأيتها وأسفاه اليوم فاذا بغداد الكبيرة في القلب ، صغيرة وآسفاه في العين ، صغيرة ولكن صغرها صغر النواة تضمنت سر النخلة السحوق ، وإن بكم شباب الرافدين نماءها ، وفيكم رجاءها ، وعلى الله وعليكم اعتمادها فتعهدوا هذه النواة بالغناء والري ، تفننكم ظلها وتؤتكم أكلها ، وتعمموا منها بروح وريحان وجنة ونعيم ^(١) .

الادب العربي - أو الدرس الاول - :

ثم نشرت البلاد في ٦ كانون الأول ١٩٢٩ ، في « صحيفة الشعر والبيان » التي اعتادت الجريدة نشرها يوم الجمعة من كل اسبوع ، الكلمة التالية للزيات تحت عنوان الأدب العربي ، وهي تنمة تحيته لبغداد وطلابه في أول لقاء مع طلابه في أول درس .

« أدبنا العربي على سعته وجماله فوضى ، فلا حدوده مرسومة ، ولا مناهجه معلومة ، ولا قواعده ثابتة ، فنحوه أصداء مختلطة ، بهمة اللهجات القبائل الجاهلية ، لا يكاد تتفق على وجه من وجوه الاعراب ولا يطرد مذهب من مذاهب القول ، حتى ليوشك أن يكون كل كلام صواباً وكل كلام خطأ . وبلاغته مسائل اجتهدية وقضايا جدلية ونسكات لفظية ، لا تحور الى فن ولا تكشف عن غاية ، كأنها وضعت لكل شيء غير الشعر والكتابة ومذاهب مطموسة الاعلام دارسة الرسوم ، لا تدري أين تبتدىء ولا أين تنتهي . فالكاتب يسلك الى غايته السبيل بعد السبيل ، وهو يظن نفسه على الجادة الأولى ، وربط وجدت في المقال الواحد ازدواج ابن المقفع وفقرات الجاحظ وسجعات ابن العميد ونكات القاضي الفاضل وترسل ابن خلدون ، ذلك لأن الأدب العربي لم يكن أدب أمة واحدة ولا مظهر ثقافة واحدة ولا محصول لسان واحد ، وإنما هو مجموعة من الاخيلة والتصورات والمعتقدات التي امتزجت باقتراح الامم الاسلامية في شباب الدولة العباسية ، فهو أشبه بالبحر ، لكل نهر فيه مصب ، ولكل متلاح فيه طريق ، وفي كل ناحية منه تيار ، ثم هو من بعد يجتمع للأولئ والمرجان ومستودع المحار والأحجار ، على أن الدهر ما لبث أن نظر الى هذا البحر العجيب الهادر ، فخفت روافده ، ونضبت موارده ، وجزر مأؤه ، حتى ارتد الى مثل الغدير الآسن يطن على متنه البعوض ، وتنتق على حافتيه الضفادع ، انحسرت ظلال الأدب العربي قبل أن تعبد

طرقه وتمحص قواعده ويكمل نقصه ، وطمت سيول المعجمة على ما بذر عبد القاهر وأبن الأثير ، فاعتاقته عن النباء والتفرغ ، وأخذت الأسنة العبية تتحرك في هذا التراث المضاع بالهراء والهذر ، فعمفوا طرائقه وشوها حقائقه ، ثم ألقوه بين أيدينا جثة يتدد فيها ذماء ، وصورة لا يحول فيها رونق ولا ماء .

فنظرنا فيه ، فاذا هو مسيخ الخلق ، منكر الطلعة ، لا إلى القديم ولا إلى الجديد ، فوقفنا موقف الأثري من حلال فرعون ، يحيص جوانبها لتتظر لا لتلمس ، وتؤثر لا لتلبس ، وأخذنا نخدد هذا الأدب البالي بالشرح والتلخيص والدرس دون أن ندعم أساسه الواهي ولا أن نرفع بناءه المنقض ، فما برحنا نعتمد في البلاغة على تقسيم القدماء وتعليمهم ، ونقصرها على تعليمهم وتمثيلهم ، فنفرد أهم دواعي التقديم والتأخير والحذف والذكر مثلاً الى نحو ما قالوه من تعجيل الاساءة أو المسرة ، والتسجيل على السامع وصون اللسان عن ذكره ، ونقول في التشبيه : إن الثريا كعنقود العنب المنور ، وفي الاستعارة : رأيت أسداً في الحمام وعلى فرس ، وفي الكناية : زيد كثير الرماد أو جبان الكلب أو مهزول الفصيل ، ونفرض الشعر على النمط القديم من الوزن والقافية والأسلوب والعرض ، كأن لم نسمع الى اليوم بالشعر القصصي التمثيلي ، ونعرف النشر في تدبيج الفصول وإنشاء الرسائل ، والغرب يطرنا كل بريد فنوناً شتى من القصص الرفيع يعالج فيه كتابه مشاكل الحياة ومسائل اليوم .

لقد اختلفت مذاهب الكلام ، وتعددت أغراض الكتابة ، وتنوعت فنون الانشاء ، ورأى شبابنا في الأدب العربي صوراً حقيقية حية لما يحول في نفوسهم ويتنزي في رؤوسهم من الهوى والأمل والفكر ، فأقبلوا عليه ظمأً مهطعين ، ينهلون العذب الروي من حياضه ، ويقطفون الحلو الجني من رياضه ، وتركوا أدبنا الصناعي التقليدي المتشابه يذوي على

السنة المحافظين وأقلام الجامدين من بقايا العهد القديم ، فالحال إذن تنادى بإعادة النظر في علوم الأدب وفنون الإنشاء ، فيصلح منها الفاسد ، ويتم الناقص ، ويفصل الجمل ، لتتسع لأغراض الحياة ومقتضيات الحضارة ومطالب العصر ، وبقيننا أن أقدر الناس على الاضطلاع بهذا العبء الخطير هم أساتذة الجامعة ، لِمَا يتهيأ لهم من وسائل الدرس وحرية البحث وقوة الأثر .

وختم كلمته الرائعة بقوله :

« لا جَرَمَ أنْ قد آن لمعلمي البيان أن يصيخوا الى هذا الهمس الساخر والانكار الحق ، » يريد همس الطلاب واستنكارهم لما يحفظون من قوالب بالية وأمثلة لا ذوق فيها ، « فيوفقوا بين موروث البلاغة ومستحدث الأساليب ، ويؤلفوا بين ذوق الاسلاف وذوق الأخلاف ، ويوسعوا نطاق الفن الكتابي ليشمل الملحمة والقصة والرواية ، فان الادب أصبح اليوم شعبياً فيه لكل غلط نصيب ، ولكل غرض سهم ، ولكل غاية مسلك ، وما مثل الذين يحاولون أن يحصروا فنون الأدب في حدود القدماء ، ولا يستذيق الشعر الا مسؤول المدح والثناء ، الا كمثل الذين يحاولون أن يحصروا السيل الجحاف في المفيض الضحل ، ويتلمون بفقاقيع الماء عن المنطاد السبوح . »

الزيات يشارك في تأبين المرحوم السعدون :

أقيمت في بغداد حفله تأبين كبرى أثر انتحار عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء ورئيس الأسرة النبيلة الشريفة أسرة السعدون التي كانت لها رئاسة عرب المنتفق ، وكانت انتفاضة وطنية اجتاحت العراق من شماله الى جنوبه إثر حادثة الانتحار ، فألبست لباساً وطنياً ، وألقي في روع الناس أنه ذهب شهيد الصراع بين مطالب الانكليز وبين رغبات الشعب التي عبر عنها بوصيته الخالدة : « الأمة تطلب الخدمة والانكليز لا يوافقون » .

وصل الأستاذ الزيات الى العراق والشعب لما يفق من أثر الصدمة ،
والحزن ما زال بادياً على وجوه الخاصة والعامة ، فتأثر أدب الزيات بالحادث
بكلمته الساحرة : (تأمل ساعة) ، ثم بمشاركته بكلمته البليغة هذه بالرغم من
أنه كان طريح الفراش لوعكة ألمت به ، وهو لم يَمْتَسِدْ جوَّ العراق ، قال :
ومصر أيضاً تبكي السعدون :

« سعد » في مصر مفروء لا يثنى جمعته العراق في « السعدون »

وقديماً كسر اعراب العراق نون الجمع ، فله ذانك الاسمان كيف اتحدا
في المادة اللفظية واتفقا في الغاية المعنوية ، واختارتهما عناية الله ليكونا
نبيي وطنية وباعثي قومية وعلمين من أعلام الهدى سار على هديهما
الضالون والحائرون والشرد ! فكلأهما كان روحاً لبلاده ، ووحياً من الله
في وصاياه وإرشاده ، ومثلاً عالياً للنشء في صدق جهاده ، وزعيماً صلب
العود في رأيه واعتقاده ، وحياة خالدة بتضحيته واستشهاده ، هكذا
علمنا « سعد » وسمعنا عن السعدون ، فإننا لله وإنا اليه راجعون .

صدع سعد بما أمر فصارع الخصم بمعاداته ، وملاً عليه الارض بخطبه
ونداءاته ، ونبأ عنه بثقته ووده طيلة حياته ، وآثر السعدون الرفق به
فابتغى الخير من صلحه ، تحرى له وجوه النصح ، فما انتفع بنصحه ،
فكانت عاطفته الجياشة حتى استبأس من نجحه ، فتفجرت من قلبه ،
وسالت من جرحه .

هكذا علمنا من سعد ، وسمعنا عن السعدون ، فإننا لله وإنا اليه راجعون .

على النيل حياة عجيبة ، وعلى الفرات موت مرعب : موت هو الحياة ،
وبأس هو الامل ، وعدم معناه الوجود ، ورصاصة منقذة دوت في سكون
الليل الساجي ، فكأنها صور القيامة أو صيحة الكرامة ، وكأن روح

السعدون - وقد أكرهت على مفارقة جسمه - حلت في كل جسم ، فترى العراق بين يوم وليلة وقد فار كالبركان ، وثار كالعاصفة ، واهتز اهتزاز الشجرة الفناء هاجمتها الزوابع الهوج .

يعزينا عن موت الحُر أنه حياة لأمته ، والشعب الناهض لا بد له من التضحية في نهضته ، وطريق الحرية الغالية محمرة بالدماء ، مخوفة بالألم ، والحرية منذ قدستها الشعوب وألستها ، شرهة إلى لحوم القرايين ، ظميئة الى دماء البشر ...

فعزاء أيها الشعب الكريم ، وصبراً ، فإن من الشدة فرجاً ، ومن العسر يسراً ، وأصخ الى صوت هذا الطلق يدوي من بعيد ، واكتب إلى أبنائك صحيفة الفخر بدم هذا الشهيد ، وقل : يا رب ، هذه الضحية ، فهل يكون لنا من بعدها عيد ؟؟ » .

مشاركة الزيات

في حفلة تأبين عبد الرسول الجايي

كان الفقيد من نوابغ الشباب ، فذاً في ذكائه فرداً في صفاته حبيباً لنفس كل من عرفه دؤوباً على الدرس برغم أنه سليل بيت عرف بالغنى والجاه العريض ، وأولاد الأغنياء قليل منهم من يقبل على الدرس ويصبر على التحصيل كشأن أبناء الأسر الفقيرة أو المتوسطة .

أنهى الدراسة الابتدائية والتحق بالأليانس لتعلم اللغات - الفرنسية والانكليزية - وبعد أن أنهى الثناوية درس الحقوق وحصل على شهادتها بامتياز ، وكانت وحدها تؤهله أن يتوسد أعلى المناصب لما له من شخصية محببة وما لوالده من نفوذ ، ولكنه فضل المحاماة ، فزاولها برهة من الوقت ، ثم انصرفت همه الى الاستزادة من العلم ، فرحل الى انكلترا ، والتحق بجامعة أكسفورد في كلية « الاقتصاد السياسي » ، فكان مفخرة للشباب العربي في

تفوقه على المثنيين من الشباب الغربي على اختلال صحته ونحول جسمه ،
وعاد إلى العراق يحمل العلم والخلق والصلابة في العقيدة والوطنية ووسدت
اليه وظيفة في مديرية الضريبة العامة فكان مثلاً حسناً للموظف الكفؤ
علماً وخلقاً ، ولكن القدر لم يمهله طويلاً فقد أصيب بمرض أعيا نطس
الأطباء شفاؤه وحمل البرق نعيمه وهو في باريس يوم ٢٧ حزيران سنة
١٩٣٠ ولما يتجاوز السابعة والعشرين فكان لنعيمه صدى حزن وتفجع
على الشباب الناصر والأمل الزاهر والوالد الصابر .

وفي أربعينيته أقيمت له حفلة تأبينية شارك فيها نخبة من الشعراء
والأدباء في مقدمتهم الأساتذة أحمد حسن الزيات والشاعر الأديب ناجي
القشطيني والأديب الشاعر محمد بهجة الأثري والشاعر الشيخ باقر الشبيبي
والدكتور الجمالي ، وأصدرت لجنة التأبين كراساً ضم هذه القصائد والخطب
طبع في مطبعة العهد بعنوان ذكرى فقيد الشباب عبد الرسول الجلي .

كلمة الزيات

الشباب الدابل :

سادتي : دخلت حين مقدمي إلى بغداد على معالي وزير المعارف أسلم
عليه واعترف نفسي اليه ، فلقيني معاليه لقاء جميلاً ، وأنسني بحسن
حديثه طويلاً ، ولكنني كنت ألمح من خلال نظراته ، ومن كلماته
أن الرجل يتحامل على نفسه فكأنه يخفي وراء هذا الوجه المتهلل
والحديث المتسلل ماضاً موجعاً وحزناً دخيلاً ، فحملت ذلك على طبعه
واستأذنته وانصرفت فلقيني المستشار ، وكان أول ما قال لي بعد التحية
ما معناه : آسف انك لقيت الوزير وهو في أشد حالاته ، وأخرج
أوقاته ، فلان ابنه مريض وقد تبلفت به العلة اليوم ، وهو شاب
لا كالشبان ، وزهرة نضرة عاجلها الذبول قبل الألوان فن حقه أن
يعظم بَشُهُ ويشتد أساه .

كانت هذه الشهادة الزهية من لسان أجنبي أول ما وقع في سمعي عن الفقيد ، الكريم ، ثم أخذ بعدئذٍ لسان الحمد يروي إلى ذكره كلها جرّ الحديث الى ذكر الشباب العامل والخلق المُصنّفى ، والهمة البعيدة . فتمثل في ذهني لهذا الشاب صورة منسقة مهذبة ، لو ان « فدياس » تخيل تمثالاً للتواضع الابي والطموح الحي والعزم النساقد والحس اللطيف لما عداها . كان الحديث عن عبد الرسول من كل لسان ، وفي كل مكان مزيجاً من الأكبار والأسف ، لأن شبابيه كما سمعت من النمط الذي يعوز الشعوب الناشئة والأمم المبهضة ، لجمعه بين فقه الدين والدنيا ، وملاءمته بين جدة الفكر وقدم الفضيلة ، وعزوفه عن ثروة الأهل ومنصب الحكومة ، وهو الحياة ابتغاء الكمال العقلي ، وطلباً للثقافة الصحيحة ، فكان تواتر هذه الأحاديث العطرة يغريني بلفقائه كما يغريني عبير النسائم بأفياء الرياض ، ولكن النفوس الكبيرة وأسفاها لا تتحملها أجسادها ولا تقوى على حبسها أقيادها ، فكانت نفسه الفتية الطموح لا تفتر عن الزوج ، واجنحتة القوية السبوح لا تني عن الخفوق ، حتى بلغت به على صفره ذرى العلياء ، ثم استشعرت هناك نعم اللانهاية فطارت إلى السماء .

جاء النعي على جناح البرق ، يعلن استشهاد الغريب ، فأرفض عن القلوب المعروقة الصبر ، واستولى على الناس ذهول وكمد ، وذهبت مع الداهيين الى القصر الحزين أواسي الوالد الواله ، فلم أسمع من الكرخ إلى الكاظميه إلا ذكر الفقيد يتصاعد من القلوب المحترقة كما يتصاعد البخور من خلال الجمر ، فكان أنه قريب إلى كل نفس وحبيب إلى كل قلب .

فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسةً ووحدة من فيها بمصرع واحد

ويا حسرتاه على الأنفس الكريمة كيف تموت ؟ وعلى الآمال العظيمة كيف نفوت ، وعلى الوالدين يفرسان المنى فيسقيانه بدم القلب ، ويكلاّنه ينور العين حتى إذا وَرِفَ الظلُّ وآنَ المنصور الزهر أن يكشف عن

موفور الثمر ، قال لهما الموت الجائر : حسبكما هذا نصبي .

والموتُ نقادُ على كفه جواهر يختار منها الجياد

ليست المصيبة في فقدان الفقيد مصيبة أهله فحسب ، إنما هي مصيبة الوطن والشباب والعلم ، فقد كان رحمه الله للوطن الناشئ عدة وقوة ، وللشباب الناهض زينة وقودة ، وللعلم الصحيح رسولاً وحجة .

إن الوطن لا ينهض إلا بشبابه ، وإن الشجر لا يثمر إلا بأغصانه ، أما الشيوخ والجدوع فهم الاصل والمدد والسند ، ولكنهم الصق بالارض وأميل إلى السكون وأقرب إلى الجود ، فلا تقوى على تحريكهم رياح الامل ، ولا تغرد على حطيمهم طيور السماء . فالفجعية بالشباب الصالح فجعية لا يفيد فيها الصبر ولا يعوض منها الاجر ، لأن الاحتساب والثواب إنما يرجعان الى الوالدين . أما الامة فمصائبها في أمثال الفقيد الكريم ، يفت في سواعدها ويوهن من قواعدها ويضعف من قواها . العاملة على حين تستغيث بأبنائها من « النذبة » وتهيب بهم إلى السعي متحدين لتنفيس الكربة فلا عزاء لها عنده إلا بسد الخلة وتوثيق العقدة وافتتاح الشباب العامل خطة الكريم الراحل فيستكملون فضائل النفس ويستبطنون دخائل العلم ، ويطلبونه لنفسه لا للمنصب ويعملون به للأمة لا للمكسب ، ويشعر كل منهم أنه كلمة مفيدة في جملة الامة ولبننة قوية في بناء الوطن ، فيسيرون بقومهم في طرق الإصلاح والتجديد ، ويقولون لمن أقام الوصاية إنها باطلة على دار (الرشيد) .

حينئذ تعرف الامة معنى العزاء ، لأنها لم تعرف معنى الشكر ، وحينئذ يحق لها أن تقول في أبنائها بلهجة الصابر الفخور .

نجوم سماء كلاً ما غاب كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكب

تأمل ساعة :

سكن الأستاذ أولَ قدومه بغداد فندق « كارلتون » على صدر دجلة بالقرب من جسر الأحرار (جسر مود) ، وكان من أوسع فنادق بغداد وافخمها ، مدخله من شارع الرشيد مصاقبٌ لمدخل (أورزدي بك) ، ولهذا الفندق شرفات وحديقة تطل على دجلة يتخذها نزلاء الفندق مستراحاً لهم . ندب الزيات للتدريس بالعالية بتوصية وترشيح من زميله وصديقه الأستاذ عباس العقاد الذي رشحه استاذنا طه الراوي قبل الزيات ، فاعتذر لارتباطه مع الوفد وخوضه المعركة الانتخابية .

جاء الزيات العراق وشهرته تسبقه ، فقد عرفناه أديباً مشرق الديباجة بترجماته (آلام فرتر ورفائيل) ، وقرأنا له مقالاته في الصحافة المصرية ، فاستقبله المتأدبون والصحافة العراقية بالترحاب ، وثقافتوا على فندق كارلتون يسلمون عليه ويرحبون بمقدمه ، وفتحت جريدة البلاد صدرها لنشر محاضراته ومقالاته ، فنشرت له تحيته لبغداد ، ونشرت مساجلته الطريفة مع الأستاذ محمد بهجة الاثري ، كما نشرت كلمته في رثاء السعدون ، ومحاضراته القيمة في الأدب العربي . وفي ٢٦ شباط سنة ١٩٢٩ نشرت له البلاد مقاله الممتع (تأمل ساعة) ، فكان له صدى استحسان لدى القراء ، وأثار تعليقات كثيرة على صفحات الجرائد ، ونال تقدير الوطنيين ولاسيما الشباب ، وكانت الصحافة يومذاك تعنى بالمقالة وصفحاتها تغطيها القصائد الوطنية والمقالات الادبية والاجتماعية والتاريخية ، والقراء على قلتهم بالنسبة إلى المتعلمين اليوم كانوا يتلففون الصحف والمجلات والكتب يقرؤونها ويستوعبون أخبارها ويتذوقون اساليبها ، ولما تقابل شاباً متعلماً لم يتأبط كتاباً أو مجلة يقبل على قراءتها وقت فراغه في الاندية أو المقاهي .

« في الشرفة الوسيعة من فندق « كارلتون » جلست اطالع في صفحة

دجلة ما خطته يد القرون ، وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج
النهر وسطوح الكرخ وحواشي الافق ، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء
والبهاء والدفء ، بعد ما أجهدا رعد الأمس وبرقه ، وأغصها وابل الغمام
وودقه ، فالسما مصرية الأديم ، والجو عبهري^(١) النسيم ، والأفق الغربي
مزدان بقزعات^(٢) من السحاب الأبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينه
'نظاراً' من طول ما حمل اليه السيل من كنوز الجبل^(٣) ، أخذت أصوب
النظر وأصعده في النهر والجسر والشاطئ ، فأرى أنماطاً من الناس
وأخلاقاً من الاجناس ، وصوراً من الأشياء تنكرها العين ويعرفها القلب ،
لأنها شرقية ، ولأنها عربية ، ولأنها مظلومة .

ذكرتني هذه المناظر مناظر غابت في سويداء القلب ولغائفه ذكرتني
تقابل الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابل القاهرة والجيزة على النيل
الاعلى ، وتقابل المنصورة وطلخا على النيل الاسفل ، وفي هذه الاماكن
الحبيبة كان مدرج طفولتي وشبابي ، وملتقى أحبتي وصحابي ، فهاجت
شجوني ، وسالت شؤوني ، فوضعت جبهتي المضطربة على سياج الشرفة
البارد ، وعدت بالذاكرة وشيكاً الى بغداد ، ثم انطويت على نفسي ،
وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمه في غيابة الماضي حتى انقطع ما بيني
وبين الحاضر ، فانمحي من حولي العالم بأسره .

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شاد يرجع بالنغم العربي الشجي ،
فخيل إليّ أنني أرى دجلة « الامين » وجسر « ابن الجهم^(٤) » وكرخ الجان
والخلفاء من أهل بغداد المتفرقة ، ووقع في سمعي أن هذا الشادي يقول :

(١) العبهر : الباسمين .

(٢) القزعة : قطع من السحاب المتفرقة .

(٣) هو الغرين .

(٤) علي بن الجهم يشير الى قوله .

عيون المهابين والرصافة والحسر جانين الهوي من حيث ادري ولا ادري

سقى الله باب الكرخ من 'مَتَسَزَّه' الى قصر وضاح فبركة زلزل
 مساحب أذيال القيات ومسرح الد حسان ومثوى كل خرق معذل^(١)
 وصور لي أني أسمع غناء الملاحين في الزلا^(٢) ، وأبصر « الدلفين »
 و « العقاب »^(٣) يخزان العباب بالخليفة « الامين » وحسانه وقيانته ونداماه !
 وترأت لي على الشاطيء الشرقي قصور « البرامكة » الحزينة ، يقابلها
 على الشاطيء الغربي قصور الخلفاء والأمراء : تعج بالجواري والغلمان ،
 وتضج بالشعر والندمان ، وتموج بالسادة والقادة والجنود ، وتفيض بالنعم
 والجلالة والعظمة ، وتثقل في خاطري بغداد الامس كباريس اليوم في
 عدد سكانها وفخامة بنيانها ، واتساع رقعتها ، وازدهار مدينتها ، وانبعث
 الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانبثاق الهداية من جوامعها ومنائرهما ،
 إلا أن باريس تشع في جواء مشرقة تسطع فيها شمس أخرى تضارعها
 وتضارعها ، أما بغداد التي غنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها
 أبناء الدهاقين والاكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة
 والحياة في القارات الثلاث ، فتبدها ما غشيها من ظلام وخمود ونوم .

لا أدري متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة لو
 لم يعدني الى وجودي صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة ، قد
 انطلق من جوف مركب بخاري عظيم كان يشق بحيزومه صدر دجلة ،
 فسرحت طرفي في الافق ، فاذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، وإذا
 القزعات قد ارتدت بياضها سواداً ، ضربت في حواشيه حمرة الشفق ،

(١) الخرق : الفئ الكريم الحلية ، والمعذل : من يعذل لافراط جوده .

(٢) الزلا^(٢) : وحدها الزلال : أي الزورق .

(٣) الدلفين والعقاب : مركبان من مراكب الامين .

فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها نار حامية ، ثم نظرت شمالاً فاذا المسكان الذي سجدت فيه رسل « شارلمان » أمام « الرشيد » يخفق فوقه علم غريب ^(١) لا هو أسود ولا أبيض ولا أخضر ^(٢) .

وإذا قطع من السحاب السود قد انعقد فوقه ، ملبدة هنا ، ملبدة هناك ، فقلت في نفسي : ليت شعري أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ، أم هذه أثواب الحِداد لبستها سماء العراق على السعدون ^(٣) ؟

(١) هو العلم الإنكليزي على دار الاعتماد في الكرخ .

(٢) هي ألوان أعلام العرب الثلاثة في القارات الثلاث آسية وإفريقية وأوربية .

(٣) كان العراق يومئذ لا يزال مروعاً بانتحار الزعيم عبد المحسن السعدون .

مأساة الشاعر وضاح

كتب الزيات مأساة الشاعر وضاح اليعن ، ونشرتها له البلاد في ١٧ و ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٠ ، فأرضت الفن وأغضبت التاريخ . كانت مثلاً رائعاً للانشاء العالي ، فرد عليه الاستاذ الكبير محمد بهجة الأثري بأملوب أنيق ، وتحقيق دقيق ، وروعة من البثان لا يقل عن روعة أسلوب الزيات . وكان رده وتعليق الزيات على الرد نموذجاً عالياً للنقد العلمي النزيه ، أوضح في رده أن القصة مختلفة من وضع الشعوبين ، لمحتها الاختلاق ، وسداها الدس للشرف العربي في أكرم بيت من بيوتات قريش ، والخط من كرامة الخليفة الأموي في أعز ما يحرص على صيانتها كريم من أبناء هذه الاسرة العربية ، والقصة ظاهرٌ بطلانها ، ينفيها التاريخ ، وينكرها العقل ، ويهدمها النقد العلمي . كانت المساجلة مثلاً يحتذى في الوقار والتصون والادب والنقد البناء الذي يجب أن يتسم به العلماء والأدباء في المناقشة والمداولة والرد ، لا كما نراه اليوم عند بعض أدعياء الأدب من التهجم والشتم والانكار لكل مزية يتصف بها غيرهم ، والله تبارك وتعالى أدبنا في محكم كلامه الكريم فقال : « ولا تنسوا الفضل بينكم » وقال : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

وقد نشرت القصة والمساجلة بين الزيات والأثري في كراس سنة ١٩٣٥

وطبع بمطبعة العهد ، ودامت صلات المودة بين الكاتبين الأديبين موصولة ،
تجدد وشائجها كل سنة في أثناء اجتماعات مجمع اللغة العربية في القاهرة ،
وعلى صفحات الرسالة التي كانت تزين أعدادها بقصائد الأستاذ الأثري .
ولما في الرسالتين من أدب ممتع ، ونقد نزيه ، وفائدة للقارئ ،
أثبت نصيها ، وهما بعد هذا وذاك من صلب موضوعي :

القصة (١)

- ١ -

في اليمن الخضراء ، وفي صنعاء ذات الظل والماء ، نشأ (وضاح)
أزهر اللون ، أصهب الشعر ، مليح القسما ، رقيق الأديم ، ثم ترعرع
بين خمائل الأودية ومروج السهول وأزاهير الرُّبَا ، فازداد رواء وجهارة .
وإذا كان الجمل يكتسب لون الصحراء ، والسمك يستفيد مرونة
الماء ، والطاووس يستعير أفواف الروض ، فإن اليمانيين لم تصلهم بطبيعتهم
ولا يبتئهم صلة ، فهم سمر الوجوه ، ضئال الجسوم ، قصار القدود ؛
وأرضهم مشرقة الأجواء مونة المناظر ، خصبة التربة ، لذلك رابهم
(وضاح) بقدر ما راعهم ، فقالوا إنه من أبناء (الفرس) الطارئين على
اليمن في عهد (ابن ذي زن) ، ولكن الحكم سفه هذا الرأي وقضى بعربيته .
لا يعنيك ولا يعنيني أن نكشف عن دخيلة هذا الشاب ، فنصف
تاريخ أسرته وحقيقة ثروته وطبيعة عمله ، إنما يعنينا من (وضاح) ذلك
الفتى الطرير الذي أشقاه شعره ، وأبأسه شعوره ، وقتله جماله .
نريد أن ننقل عن لوح القدر هذه الصفحة الدامية التي كتبت لهذا

(١) نشرت في جريدة البلاد ، في ١٧ و ٢٤ شعبان ١٣٤٨ هـ . ١٧ و ٢٤ كانون الثاني

البائس ، وجرت عليه في غير رفق ولا هوادة .

كان وضاح الجميل الشاعر كالبلبل ، يعرف في نفسه جمال الريش
وجمال الصوت ، فهو لا ينفك في حذر من الصائد ، وخوف من القنص ،
فكان يغشى المواسم والأسواق وهو مقنّع منتقب ، خيفة الحاسد ،
وحذر المرأة !

ولكن المرأة كانت تعترضه بكل سبيل ، وتترقبه في كل مرصد ،
وتتراءى له في كل مكان : تحت النخيل ، وفي الأسواق ، وعلى الماء ،
وهو لا يزداد إلا تمعناً وترفعاً ووحشة ، لأنه محبوب ، ومن طباع
المحبوب الإدلال ، ولأنه مطلوب ، ومن غرائز المطلوب الهرب ، ولم
يجد مع ذلك فيمن رأى من النساء روحاً جذابة ولا قوة غلبة ولا
جمالاً أبرع من جماله ، على أن (وضاحاً) خلق للحب ، وكتبت عليه فيه
الشهادة ! فعيناه على غير علمه تردادان الحبيب ، وقلبه من قلقه وانتظاره
يضطرب في حنايا صدره ، وعواطفه من اضطرامها وانبساطها تسكاد
تسيل ، وكان يفر من ضوضاء (صنعاء) ومتاجرها وقوافلها إلى سكون
الصحراء الرهيب ، وهدوء الطبيعة الموحش ، فيقضي سحابة نهاره جالساً
في روضة ، أو مستلقياً على غدير ، أو نائماً في مغارة ، كأنه نبي من
أنبياء بني إسرائيل ينتظر الرسالة .

- ٢ -

ففي صباح يوم من أيام الربيع مشرق الأديم ، عنبري النسيم ،
منضور الخنازل ، استهوته الطبيعة فأخذ يضرب الأرض حتى متع النهار ،
وإذا هو على مساء من أمواه (الخصيب) من قرى (اليمن) ، وفي
(الخصيب) شدّ الجمال أطنابه ، وشاد الحب معبده ، والعرب يقولون
لك : « إذا بلغت أرض الخصيب فسهرّول ! » .

فجلس (وضاح) ينضح ظمأه ، ويرفه عن نفسه ، إلى أن طاف به الكرى فنام .

تنبه (وضاح) ساعة الأصيل على صوت رخيم الحواشي متسق النبرات في رنين الفضة ، فنظر فرأى حورية من حوارى الحقول قد حسرت عن ساقها ، وغمست رجلاً في الغدير ووضعت رجلاً على الحافة ، وهي منحنية على الماء تجمع ثوبها بيد وتلأ سقاءها بيد ، فرجف قلبه وبرق بصره وخيل إليه أن عينه لم تقع من قبل على فتاة ، فنهض يملأ من هذا المنظر الرائع عينيه ، فلفتتها حركته ، فرفعت بصرها إليه في سكون طرف وفقر لحظة ، وكأنها همت بالكوص لولا أن رأت منه ما رأى منها ، فوقفت جامدة لا تتحرك وشاخصة لا تطرف ، بل أحست من نفسها الهفوان إليه حين تقابل النظران وتجاذب القلبان ، ومشى إليها مشية الحباب في حياء ووناء ورقة ، حياءاً فردت التحية ، واستنسبها فاستنسبت كـينـديـة ، واستسبها فقالت : (روضة) .

ثم جرى بين الحبين حديث الشباب الحي المضطرب الحائر .. ويكاد نصه يكون واحداً على اختلاف الألسنة والأزمنة والأمكنة فلا نثبته ، وكيف نثبت كلام الناظر للناظر ، وتدفق الخاطر للخاطر ، وعنقاق القلب للقلب ، وامتزاج النفس بالنفس ، ولحن اللسان للسان ؟

كانت (روضة) كما تشتهي كل فتاة أن تكون ، فهي كما صورها (وضاح) في شعره « كاعب وضيئة الطلعة ، لطيفة التكوين ، مصقولة الجبين ، يزينه شعر أثيث ، شعر كذنب الكميت ، زجاء الحاجبين كأنما شقاً بقلم ، تقوَّساً على مثل عين الطيبة ، ساجية الطرف ، ذلفاء الأنف ، عبلة الذراعين ، لا ترى فيها عظماً يحس ولا عرقاً يحس ، طفيلة الكفتين ، تعقد إن شئت منها الأنامل ، ممشوقة القد قد أفرغت في قالب الحسن .

وجسد كل منها في الآخر مَـشَابِهَ في زهرة الوجهـ وصهبة الشعر
وهجنة النسب بالدم الفارسي ، فتعارفاً بلحظة ، وتفاهما بلفظة ، وتآلفا
تآلف الأخدان ، كأنما كانا على موعد .

طوت شمس الطَّغْفَلِ الغاربة مطارفها العسجديه عن السهول والحقول ،
فلم يبق منها إلاّ هلال على رؤوس التلال وشعاف الجبال وأعراض
النخيل ، وأخذ الرعاة يروحون بالقطعان إلى الحظائر ، وأن الراعية
الحسنة كذلك أن تؤوب ! فقامت (روضة) متناقلة ، وودعته متخاذلة ،
وسارت وراء قطيعها تتهادى في مرطها المفوّف ونطاقها المحبوك وخمارها
الأسود كأنها إلهة للرعاة أو تمثال الحسن . تلاقيا مرة أخرى في سرة
الوادي المعشب ، وقد عملت فيه يد الطبيعة فأزترته بعميم النبات ،
وطرزته بألوان الزهر ، وضمخته بعبير الخزامى وربنا البشّام وأرج
الرند ، فجلسا ساعة تحت دوحة يتساقطان عذب الحديث ، ويتناشدان
حلو الغزل ، ويتساقيان كؤوس الهوى ، ثم نهضا يسيران صاعدين تارة
في مدارج السيل ، وهابطين تارة إلى قرارة السهل ، يحنيان الكأء ،
ويقطفان البهار ، ويلتقطان الجزع المفصل . فلما نفضت الشمس على
الأفق الغربي تبر الأصيل ، توادعا ، ثم توادعا على اللقاء ، وتعاهدا
على الوفاء بعد أن شق عليها رداءه وشقت هي عليه برقعهما ، استدامة
للحب وبقياً على الهوى .

- ٣ -

ظل العاشقان في غفلة الزمان والإنسان ، يتلاقيان كل يوم على خلاء ،
حتى نمت على هواهما شعر (وضاح) ، فتنبه الغافل وتحرش العاذل
وتحذر الأهل ، فجالوا بينهما وبين لقائه وتوعده . فكان (وضاح)
يأتي كل يوم على عادته ، فيجلس في الأماكن التي اعتادها ، ويرتاد
الغياض التي ارتادها ، ويستروح الشّعَامى والخُزامى ، فلا يجد قراراً في

مكان ، ولا جمالا في طبيعة ، ولا رَوْحاً في أَرْج ، فيدنون من « الحصيب »
يترصّد غفلة القوم ، ويتنفس ريح « روضة » ، يقول :

يهددوني كسيما أخافهم ميهات أنتى يهدد الأسد

حق لقي ذات مساء عبدها الذي كان يرعى عليها رائحاً بالقطيع
الى مراحه ، فجمله رسالة اليها يطلب فيها أن توافيه على الكثيب متى
غفت العين وهدأت القدم ، فوافته في إحدى أترابها ، فجلسا على الحصاء
يتشاكبان حرقه الجوى ، وتحكم الهوى ، وتعقب الرقيب ، وأخذت « روضة »
تحكي « لوضاح » كيف استفاض الخبر وخاض فيه الناس ، وكيف حجبتها
إخوتها وراقبوها بعين لا تغفل ، وذكرت له والدمع يتقاطر من عينها
انهم صمموا على رفض خطبته ومنع تزويجه ، وقرروا تزويجها من موسر
كشيف الظل جاني الحلقة ، وحذرت أن يدنو من الحي ، فان قومها
بأثمرون به .

غلي جوف « وضاح » وعصفت في رأسه الحمية ، ونزلت بقلبه الصبابة ،
وعقد نيته على معالجة الأمر بالحزم ، ومواجهة الخطر بالصراحة ، وقرر
زيارتها بعد هذا الحوار البديع الذي خلده وضاح في هذه القصيدة :

قالت : ألا تَلِجَنُ دارنا	إِن أبانا رجل غائرُ
قلت : فاني طالبٌ غيرةٌ	منه ، وسيفي صارمٌ باتر
قالت : فان القصر من دوننا ،	قلت : فاني فوقه ظاهر
قالت : فان البحر من دوننا ،	قلت : فاني سابح ماهر
قالت : فحولى إخوة سبعة ،	قلت : فاني غالب قاهر
قالت : فليت رابض دوننا ،	قلت : فاني أسد عاقر
قالت : فان الله من فوقنا	قلت : فربي راحم غافر
قالت : لقد أعييننا حجةٌ	فأت ، إذا ما هجم السامر

واسقُطْ علينا كسقوط الندى ليلةً لاناها ولا زاجر^(١)

وفي الليلة التالية كان « وضاح » في طريقه إلى « الخصيب » ، وكان إخوة « روضة » وعمومتها يرصدون سبيله ، ويطلبون لقاءه بعد أن علموا من الرقيب اجتماع الكشيب ، وكانت الحبيبة على علم بخروج القوم وقدم الحب المخاطر ، فطرقت مضجعها الهوم ، وتخالجت قلبها الوسوس ، وأخذها عليه المقيم المقعد .

لم يطل انتظار الجماعة للفرد فتلاقوا وراء الوادي ، ثم كان عتاب على الأشعار الجارحة ، وسباب على الشهرة الفاضحة ، وقتال انتهى بطعنة تلقاها في موضع حبه ، ثم خلا المكان إلا من جريبح يثنّ ، وفرس يحمحم ، وتحامل « وضاح » على نفسه فضمد جرحه وركب جواده وقفل راجعاً الى أهله .

قضى المسكين شهرين على فراش الألم يتضور من ضربان الجرح وهذيان الحمى وثوران الحب . ولكن الجرح كاث قريب الغور فاندمل ، والحمى كانت عارضة فأقلعت ، والحب ؟ هذا هو المرض الخامر والداء العيساء ، فليس له غير الله من آسٍ ولا طبيب ، لذلك نصحوا « لوضاح » أن يحج البيت ، فشد إليه رواحله ، وسنلقاه هناك بعد قليل .

- ٤ -

أذن مؤذن الحج للمرة الثمانين بعد الهجرة ، فسالت فجاج الجزيرة

(١) هذا شعر مولد يتألف مع مجان بني العباس والغاوين من الشعراء الخلاء ، ولا يقتاسب مع محب محبوب . وأين القصر من راعية بهم ، بل أين البحر من أرض الخصيب ؟ ولا ادري لماذا تنتهي كل قصص الحب في الميذاء وعند الأعراب بهذه النهاية ، منع المحبين من اللقاء والزواج ، وتزوج المحبوبة من زوج غني بليد . إنه الخيال الضعيف والوضع الواهي .

بالقباب والموادج ، وأشرق دروب الحجاز ومسالكه بالناس رجالاً وعلى كل ضامر ، واكتظت بطاح مكة ورباعها بالحجيج من الشام والعراق واليمن ، ودوى الغضاء المشرق بأصوات التهليل والتلبية ، وروى الثرى المكروب من دماء البدن والضحايا ، وتعطر الجو القائظ بأنفاس الحسان الغيد ، وفاضت أندية « مكة » النبيلة بالقصف والعزف والغزل ، وخرج الشعراء من بني الأنصار والمهاجرين في مطارف الحز وبرود الوشي على النجائب الخضوية ، يتعرضون للغواني المحرمات ، ويقطفون من فوق شفافها اللبس ألفاظ الدعاء ، قبل أن ترفع إلى السماء . وهناك على الربوة العالية ، ضرب الفسطاط الرفيع العماد ، وفرشت الطنافس ، ونصبت الأرائك ، وصفت النارق ، ونضدت الوسائد ، وقامت الجواري والولائد ، وعلقت السدول والستائر ، وبرزت من خلالها « أم البنين » زوج الخليفة « الوليد ابن عبد الملك » في زينتها وفنتتها ترسل النظر تارة إلى الأفق البعيد وتارة تتصفح به الوجوه المختلفة والأزياء المتعددة ، والناس يتحامون جانبها ، ويتهمون ظلالها ، لهيبة الملك وشراسة الجند وجلال الخليفة ، حتى الشعراء من شباب الهاشميين وخلفاء « ابن أبي ربيعة » لم يجرؤوا أن يمدوا إلى جمالها الفاتن عيناً ولا لساناً ، لأن الخليفة كتب « يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحداً منهم أو ذكر أحداً ممن تبعها » . ولكن الملكة تريد على رغم الملك أن تكون من عرائس الشعر ، وأن تظهر في ديوان الشاعر كما ظهرت في ديوان الملك !

والشعر في « الحجاز » كان حينئذ للمرأة ، يصف حالها ، ويعرض جمالها ، فتصل من طريقه إما إلى الزواج وإما إلى الشهرة .

فقرأت « أم البنين » للناس ، وسهلت للفزَزين الحجاب ، وكان « وضاح » يومئذ مشغولاً عن الشعر والشعراء بنفسه ، فهو يطوف بالبيت ويتعلق بـستور الكعبة ، ويسأل الله أن يشعب قلبه بالسلوة : حتى إذا خرج الحجيج

الى « عرفات » ، وتطاولت الرقاب ، وتطلعت العيون ، وأومات الأصابع الى موكب الملكة الحاشد ، جذبه جلال الحاجة النبيلة وجمال وصائفها ، فدنا من فلما ، فوجد كهنة الحب وشباطين الشعر يسايرون ركابها ويراقبون سناها ، فمضى بجانب الشاعر « كُثَيِّر » ، ووقعت عين « أم البنين » عليه فراعها جماله وعلقتها حباله ، فأشارت بطرف العين الى جاريتها « غاضرة » فأثبتت معرفته ، فلما أفاض الناس من « عرفات » ، وانحدروا الى مرمى الجرات ، وقفت بجانبه فتاة فتانة ناهد ، وأسرت اليه وهو يرمي الشيطان أن الملكة تريد لقاءه في مخيمها على « مينة » . اضطرب « وضاح » لهذه الارادة ، وخشي عاقبة هذه الدعوة ، وتردد طويلا في الذهاب الى هذا الموعد ، لأن هذا الحب الملكي أكبر من عواطفه ، ولأن قلبه الجريح لا يزال يقطر في لفائفه ، ولأن خيال « روضة » يمتاده في جميع مواقفه ، ولكنه عربي طمّاع طمّاح مخاطر ، فلماذا لا يبذل الشعراء ، ويكسب الأعداء بالسبق الى جمال الملكة ومال الخليفة ؟؟

أمسى المساء وكان هلال ذي الحجة قد توارى بضوئه الشاحب خلف الجبل ، وأخذت الأضواء المنبعثة من بواقي المشاعل والمصابيح والكوانين تكافح ظلمة الغسق ، وألقى الناس أرواقهم على الرمال مجهدين بعدنهار قانظ احمرت حواشيه من دماء القرايين ، وضرب الكرى على آذان العامة ، فلم يبق يقظان إلا ذو الحس الرقيق من جرهم جمال الليل الى جمال السهر ، وإلا نَفْسَان شاعرتان بسط الحب عليهما جناحه ، وأزال ما بينهما من فروق ، ورفع ما يفصلهما من حواجز حتى التقى ابن آدم بهنّت حواء وجهاً لوجه ، وأقبلت « أم البنين » على « وضاح اليمى » تناقلا الحديث ، وتساخلا الشعر ، وتنصب له شرك الفتنة في مطاوي اللفظ ، وتسدد الى قلبه سهم الغواية في مرامي اللحظ ، وحسبنا أن نروي من هذا الحديث المشقق العذب هذا الحوار :

- وكيف حال « روضة » بعدك يا « وضاح » ؟
 - على شرّ حال وأسفاه ! زوجها من موسر مجنوم ، فأعـداها بالجذام ..
 - وما حالك أنت من بعدها ؟
 - أما قبل هذه الليلة ، فكنت لا أنتفع بنفسي ، ولا أشعر بوجودي .
 - ومنذ الليلة ؟
 - منذ الليلة عرفت نعم السماء بعد ما عرفت في « الخصيب »
 نعم الأرض .
 - اذن ستحبني (١) ؟؟
 - نعم ، ولو خيرت ما اخترت .
 - وستنسب بي في شعرك ؟
 - نعم ، ولو كره « الوليد » !
 - اذن ، اصحبني الى « دمشق » فامدح الخليفة ، وسأرفدك لديه ،
 وأقوي أمرك عنده .

- ٥ -

وعلى « نهر بردى » وفي القصر المشيد ، زكت شجرة الحب حتى
 عرشت على كل حائط ، وسطعت فوحتها في كل أنف ، وتهدلت أغصانها
 المزهرة على سرير الخليفة ، ودنت قطوفها المحرمة من فم المجنون وليلاه ،
 فأكلت منها « حواء » وجرت الى الخطيئة « آدم » ! وآدم دائماً هو الذي

(١) لو كانت من بنات الهوى لما جاهرت محبوبها بمثل هذه السرعة ، ولا أدري
 كيف استساغ الزيات هذه الرواية وصدقها ، وراح يزورها ويمد أطرافها حتى جاز في أدبه أن
 وضاحاً أضفى عند أم البنين كمروس الأطفال تلعب به متى شاءت وترده الى مأمنه
 متى خافت .

يكفر الخطيئة .

ظل « وضاح » ابن الطبيعة الطليقة سجيناً في قصر « الوليد » لا يبصر سماء ولا أرضاً ، ولا يرى غديراً ولا روضاً ، ولا يسمع حركة ولا صوتاً ، ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه أم المؤمنين من مخبئه ساعة يغفل الرقيب وتغفو العين المريبة ، فتطارحه أحاديث الغزل ، وتسقيه من سُلّاف الهوى عَمَلًا بعد نَسَهْل ، ثم ترده عند الخوف الى مأمنه .

ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليها ظلال الأمن فيها ، ولكن وجه الجريمة وقاح لا يُد من سفوره ، ذفيرَ مهما كتتمته فلا مناص من ظهوره ، والخطيئة لا يطهرها إلا عقوبة أو تضحية . فأهدي الى « الوليد » ذات يوم جوهر نفيس ، فراقه حسنه وأحب أن يطرف به « أم البنين » ، فبعث به اليها مع خادم له ومعه كلمة رقيقة ، فمضى الغلام بالتحفة الى مجلس الملكة فلم يجدها ، وعلم أنها في بعض الغرف فدخلها عليها مفاجأة ، وكانت قد أحست بخطاه دون الباب فبادرت الى إخفاء « وضاح » فأدخلته في صندوق وأغلقتة ، وحينئذ دخل الغلام فرأى أواخر جسمه تغيب تحت الغطاء ، فأدى الى الملكة الرسالة ، ودفع اليها الجوهر ، ثم قال لها بلمجة الحبيث الماكر : ألا تهين لعبدك يا مولاتي حجراً من هذا الجوهر ؟

فأجابته « أم البنين » بلمجة العزيز المتعص : « كلا يا ابن اللخناء ولا كرامة » (١) .

(١) ان الذي دس هذه الفرية على البيت الأموي شعوبي ضعيف الحبال ، أحداً لا يدخل على أمه او زوجته الا أن يستأذنها فكيف ساغ به قله أن يفاجئ العبد مولاته ، فأين وصائفها وحواضنها ، وبين قتل العبد وبجيء الوليد وقت كاف لاختفاء الحبيب إذا كان له حقيقة ، وإذا كان العبد قد قتل فمن أشاع الخبر ، وهو قد بقي سراً بين الزوج والزوجة . فالقصة موضوعة ، وعقدتها نافذة وحبيكتها واهية بعد هذا تهمة لسيدة عزيزة عرفت بالصلاح وأخت للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز وزوجة وأم أولاد .

ولعلمها لو كانت تحسن قراءة الوجوه لحشت فمه بهذا الجوهر حتى لا ينطق ، أو لعلمها فهمت لحن قوله ، ولكن نفسها الملكية الأبية أنفت الخشوع لهذا العبد ، فأثرت نعمة زوجها على نعمة خادمه ، وهي مع ذلك قوية الثقة في شفاعته الجمال ووساطة الحب ! ومهما تكن الدوافع الى هذا الجواب فان الخادم قد ارتدّ الى سيده بحليّة الأمر ، ولكن الأمر نزل من الخليفة « الوليد » في بال واسع ، فأمر بالغلام كفوجيشت عنقه ، ثم لبس نعليه ، ودخل على أم البنين وهي جالسة تمتشط في تلك الغرفة ، فجلس على الصندوق وقد علم وصفه من الغلام ، ثم قال بلمهجة الهادئة الرزينة :
- يا « أم البنين » ما أحب اليك هذا البيت من بين بيوتك ، فلم تختارينه ؟

- أختاره وأجلس فيه ، لأنه يجمع حوائجي كلها ، فأتناولها منه كما أريد من قرب .

- ألا تهين لي صندوقاً من هذه الصناديق ؟

- كلها لك ، يا أمير المؤمنين .

- ما أريدها كلها ، وإنما أريد واحداً منها .

- خذ أيها شئت .

- أريد هذا الذي جلست عليه .

- خذ غيره ، فإن لي فيه أشياء أحتاج اليها .

- ما أريد غيره .

- إذن خذه يا أمير المؤمنين .

- فأشار الى الخدم ، فحملوه الى مجلسه ، ثم أمر العبيد فحفروا تحت

بساطه بشرأ بلغوا بها الماء ، ثم دعا بالصندوق أو الناووس ، وقال له :
« إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك وذكرك وقطعنا
أثرك الى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فقد دفنا الخشب وما أهون ذلك ! ،

ثم قذف به في البئر ، وهبيل التراب ، وسويت الأرض من وراء
البساط ، وأخذ الخليفة مجلسه ، واستمر الفلك يدور دورانه الأبدي المنتظم ،

كأن لم يكن بين (الحجاجون) الى (الصفا)
أنيس ، ولم يسمر (بكية) سامر



الى الأستاذ الزيات

أحييك بتحية العروبة ، وأحيي فيك « الأدب » الذي تصل بيننا
وشائجهم ، وتجمعنا أواصره ، والبيان الذي ألفتته يترقق على لسانك
سائغاً عذبا ليلة ضمتني وإياك « دار البلاد » فأخذنا بيننا بأطراف
الأحاديث حتى ملكني تواضعك الجم ، وخلقتك السمح ؛ وبيانك المشرق
الذي دلني على أن وراءه قلباً كبيراً هو منبع ذيتك التواضع النبيل ،
وذلك الخلق السجيح ، وهذا اللطف الفياضة كله بالروح الشريف .
فأنا ما زلت أتذكر ذلك وأذكره مُكْتَبِرًا ومُعْجَبًا ، وما زلت أحب
لو أني أجيد في وقتي متسعاً فأجتمع بك وأتمتع بحديثك وأستفيد من
مساجلتك وحوارك في أدب العرب وبيان لغتهم الساحر الأخاذ . أما
- وقد ضاقت بي رقعة الوقت حتى لم أوفق لبلوغ الأرب على نحو ما
أشتهي - فلا أقول من أن تكون لي منه قسمة تتسع لإنشاء رسالة
يحملها اليك عني بريد « البلاد » بما يبدو لي من وجوه الرأي والفكر فيما

(١) بقلم الأستاذ الكبير محمد بهجة الأنري .

نشر الرد المفعم في غرة شهر رمضان ١٣٤٨ هـ ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

أطالعه من فصولك القيمة التي كان آخرها ما طالعت به الأدب منها
مأساة الشاعر وضاح ..



لقد قرأت بإمعان هذا الفصلَ الرشيقَ أسلوبه ، الناصعة ديباجته ،
الكرمية ألفاظه ، وما زلت أسايره وأقلب النظر في أعطافه حتى فرغت
منه ، وإذا أنا بإزاء أمر لا أعلم كيف أدبرت عنِّي أوائله ، وأقبلت
عليَّ أواخره ، وإذا أنا تجاه خبر لا أدري كيف غرب كمنه عن
بالك ، ولا كيف جرت به يراعتك شوطاً بعيداً ، والمظنون أنها براعة
تتملكاً دون المشتبهات ، فلا تضرب في مجاهلها قبل أن تخبر أعلام
المذائب وتأمّن الحسّار ووعوثة الموطىء الذي تطؤه ، فلقد راعني إيمانك
اليقيني بقصة وضاح وأم البنين على النحو الذي أوردته ، وراعني أن
يقدم أديب مثلك في عصر التمهيص على إثبات أخبار موضوعه نفاها
أهل العصور الغابرة واتهموها بالوضع . ولا أعلم هل تختلف معي في
أخبار الماضين وفهم التأريخ بأمر جوهرى ؟ فإني لم أقف على رأيك في
مزاعم الرواة وأهل الأخبار ، ولست أريد بمجرد ما لاح لي من الرأي
في مقالتك أن أقولك ما لم تقل ، وأحكي على لسانك ما لم تحك ،
ولكنني أحب أن تعرف رأيي في ذلك ، لتدفع عني ما عسى أن
يختلج في صدرك من وجوه الشبهات في سبب دفاعي عن أم البنين زوج
الخليفة الوليد بن عبد الملك .

فإني على سلفيتي وحيي لقومي العرب لا أسبغ على الغابرين غلائل
التقديس والاحلال فيما ليس هو من الحق في شيء ، ولا أزعم أن الماضين
يجلون حق عن إتيان اللهم ، فأخرج بهم عن البشرية ، وأخلع عليهم
نعوت النبيين والصديقين ، وإنا أنا أعتقد أنهم بشر مثلنا ، فيهم الطيب
والخبث ، وفيهم البر والفاجر ، وفيهم المؤمن والملحد ، وفيهم العالم

والجاهل ، وفيهم العاقل والأفِين ، لا يفضلوننا ولا تفضلهم الا برجحان
كيفية صفة من هذه الصفات الفاضلة فينا أو فيهم . أما التشييع لنحلة
دون نخلة ، وأما العصبية ، وأما الحزبية لحزب دون حزب ، فعماد
الله أن يخطر لي شيء من ذلك ببال ، فما أنا في ديني بمقلد ، ولا في
قضايا التاريخ - ولا سيما الإسلامي - بندي عصبية ، ولكنني امرؤ
أستمع القول فأحصيه ثم أتتبع أحسنه وأحله منزلته في القلب ، وأحمد
الله على أن لم يجعلني علوي الهوى أو أموي الرأي ، بل جعل مني
إنساناً لا يعنيه بعد أن يبدو له رأي أفرغ له اجتهاده أو افق أهواء
قوم أم خالف أهواء قوم آخرين . ذلك قول الحق ، أفضي به اليك
لتعلم ولتعلم من يعنيه الأمر أني لم أجاذبك بردة المساجلة عصبية لذوي
« عبد شمس » وأرباب التيجان من « بني مروان » ، أو تقديساً مطلقاً
للقوم لأنهم كانوا ملوكاً للعرب والإسلام ، يجلسون عن النقيصة ولا يعلق
هم ذام !

أقول هذا وأنا جسد مغتبط بأن أرى قلماً مثل قلمك مطبوعاً على
الجرى في مبادئ الإصلاح يتنزى في بحاله الذي انفرج أمامه ، ثم
لا يخرج عنه فيتخذ من الأخبار الموضوعة قصصاً لا ينتهي بمغزاه إلا إلى
غير ما يهوى منه الإصلاح ، ولئن أعجبنا الغلاغل المصنعة التي خلعتها
على هذه الأحداث ، والألوان التي رسمتها بريشتك التي يحدر بعشاق الإنشاء
الرقيق أنت يترسموا خطوطها - لم يعجبنا ما تحت ذلك من المعاني
والأخيلة ، فانها معان وأخيلة تؤلم الواقع ، وتخدش ضمير التاريخ الذي
لا يريد من أهل الأدب الانساني أمثالك إلا أن يبتقوا عليه ، هذا إذا
لم يروا أن يوسعوه تحيصاً فيحسبوا اليه بنفي الشوائب التي ما زجت
صفو حقائقه حتى أخنت منها على كثير .

وما تحدثت به في قصتك عن أم البنين ووضاح ، قد كنت تستطيع

- وأنت القدير - أن تقص نبأه كما قصه الأخباريون ، وتعلق عليه كما علقوا . هذا إن لم نطالبك بأن تبالغ أنت في نفيه أكثر منهم لما جدد في هذا العصر من أصول وطرائق في النقد والتحليل تتقنها أنت ومما كانت منهم على بال ، وكنت تستطيع أيضاً - إن لم تر بُدأ من كتابة هذه القصة - أن تقصها كما تريد مستبدلاً بأسماء أبطالها وأماكنها غيرها مما تختاره ، فتكون في منجاة مما صرت إليه . ما وجدنا هذه القصة أيها الفاضل ، تدخل في حساب الصدق والواقع ، لا من ناحية العقل ، ولا من ناحية النقل . فكيف يسوغ لنا أن نقبلها ؟ أم كيف يسوغ لنا أن نزوها واثقين مطمئنين ، فندنس بالتهمة شرفاً طاهراً ، ونلوّث بالوقعية عرضاً نقياً ؟

أم البنين تعشق وضاحاً ، وتجمعه بها على غيرة من زوجها الخليفة ، تطارحه الغزل . ثم يطرفها الخليفة بجوهر نفيس يحمله اليها خادم له ومعه كلمة رقيقة ، فيمضي الخادم اليها فلم يجدها ، ثم يعلم أنها في بعض الغرف ، فيدخل عليها مفاجأة ، فتحس بخطاه دون الباب ، فتبادر إلى إخفاء وضاح فتدخله في صندوق وتغلقه - . حينئذ يدخل الخادم فيرى أواخر جسم وضاح تغيب تحت الغطاء ، فيؤدي إلى الملكة الرسالة ، ويدفع اليها الجوهر ، ثم يستوهبها بلهجة الخبيث الماكر حجراً من هذا الجوهر ، فتمتعض منه ، فيتواري ، فيرتد إلى سيده الخليفة بجليمة الأمر ، فتوجأ عنقه . ثم يلبس نعليه ويدخل على أم المؤمنين فيجدها جالسة تمتشط في تلك الغرفة ، فيجلس على ذلك الصندوق ، وما يزال بها حتى يأخذه منها ، ثم يأمر أن تحفر بئر فيقذف الصندوق فيها ، وهو يقول : « إنه بلغنا شيء ، إن كان حقاً فقد كفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فقد دفننا الخشب ، وما أهون ذلك ! » .

فأنت ترى أن الأمر محصور بين أربعة : أم البنين ، ووضاح اليمن ،
والخليفة ، والخدام . فأما الخدام الذي نقل السر الى الخليفة فقد أمر
الخليفة به فوجئت عنقه فمات قبل أن ينث الحديث . وأما وضاح فقد
رمي في البئر وهيل عليه التراب ثم سويت الأرض ورد البساط إلى
مكانه . بقي الخليفة وأم البنين ، فهل يعقل أن واحداً منها حدث
بالخير حتى شاع وملاً الاسماع ؟

اللهم ، لا !

فان قلت إن الخدم الذين حملوا الصندوق ورموه في البئر ، قد
حدثوا به .

قلنا لك : ومن أين لهم أن وضاحاً كان في الصندوق والخليفة نفسه
لم يفتحه ، ولم يدر أكان فيه شيء حقاً أم لا ، حتى قال فيما يزعم
الواضع : « إنه بلغنا شيء ... ان كان حقاً فقد كفناك ودفناك الخ الخ ... » ؟

ثم هل يعقل أن الخليفة اليقظ الذي بادر إلى الخدام فقتله - على
افتراض صحة ذلك - يغفل عن هؤلاء ، ويدعهم أحياء يتمتعون
بخيالاته ، ويتحدثون بما يجزع منه حتى لم يبق سمع لم يطرقه هذا النبأ ؟

حديث خرافة ، يا زميلي الأستاذ ، من أبين الأحاديث الخرافية
وضحاً ، وواضعه كذاب ضعيف الحيلة ، لا يحسن الوضع ، يخذل أول كلامه
آخره وآخره أوله .

فهل يليق في مذهب القصص أن يتخذ هذا الكذب المتخاذل أساساً
لقصة ؟ وفي أساسها يرمي بخليفة عربي شريف 'مهام' وزوج خليفة هي
من أرومة قومها الغر في الذؤابة والسنام ؟

هذا بجمل من النقد والتحليل عرضنا له من ناحية العقل والمنطق .

ونحب أن نعرض الآن لتزييفه من ناحية النقل ، ولا أحسب أن هذا لا يدخل في محيط اطلاعك الواسع ، فلعلك قد حرثت « كتاب الأغاني » حرثاً وقتلته بجشاً ، حتى وفقت لاستخراج مثل هذه « الأقصوصة » منه ، ولعلك - لو أعدت النظر فيه - تجد أبا الفرج الإصفهاني ، وهو من تعرف مذهبه ونحلته ، قد أفضى السبيل في كتابه هذا ^(١) بأن هذا الحديث من وضع شعوبي زنديق في عهد بني العباس ، وقع بينه وبين رجل من ولد (الوليد) فخار ، خرجا فيه الى أن أغلظا المسابقة ، فوضع الشعوبي كتاباً زعم هذا الزعم .

ووضح ، بعد ذلك رجل نكرة أشبه أن يكون خيالياً ، وضعه القصاص وضعاً متكلفاً ، فهم مختلفون في كل أمر من أموره : مختلفون في نسبه ، مختلفون في نشأته ، مختلفون في عشقه وأخبار من يعشقه .

وقصته - كما يقول صاحب حديث الأربعماء فيما أتذكر الآن - مكونة من عناصر مختلفة منها السياسي ، ومنها العصبي ، ومنها المبالغات العامة . وهذا الرأي نوع من التحليل لقول صاحب الأغاني في تحدّثه عنه وعن عشيقته المزعومة روضة : « ... ولم نجد لهما خبراً يرويه أهل العلم إلا لمعاً يسيرة وأشياء تدل على ذلك من شعره ، فأما خبر متصل فلم أجده إلا في كتاب مصنوع غثّ الحديث والشعر لا يذكر مثله » .

وبعد ، فهذا مجمل ثانٍ من القول في هذا الخبر المصنوع ، وإننا لنتقاضى قلم الأستاذ أن يصوغ لنا من عقود الأفاضل كل ما يثير الإعجاب وهز النفوس ويربي الفضيلة ويحيي القومية من معاني الشجاعة والفروسية والمجد والإرادة والهمة والمضاء وما الى ذلك مما كانت تفيض به الأخلاق

(١) الأغاني ج ٦ ص ٣٢ ، ط. الساسي .

العربية ، وتفويض به عنهم الكتب والأنباء ، فما أشد حاجتنا اليوم الى مثل هذا النوع الذي أذكره ، وما أشد هذا النوع من المعاني العالمية الى قلم صَنَاع كقلم الأستاذ مجيد الصياغة ، ويبدع في تنويع الصور البيانية !

نص جواب الزيات :

الى الأستاذ الأثري^(١)

أدت اليّ « البلاد » كتابك الرقيق القيم ، فhez عظمي ما وجدت من سمو أدبه ، وُنبَل غضبه ، وجَمِل من رجال الأدب أن يصطنعوا الأدب ، ومن حماة الحق أن يتبعوا الحق ، وجدير بمن اصطفاه الله لحمل هذه البراعة القدسية أن يصل ضميره بربه ، ويقطع أسباب الهوى من قلبه ، فيبحث للعلم ، ويكتب للإفادة وينقد للحقيقة . إن فقه لسان العرب أيسر من فقه لسان الأدب ، لأن اللغة من الناس ، والأدب من الله ، وللمره حيلة فيما يكسبه ، ولكن لا حيلة فيما يوهبه .

أما بعد ، فتمعال يا زميلي نخض فيما بدأت من حديث وضاح ، لعلك أخذت عليّ ما أخذت لأنك حسبتني كتبت ترجمة تأريخية أو حررت حادثة واقعية ، ولم يددر في خلدني حين قصصت نبأ هذا الشاعر البائس الا أن أصور الحياة البدوية ، والبيئة العربية في أقاليم أنتزعها من الأساطير أو ما يشبه الأساطير ، فأنا في هذه القصة وفيما نشرت من أمثالها قصصي لا مؤرخ ، وبين القصص والتأريخ رحم جذاء وعداوة مستحكمة ، لأن التأريخ يروي ولا يبتدع ويحقق ولا ينمق ويصدق ولا يمين . أما القصة فانها تختلق وتبالغ وتؤثر بالصور الكلامية

(١) نشر في جريدة البلاد في ٨ رمضان ١٣٢٨ هـ - ٧ شباط ١٩٣٠ م

الخلافة ، ثم ترتب الأحوال وتسوق الحوادث على حسب الخيال الممكن لا على حسب الأمر الواقع . وفي اعتقادي أن « ولتر سكوت » ومن نهج نهجه من القاصيين قد أساءوا الى التاريخ والقصة جميعاً حيناً أرادوا أن يصلوا رحمها ويوفقوا بينهما بابتداع القصة التاريخية ، فإن القصة بطبيعتها تفسد التاريخ وتشوهه بقبولها الاغراق والاختلاف والرواية المتهمه ، والتاريخ بتوحيده الحقيقة وتمحيصه النقل يضيق مجال الخيلة ويحصر حدود القريحة .

فاذا اتفقنا ، يا سيدي الأستاذ ، على ما اتفق عليه علماء البلاغة الحديثة من أن للقاصي أن ينسج الأخبار ويسرج الاحاديث في حدود الإمكان ابتغاء التأثير والامتناع ، لا ابتغاء التقرير والاقناع ، خرجت من عهد ما أخذت علي ، وأدخلنا مأساة وضاح في باب القصص الشعري ، ثم خرجنا معاً نضحك من يترك أسفار التاريخ المحررة ، ليدرس العصر الجاهلي في قصة عنتره^(١) .

ولكنك تقول لي : إن الاعتماد على فن القصص لا يكفي مساعداً للنسبة حادث متخيل الى انسان متحقق ، وأنا أقول لك : إن حادث وضاح لم يكن متخيلاً كله ، فإن حبه لروضة واتصاله بأُم البنين وقتله في دار الوليد أمور توافرت بها الرواة ، وتوافرت على حدوثها الشواهد ، وما كان عملي إلا خلق الظروف ووضع الألوان وربط السياق وجلاء الصورة .

هلم نعد النظر في (الأغاني) ، وهو أوفى وأوثق كتاب ترجم بوضاح ، فماذا نجد ؟ نجد أن أبا الفرج قد روى في أمر وضاح وأُم البنين عشر

(١) بهذا لو أن الأستاذ الزيات وقف بالرد عند هذا الحد ، اذن لخرج من بعض ما افترق ، ولكنه ماحك وجادل ، واراد إثبات باطل الرواية بباطل رواية ثانية ، فأخفق .
(المؤلف)

روايات في أسانيدھا الاصمعي والخليل بن أحمد والحرمي بن أبي العلاء وابن السكبي من أثبات الرواة ، وبديح وكثير من عاينوا الحادث ولابسوا أهله . تتناصر هذه الروايات جمعاء على أن وضاحاً شبيب بأم البنين ، وأن أم البنين هويته واستقدمته ، وأن الوليد قتله ودفنه في داره ، وإنما الخلاف في مسألة الصندوق ، فعلي بن سليمان الاخفش يروي في كتاب المغتالين عن ابن السكبي ان أم البنين هي التي وضعته في الصندوق على النجو الذي قصصناه ، وخالد بن كلثوم يقول إن الوليد لما همّ بقتل وضاح راجعه ابنه عبد العزيز ونصح له ألا يفعل حتى لا يكون في قتله تحقيق فعله ، فلم يقبل منه ، وجعله في صندوق ودفنه حياً .

أما وضع أم البنين إياه في صندوق اخفاء لأمره عن الخادم المفاجيء ، فيقول خالد : إن رجلاً شعوبياً افتراه ، ليغيظ به رجلاً من أعقاب الوليد .

فالحادثة إذن قائمة الاساس باجماع الرواة ، وما كان الخلاف إلا في مسألة تفصيلية مهما تعددت وجوها فلن ترى فيها وجهاً أجمل من وجه ! والذي حملني على الاخذ برواية ابن السكبي اتفاقها مع المنطق ، فان دفن وضاح في قصر الخليفة دليل ناهض على اقامته في مجلسه ، فان وضاحاً أهون على الخليفة من ذلك ، والوليد أقدر على أن يوعز بقتله بين أهله ، فيسلم لسانه من الاختل ، ويده من القتل ، وعرضه من القالة .

على أن العقل يظاهر النقل في إمكان وقوع هذه الحادثة ، فان عصر الأمويين كان عصر انتقال من خلافة الى ملك ، ومن بدواة الى تحضر ، ومن بؤس الى نعيم ، وفي عصور الانتقال تتحلل القيود ، وتتعطل الحدود ، وتفسد الأخلاق ، وتطغى الشهوات ، وتكثر هذه المخاطر الغزلية . ولا أريد أن أثقل على طبع الأستاذ بسرد ما يعلم من أخبار الشعراء مع النساء في موسم الحج في شباب هذه الدولة ، وحسي أن أذكره بحادثة

من هذا النوع لا يتارى في وقوعها أحد ، وهي أشبه في طبيعتها بحادثة واضح من الليلة بالليلة ، ووقوعها قرينة قوية على وقوع تلك ، أريد حادثة أبي دهبل الجُمُحي مع عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان ، فقد يعلم أن أبا دهبل الشاعر الجميل رآها في سرادقها بالحج ، فلأ عينيه من جمالها على غرة منها ، فلما فطنت له سترت وجهها وشتمتها ، فقال فيها :

إني دعاني الحين فاقتادني	حتى رأيت الظبي بالباب
يا حسنَه اذ سبني مدبراً	مستتراً عني يجلباب
سبحان من وقفها حسرة	صبت على القلب بأوصاب
يذوب عنها ان تطلبتها	أب لها ليس بوهاب
أحلها قصراً منيع الذرا	يحمى بأبواب وحجاب

فلما اضطربت الألسن بهذا الشعر ، وسمعت عاتكة إنشاداً وغناءً أعجبت به ، ووصلت الشاعر بالهدايا ، وجرت الرسل بينها وبينه ، وصدرت عن مكة فتبعها ، ووردت دمشق فوردها معها ، وهي تتعده بالبر والعطف ، وانتشر الصوت بهذا الأمر انتشار الصبح حتى بلغ سمع معاوية ، فخلا بالشاعر خلوة حذره فيها جوار يزيد ابنه (فان له سورة الشباب وأنفة الملوك) ، وإنما أراد معاوية أن يهرب أبو دهبل ، فتنقضي القالة عن ابنته ، فخرج الى (مكة) هارباً على وجهه ، فكان يكاتب عاتكة ، وكان لمعاوية من الخصيان رقباء على ابنته ، فجاءه أحدهم ذات يوم يقول : « إن كتاباً سقط الى عاتكة ، فلما قرأته بكثت ، ثم أخذته فوضعت تحت مصلاها » ، فأمر الخصي أن يلطف لهذا الكتاب حتى يأتيه به ، فلما قرأه الخليفة اعتاج في صدره الغم ، وبعث الى يزيد ، فلما جاء قال له : « إن هذا الفاسق أبا دهبل قد كتب هذا إلى أختك عاتكة ، فلم تزل باكية منذ اليوم ، وقد أفسدها فما ترى فيه ؟ » فكان من رأي يزيد أن يكن له عبد من العبيد في أزقة مكة فيريحهم منه . ورأى داهية العرب أن

رأي ابنه فائل ، فصرفه ، وحج في تلك السنة . فلما انقضى موسم الحج ، دعا اليه وجوه قريش وشعراءهم ، وكتب فيهم اسم أبي دهل ، ففرق فيهم صلات كثيرة ، ثم صرفهم واستبقى أبا دهل ، وأقبل يعاتبه على ما صنع في رفق ولين ، ثم سأله في آخر الحديث : هل تزوجت ؟

فقال : لا ..

فقال : أي بنات عمك أحب اليك ؟

قال : فلانة .

قال : قد زوجتكما ، وأصدقتهما ألفي دينار ، وأمرت لك بألف أخرى يجري عليك مثلها في كل سنة .

فعقل الشاعر لسانه في فمه ، وكفن حبه المقتول في دمه ، وانصرف معاوية مسروراً الى دمشق ، ولم يحج في تلك السنة إلا من أجل أبي دهل .

أظنني يا سيدي الاستاذ قد أدليت اليك في شي من الاجمال بحجج من الفن وبينات من التاريخ ، وشواهد من القرائن تتساعد كلها على تأييد مذهبي في هذه القصة . فاذا نعت نفسك ، وأراحت ضميرك ، حمدت الله على السلامة من الملامة ، وان وجدت مع كل ذلك ان الشبهة قائمة ، ووجوه الخلاف لا تزال قائمة ، فأني أعدك ان اطوي هذه الأسماء متى عزمت على نشرها مع غيرها للقراء ^(١) .

(١) تاريخ بني امية وضع بيد اعدائهم ، إما عداوة نحلة ، او عداوة سياسة ، او عداوة جنس ، وهذه الاخبار والمثالب التي يتناقلها رواة اكثرهم عرفوا بالوضع وخلق المثالب تقرباً من هوى الحلفاء العباسيين ، او بدافع الحط من الاسرة العربية التي اعلنت راية الاسلام خفاقة على سفوح الأنفول وسهوب التركستان وسهول البنجاب وعلى شرائع الاوار ونجاد البرنس ، وابن الكلبي رجل وضع مثالب العرب ، وهو كذاب مجاهر بالشعوبية يناصرها على العرب ، ومثله الهيثم بن عدي وهو شر من صاحبه ، ومثله بديع مولى عبدالله ، وكثير عزة هل ادل على غفلته وضعف عقله من اياهه برجة محمد ابن الحنفية ، وانه في غاره حي يغذى اللبن والعمل ؟ (المؤلف)

عود على بدء

الى الاستاذ الزيات (١) :

هبطت عليّ من محلك الارفع رسالتك بل طرفتك هبوط نشير الطل
على نظم زهر الروض في السحر ، فنقعت فؤاداً بات ظمناً الى نداها ،
وانعشت روحاً كان شيقاً إلى شميم شذاها ، وعكفت عليها امتع النفس
باستجلاء ما ضمنتها من اغراض ومقاصد وإشارات ، واشوف وذيلة
الروح بما خلعت ريشتك الجميلة عليهما من الوان ودهان ، واللسان يتحرك
رطباً بقول الشاعر :

ظفر الطالبون واتصل الوصل - وفاز الأحباب بالاحباب

أجل ، إن ظفري برسالتك ظفر باخائك ورضاك . ومن الحق على من
يصطنع هذا الأدب العلوي الطاهر أن يرضي بأقواله وأفعاله « الأدب » ،
وكل من يتصل اليه بسبب ، ويمت اليه بنسب ، لأن الأدب في الحقيقة
ليس هو صنعة اللسان يحذقها الإنسان ثم يبرزها قوالب لا تجد تحتها إلا
الحسيس من معاني الروح الكثر الجاف ، وإنما هو أدب النفس : يصل المرء
بربه ويعلم به عن مراتب الضعة والهوى ، ويقطعه عن جاذمات الارحام
وقاطعات حبال الإخاء ، وذلك مُصْصَاص هذا الفن الذي نمت اليه ، ونقيمه
فما بيننا مقام الوالد ، ونعمل على رفع شرفه حين نتداول فنونه ونتجاذب
أبحاثه حتى ننتهي بذلك الى مداولة التعارف فمجادبة حبال الإخاء
فأخذ بضبع الانسانية .. لذلك لا أراني في عودتي اليك أذكراك فيما
تضمنته رسالتك من فنون القول الا عائدأ على التعارف أحكم وشائجه ،
وعلى الإخاء أوثق وأصره ، وأعوذ بالله أن أكون من ذوي اللجاج بالباطل ،

(١) نشرت في جريدة البلاد، في ١٥ و ١٧ شهر رمضان ١٣٤٨ هـ - ١٦ و ١٧ شباط ١٩٣٠ م.

لقد كان الخلاف بيني وبينك ، أيها الزميل النبيل ، يتناول حادثاً واحداً هو حادث وضاح مع أم البنين : هل يصححه العقل ويؤيده النقل ، أو يبطلانه ؟ وإذا به يصبح - ليها أوردت - في فنون مشتبكة من القصص والتاريخ والجرح والتعديل والمقول والمنقول ، كلها يسترعي النظر ويستثير الانتباه ويستدعي التمهيص ، وأحسب أن في تناولها بالتحليل البريء خدمة للأدب والتاريخ والحقيقة أراك جد حريص عليها .

تقول أيها الفاضل في شرح مذهبك : « إنك حين قصصت نبأ هذا الشاعر الباتس لم يدر بخلك إلا أن تصور الحياة البدوية والبيئة العربية من أقاصيص تنزعها من الأساطير أو ما يشبه الأساطير ، فأنت في هذه القصة وفيما نشرت من أمثالها قصصي لا مؤرخ » .

حسن جداً ، وأحسب أنك لو وقفت عند هذا المعنى من تنصلك إذن لخرجنا من البحث ونحن ظافرون بالذي قصدنا اليه من القول بأن مأساة وضاح أسطورة من الأساطير ، وإذن لانقطع الخلاف بيني وبينك إلا في أمر الغاية التي ترمي إليها القصة الغرامية المنتهية بنتيجة يندى لها الجبين ، وفي أمر آخر هو أن القصة التي تخمّل وتسرّج الاحاديث وتين لا يمكن أن تصور ألوان الحياة ما لم تجدد من الواقع مستنداً وظهيراً . نعم ، لو أنك وقفت عند ذلك المعنى من القول لانقطع سبب الخلاف بيني وبينك في الجوهر ، وسهل الخطب فيما يستتبع ذلك من الرأي في القصص ومراميه . ولكنك عدت بعد هذا التقرير فوقفت من الأمر موقف المؤرخ ، لتدفع اعتراضي : (بأن الاعتماد على فن القصص لا يكفي مساعاً لنسبة حادث متخيل إلى إنسان محقق) ، فقلت : (إن حادث وضاح لم يكن متخيلاً كله ، وإن حبه لروضة واتصاله بأم البنين وقتله في دار الوليد أمور (تواترت) بها الرواة وقوافرات على حدوثها (الشواهد)

ثم سلكت لتأييد ذلك طريقة البحث في الأسانيد ، فسميت مَنْ سميت من الرواة الذين سنعرض لهم ، ثم ظهرت ذلك بقصة لعلها أوهى من قصة وضاح في نظر النقد والتحليل ، وأكذب منها في مذهب الجرح والتعديل كما سأريك .

وأنا أقول لك : إن وضاحاً رجل نكرة اخترعه الرواة ، وهم يروون عنه الشيء ونقيضه ، ويختلفون في كل حال من أحواله ، فهو عربي حميري تارة ، ومن سلالة الفرس تارة أخرى ، أو هو في مذهب الموفقين عربي ولكن أباه مات عنه طفلاً فتزوجت أمه رجلاً من سلالة الفرس الذين يسمون الأبناء ، ورواية رابعة تشعر أن أباه مات عنه وهو رجل متصل بالخلفاء في دمشق وأنه رثاه بشعر .. فبأي ذلك نأخذ ، يا سيدي الاستاذ ؟ إن ما رأيت من الخلط والخطب في نسبه ونجاره ، تراه بعينه فيما يتحدثون به عن أحواله وحبه ، وعن حبيبته روضة ، أهي فارسية أم عربية - ؟ وعن موته كيف كان أدفناً في البشر وهو في الصندوق ، أم اغتيل اغتيالاً ؟ إذ شُبب بأم البنين في شعره ، فنعني ذلك الشعر الى الوليد فأوعز باغتياله ؟ كل ذلك تضارب وتناقض يدل دلالة بينة لا يداخلها الريب ، على ما أرى في أمر هذا الرجل المخترع . ورواة يختلفون كل هذا الاختلاف ، ويسرجون كل هذا السرج الفاحش ، لا أستطيع ان اجرو في مذهب العلم فاعتدّ معك اختلافهم وكذبهم (تواتراً) أصدق به مثل خبر الصندوق الموضوع ، فأنت تعلم من غير شك أن (المتواتر) هو ما يرويه جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم ، وأين توافر الشروط كلها أو بعضها فيما يروون من أخبار وضاح فنؤمن بها ؟

والله ، لو أني وجدت فيها خبراً واحداً سالماً من التناقض والاعتلال

لنزلت على حكمك ، وسميت (متواتراً) كما تسمى ما لم يعد حتى من (الآحاد) ، وان كنت أخرج على مواضع العلم ومصطلحاته ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن قط ، ومن اعتددهم أثباتنا من روى أحاديث وضاح أو لابسوها كلهم منهم مجروح ، وأبو الفرج حين ينقل عنهم لا ينقل عنهم لكونهم ثقات ، وإنما هو يريد أن يكون أغانيه جامعاً لما تضرّب به اللسنة إن حقاً وان باطلاً^(١) . فما على الناظر في كتابه الا ان يعرف ذلك ، ليمحص الحق من الباطل .

فمن أولئك الرواية هشام بن محمد بن السائب الكلبي راوي خبر الصندوق ، وهو رجل كذاب أشير ، أجمع المحققون على اطراحه واطراح ابيه أيضاً لاشتهارها بالكذب والوضع . وكان هشام شعوبياً يتمصب على العرب ، وضع في مثلهم كتاباً نقضناه بكتاب سنخرجه للناس . وهذا صاحب الاغاني نفسه حين ينقل عنه يقفني على ذلك بمثل قوله : « هذا من أكاذيب ابن الكلبي » ، وقوله : « لعل هذا من أكاذيب ابن الكلبي »^(٢) .

ومنهم الهيثم بن عدي ، وهو شر من هشام وابيه ، فقد ذكر الجاحظ في (البيان والتمييز)^(٣) : ان ابن الكلبي كان يأكل الناس اكلاً ، حتى إذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص ! وقد اجمع العلماء على جرحه وترك حديثه ، لكذبه وسقوطه وانكشاف قناعه^(٤) . وللحسن ابن هانيء ودعبل الخزاعي هجاء مرّ فيه لا نحب روايته .

ومنهم بدوي مولى عبدالله بن جعفر ، يقال له بدوي المليح ، كان مغنياً

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٩ و ٢٠ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وميزان الجرح والتعديل للذهبي .

(٣) ح ٣ ص ٧٣ ط . الساقية .

(٤) راجع الخطيب البغدادي والذهبي .

يغني اغاني غيره ، وكانت امه بربرية . وكانت ترقى من عرق النساء ، فأخذ ذلك عنها ، وكان هو صاحب سَمَر ، ومثل هذا الرجل لا يعتد علماء الجرح والتعديل بمرويه .

ومنهم كُثَيَّر عَزَّة ، وكان احمق مسرفاً في الحق ، ضعيف العقل الى حد غريب ، كان الناس يتخذونه هزواً وسخرية ، فيصدق كل ما يلقي اليه ، ويسمع المزاح فيجيب جاداً مقتنعاً . مرض ذات يوم فدخل عليه نفر يعودونه ، فسألهم : بهم يتحدث الناس ؟ قالوا : يتحدثون بأنك الدجال ، فأجاب : أما اذ قلتم هذا فاني لاجد في عيني هذه ألماً منذ أيام ! وكان مذبذباً منافقاً ، يقدم محمد ابن الحنفية ويؤمن بالرجعة ، ثم يدح بني أمية ويغلو في مدحهم ويفاخر بعشيرتهم نفاقاً ، بل كان يستبيح الكذب والنفاق في كل شيء ^(١) .

لا أريد ان أولف معجماً في رجال أسانيد الاغاني فاستوعب احوالهم ، وانما قصدت ان اضرب لك الأمثال ، لاثبت لك ما تسميه (تواتراً) وتأخذ به على انه ثابت صحيح استناداً الى روايات هؤلاء الكذّابة من الشعبيين والخباريين - لم يتوافر فيه شرط من شروط التواتر ، بل ولا الآحاد ، بل الادلة قائمة على تسميته كذباً واختلاقاً .

اما ورود اسم الاصمعي والخليل بن أحمد في بعض الاسانيد ، فلا ينهض دليلاً على صحة هذا الخبر . ذلك لان الراوي عنها ، وهو محمد بن المرزبان ، يروي عن الوضعيين والكذّابة أمثال ابن الهيثم وابن الكلبي وابيه ، فلا حجة فيه ، ولا خير بما يرويه .

ومن الغريب أن تقول ، يا سيدي الأستاذ ، باتفاق خبر الصندوق

(١) راجع اخباره في الأغاني ، ووفيات الاعيان ، وحديث الاربعاء .

الذي رواه ابن السكبي مع المنطق ، بعد أن أقمت لك في رسالتي السابقة الدليل النقلى والدليل العقلي على استحالاته . وليتك إذ قلت باتفاقه مع المنطق كررت على دليلنا المنطقي فنقضته وأبطلته ، ليعلم أي الادعاءين ألصق بالصواب ، ولكنك لم تفعل ، بل طويت الأمر على غيرهِ ، وتعرضت لغيره ، فكان كما عرضت عليك .

وذكرت (معقولا) آخر يظاهر (منقولك) في إمكان وقوع هذه الحادثة ، فذهبت الى أن العصر الاموي عصر انتقال من الخلافة الى الملك ومن البداوة الى التحضر ومن البؤس الى النعيم ، وذلك يقتضي أن تتحلل القيود ، وتتعطّل الحدود ، وتفسد الاخلاق ، وتطغى الشهوات .. واذن فالعصر الاموي في رأيك عصر فساد ولهو وعيث وجون ، استحال به طاهر الاخلاق الى رجس وفساد ، وغر العهر الناس ملوكهم وصعاليكهم وساغ فيه الجهر بالفحشاء فلا قيود ولا حدود : كل ذلك لأن الخلافة استحالت الى ملك ، والبداوة الى تحضر ، والبؤس الى نعيم ، ونحن نعلم من أمر الخلافة والملك أن الخلافة قائمة على الشورى في انتخاب الافضل كأننا من كان لا تنتقل الى الأبناء والحفدة ، والملك قائم على القهر والقوة وحصره في الأعقاب . وتغير صورة الحكم وتطورها على هذا النحو ليس فيه شيء من دواعي تعطيل الحدود وانتشار موبقات الاخلاق ، والا كان الملك في طبيعته سببا في فناء الامم وتدمير الشعوب ، ولا قائل بذلك ، بل الواقع المشهود قائم على خلافه ، كما أن انتقال كل أمة من البداوة الى التحضر ، ومن البؤس الى النعيم ، لا يقضي بتفسيخ الاخلاق وتقلب الرذائل وان صح في بعض الامم لم يصح قط في العرب فجر

الاسلام^(١) اذ كان الدين في عنفوان شبابه ، والناس على نصره حراس ،
وشرائع الآداب مرعية الجانب ، وأولو الامر عليهم ساهرون من ايام
الخلفاء الى عهد معاوية الى الوليد بن عبد الملك الى عمر بن عبد العزيز .

وحسبك أن تعلم ان الحمر التي هي الاولى في مرافق الامم المتحضرة
لم يستطع أحد من الشعراء المسلمين في عصرهم أن يجرؤ على ذكرها
ووصفها (هذا اذا استثنينا الوليد بن يزيد ، وفي أخباره بحال كبير
لشكوك الناقدین . ثم أبا الهندي أيام افول الدولة وانشغال الحاكم بتهدة
الفن وتسكين الاضطرابات) اذن فانتقال العصر الاموي من البداوة
الى التحضر ، لم يكن من طبيعته - وللدین الاثر العميق في النفوس -
فساد الاخلاق وطغيان الشهوات ، وانما كانت طبيعته التوسع في الفتوح ،
والاستبحار في العمران ، والتشديد لدعائم الملك ، والحرص على ضبطه
والاحتفاظ به ، واذا كانت مشاهد الحضارة المادية تدفع العرب بطبيعتها
الى الانغماس في « بحاج الذات » ، فقد كانت طبيعة الدين المتمكنة
منهم تمنعهم أن يأخذوا منها الا ما لا يفسد مروءة ولا يندس طهرأ
ولا يمس عفافاً ، فكان القوم مع أخذهم بحظهم من متاع الحياة يحفظون
بآداب الدين ، ويحرصون على شرائع الاسلام ، ولا يفرطون فيها ولا يفرطون .

وبحسبك أن تعلم أن شعراء الغزل الذين نشؤوا في الحجاز وفي أكناف

(١) اني اتفق مع الاستاذ الجليل بفرية قصة وضاح وانها من دس الوضعين الحافدين على البيت
الأموي ولكني اختلف واياه باستحالة وقوع مثلها بل وافطع منها من العرب فجر الاسلام . ألم
يضرب الجيش الأموي الكعبة صدر الاسلام . ألم يسبوا المدينة ويسلبوها ثلاثة ايام ؟ ألم يسبوا
فساء آل محمد وقتلوا حتى الاطفال ؟ فأين هذا من اقامة الحدود ؟؟ اكانوا على نصره حراساً
يوم قتلوا عثمان ؟

هذه شؤون سياسية وحربية ، وكلا الجانبين المتخاصمين شريك في تبعاتها ، والكلام في قضايا
الاخلاق والآداب العام كما يرى من استمراره على هذا النحو في الصفحات الآتية .

البدواة كانوا الى العفاف أقرب منهم الى ما يُشتم منه فجور ، حتى إذا استعرضت في (الأغاني) حديث زعيمهم عمر بن أبي ربيعة ساعة حضرته الوفاة مع أخيه ، علمت أنه كان امرءاً ماجناً في أقواله ، عفيفاً في أفعاله ، ومع ذلك ضج الناس من هؤلاء الأفراد الغزلين الذين كانوا يشببون بكل شريفة هاشمية أو أموية ، أو من سائر قبائل العرب ، حتى منعوا النساء من الحج . ومضوا يرفعون عقائهم بالشكوى إلى الحكام ، وترصدوهم للاغتتيال ، على علمهم بأنهم لا يريدون بذلك إثماً ولا نكراً ، وإنما يذهبون في تشبيهمهم مذهب المديح والدعابة ، « والشعراء يتبعهم الغاويون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ... » . ولقد حدثنا الاخباريون أو قل حدثنا التاريخ بتوسع الوليد والحجاج والشعراء الغزلين إن ذكروا في غزلهم إحدى نساءهم أو إحدى وصائفهم ، وطارد عمر بن عبد العزيز الشاعرَيْن الاحوص وابن أبي ربيعة ، وكذلك طارد هذا الثاني كل من عبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك ، ونذر مروان بن الحكم وهو على المدينة من قبل معاوية ليقطعن لسان جميل بن معمر لتغزله ببشينة ، إذ شكاه اليه أهلها بذلك مع مراقبتهم ووثوقهم بعفته ، ويحسن أن نعلم أن هؤلاء الغزلين من كان يدفعه الكيد السياسي - ليس غير - إلى الغزل بنساء الولاة والحكام ، كما فعل العرجي حين تغزل بأُم محمد بن هشام والي مكة زوجه حتى أدى ذلك الى الإيقاع به .. وغيره يومئذ كثير .

ومها يكن من شيء فإن الروايات في هذا الباب وذاك كلها متضاربة على أن القوم كانوا أعفَاء حراساً على الشرف والمجد ، والحكام ذوي حزم وغيره على الحرمات . ولو لم أجد من بينات التاريخ وقرائن الاحوال دلائل على أنهم كانوا بالمنزلة التي أصف لك ، لآمنت معك بأن عصر بني أمية عصر تحللت فيه القيود ، وتعطلت الحدود ، ففسدت الاخلاق

حتى لم يبال الناس ديناً ولا شرفاً ، ولكنني - والحال ما أرى - لا أستطيع ، في مذهب العلم ، أن آخذ بظاهر طرف من أقوال أفراد الشعراء ، وأغض عن « ماجرياتهم » مع الناس وأولي الامر ، وأتناسى الرجوع الى طبائع العرب ، فأؤمن بأن العصر الاموي هو كما أقرأ في أخبار هؤلاء الافراد الغزليين ، وأن هؤلاء الافراد الغزليين يمثلونه اصدق تمثيل ... هذا إذا اكتفيت بما تقدم ، ولم أنظر النظرة الدقيقة فيما يكتنف هذا العصر من عصبية الاحزاب السياسية ونكاية بعضها في بعض ، ثم استغلال الشعوبيين لخصومات هذه الاحزاب ونشاطهم لوضع كل ما يوافق مذاهبهم السياسية الباطنية : من تشويه للدين بوضع الاحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، وتشويه لتاريخ العرب باختلاق الاكاذيب والخط من ملوك العرب وخلفاء الإسلام وكبار صحابة النبي ، حتى كان من شجار الهاشميين والامويين والخوارج ، واستغلال الشعوبية هذا الشجار الذي رسخت جذوره وامتدت عروقها - ما ترى من الانباء السيئة في الكتب تحمل على القوم وهم منها براء ، ومن هنا فان من يقدم على البحث في التاريخ الاسلامي ، وهو غير بعيد النظر في علم طبائع الاجتماع وأخلاق الامم ومنازع الشعوب يأخذ أخبار الحوادث بظواهرها ويلقي الكلام على عواهنه - يقع في خلط غريب ، ثم لا يسيء الا الى نفسه ، كما وقع كثير من المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل في مغالط تزيى بحاكيها لاعتمادهم على مجرد النقل غشاً أو سميناً ، كما أفاض في ذلك العلامة ابن خلدون في أوائل المقدمة .

فاذا عرفت ، أيها الاستاذ ، مذهبي في البحث التاريخي ، عرفت مصدر الخلاف بيني وبينك في فهم العصر الاموي . فأنا لذلك لا أستطيع أن أطمئن الى أكثر ما يرويه (الاغاني) من احاديث السيدة سكينة والثريا بنت علي وزينب بنت موسى وأضرابهم مع الشعراء ، ولا الى ما نقلت من حادثة أبي دهب مع عائكة وما هو منها بسبيل .

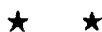
ولقد قلبت حادثة أبي دهب التي ترى أنه لا يتارى فيها أحد على وجوه من النظر ، فما بانت لي إلا واهية مخيفة ، واهية من جانب السند ، سخيفة من جانب المنطق . أما سندها ففيه شيوخ الكذابين والوضاعين وزعماء الشعوبيين هشام بن الكلبي وأبوه والهيثم بن عدي ، ووجود واحد من هؤلاء في سند ما كافٍ مساعداً لطراح الخبر واسقاطه .

وأما سخفها فلأن فيها استحالة ظاهرة ، وهي القول إن معاوية لما سمع بتشبيب أبي دهب بابنته ومراسلته لها من مكة غادر دمشق الى مكة ليعقل لسانه في فمه ، فدعاه في الشعراء ، ثم صرفهم واستبقاه عليه يعاتبه على ما صنع في رفق ولين ثم زوجه واحدة وأصدق زوجه ألقى دينار - وأمر له بألف أخرى يجري عليه مثلها في كل سنة ، فعقل بذلك لسانه ، وانصرف عنه مسروراً الى دمشق ، ولم يحج في تلك السنة إلا من أجل أبي دهب ! فأى شيء في هذه الاسطورة يتساهل له المنطق فيسف ويسف حتى يصدق ؟ أيغادر معاوية وهو ملك العرب العظيم دمشق الى مكة من أجل أبي دهب ليعاتبه ويؤذنه ، ويتوسل اليه بالمال والمقال ألا يرسل ابنته ولا يتغزل بها في شعره ؟ أليس أبو دهب أهون عليه من ذلك ، ومعاوية أقدر على أن يأتي به اليه من مكة الى دمشق ، فيعاتبه أو يؤذنه أو يفعل به ما يشاء كما يوحى اليه دهاؤه ؟ أرايت ، يا سيدي الاستاذ ، أن الحكاية التي كسدها ابن الكلبي ، فأردتها دليلاً لتأييد الأكذوبة الاولى : أكذوبة الصندوق ، كيف تشف عما تحتمها من سخف لا يمكن أن يصدر الا من مثل ابن الكلبي وأبيه والهيثم الشعوبيين (١) .

(١) أوجزت القول في إبطال هذه الأكذوبة ، ولعلي أعود اليها والى ما هو منها بسبيل لم يرد في الأغاني وغيره ، في فرصة تسنح ووقت يتسع . (الأثرى)

لقد جريت الى هذا المدى في التحليل مسaire للبحث ، وأريد أن ألفت نظر الأستاذ الى أمر ساق له هذه الحادثة ، وهي تناقضه ولا تأتلف معه ، فذكر في أول رسالته أنه حين قصّ نبأ واضح لم يدر في خلسه إلا أن يصور « الحياة البدوية » وهذه الحادثة الثانية حادثة أبي دعبل التي ساقها هنا لتأييد تصويره لتلك الحياة البدوية إنما ساقها هنا مثلاً لمؤثرات « الحياة المدنية » ، فكيف يجمع بين الضب والنون ؟ على أنه إذا وقع أمر ما للإنسان ، فهل يقتضي ذلك أن يقع مثله لغيره ؟ فليس من المعقول أن نجزم بوقوع حادثة واضح لأن شبيهاً بها وقع لغيره ، وكلا الحادتين موضوع باطل في مذهب العلم وحجة المنطق كما رأيت .

وفي الجملة ان الحق الذي لا مرية فيه أن كثيراً مما نجده في (الأغاني) وأشباه الاغاني من كتب الرواية والنقل إنما هو سمر وقصص مكذوب منتحل بعيد عن مذاهب اليقين ، وليس مما يسوغ في دين العلم والنقد أن ينتزع من الاساطير المرقشة أقاصيص يراد منها تمثيل حالة الأمة الروحية والخلقية ، لأن الكذب الذي يوضع للهدم ، لا يمثل الواقع الذي يقرره العلم ، فان نفسية العرب في فجر الإسلام هي غير ما تحكيه عنهم الاساطير الشعبية ، فالقاص الذي ينتزع هذه الروايات ويزوقها بشيء من ألوان الخيال لا يعدو مرتبة القاص إلا إذا انتزع أو زوق ما ما يصدقه الواقع والمعروف من طبائع الاجتماع ، ونفسية الأمة التي يتحدث عنها ابتغاء التأثير والتمثيل ، وإلا فان إنهم ما ينشئه أكبر من نفعه ، وأمره أقل من أن يذكر ويؤبه له ، وأجل براعة المنشيء الأديب المفكر أن تصرف في أمثال هذه الميادين .



وبعد ، فهذا ما بدا لي تعليقه على رسالة الأستاذ الصديق ، فإن
وقع موقع القبول فذلك هو المأمول ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (١) .

(١) لم يرد الزيت واغلق باب الجدل خشية ان يحره الى نوع من المماحكة . كل يريد ان
ينصر حجته ، وقد يؤدي به الى مزالق لا يتقبلها الرأي العام العراقي يومئذ ، وهو اميل الى
اضفاء التصون والعفاف على الاسلاف ، ولا يستسيغ اعلان الفاحشة وهتك الاستار -- عملا
بالقول المأثور (اذكروا محاسن موتاكم) . هذا اذا كانت لها حقيقة ، فكيف وهي احاديث
مخترعة لابیات ماجنة يشك الرواة في قائلها ، وينكر اهل العلم حقيقتها ، ونحن كفراء قد ظفروا
بنموذج للنقد التزيه والأدب العالي يحتذيان ، وكان لهما وقع حسن في نفوس المتأدبين .

مطارحة أدبية

ونشرت جريدة البلاد بعد ذلك في يوم الاثنين ١٠ شباط ١٩٣٠ مقالاً الأستاذ محمد مهدي البصير (الدكتور) يساجل بمقاله أو مطارحته الأدبية الأستاذ الزيات ، وقد وفي الأستاذ الأثري الموضوع كما أسلفنا ، وإني أورد نص المطارحة إتماماً للفائدة ، قال :

الأستاذ الزيات أيادي بيضاء على اللغة العربية وعلى الأدب العربي الناهض تستدعي اكباره وتستثير الاعجاب بمداركه ومواهبه ، ذلك لانه ترجم وألف آثاراً حسنة وأسفاراً جميلة نافعة ، وما فتئ حضرته جاداً مثابراً بكل ما أوتي من النشاط والذكاء والخلق والمهارة على مزاولة الترجمة والتأليف . وكلنا رجاء أن تتكامل جهوده وأعماله بما تستحقه من النجاح والفوز . وقد قرأنا أخيراً للأستاذ أقصوصة رائعة انتزعها من حياة الشاعر وضاح ، ونفجها من أسلوبه السحري البديع ، فجاءت مثلاً في جزالة التركيب ولطافة الأسلوب وبلاغة التعبير وجودته ، بيد أننا إذا أمعنا النظر في ما وراء ذلك رأينا أنها لم تخل على بداعتها من شطحات غريبة طغى بها القلم السيال أثناء تدفقه ، وسبحان المبرأ من كل عيب . فمن تلك الشطحات - المأمول أن يسعنا عفو الأستاذ قبل كل شيء - تصوير الشاعر وضاح بطل القصة تصويراً لا ينطبق على حياته ،

فقد وصفه الاستاذ بالميل الى العزلة والانصراف الى التفكير الهادئ. الوديع تحت ظلال الغابات وفي أفياء الحقول والمروج الانيقة الخضراء. شأن الفلاسفة وكبار المفكرين والانبياء ومن جرى هذا الجرى . والحقيقة أن الشاعر وضاحاً لم تكن هذه الحياة الفلسفية المشبعة هدوءاً والسكينة في يوم من الايام ، وان حياته لم تكن سوى حياة انسان تكتنفه الضجة وتحيط به الجلبة وهو لا يرى في هذا كله بأساً لأنه لم يخلق فيلسوفاً في روحه أو حكيماً في طبعه ، انما خلق شاعراً بسيطاً يأنس بالضوضاء ويتصل ما أمكنه الاتصال بالجمهور فيشاطره حياته ويشاركه في آرائه واخلاقه وعاداته (هذا إن وجد هذا الوضاح) وهناك في مراحل القصة العديدة شطحات أخرى رأينا أن نضرب عنها صفحاً لصفراً قيمتها وقلة الاعتماد بها إلا أن الذي يهمنا كثيراً هو سرد الاكذوبة التي تكون بيت القصيد في القصة واثباتها على أنها حقيقة مقررة لا تقبل نزاعاً ولا جدالاً . تلك هي الاكذوبة التي وضعها أحد الشعوبيين المتعصبين وحملها على أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك المعروف بنبله وغيرته وبصلاح سريره وسيرته ، ولم يكن ثمة سبب لوضع هذه الاكذوبة المزدولة ، وحملها على ملكة جليلة القدر عظيمة المنزلة سوى أن خصاماً غنياً حصل بين أحد أحفاد هذه الملكة وبين رجل من الشعوبية في صدر دولة بني العباس ، فكانت نتيجة ما أشرنا اليه من اختلاق تلك الاكذوبة وحملها على الملكة البريئة وتسييرها في الآفاق خسة ودناءة .

وأنت تستطيع أن ترجع الى الجزء السادس من الاغاني لترى مؤلف هذا الكتاب يتحدث اليك بما أسلفنا ذكره من الاختلاق والافتعال مؤيداً ذلك بعنقائه وأسانيده على جاري عادته ، على أنه لو لم يتصد أبو الفرج الى بسط قصة الشعوبي المتعصب بأفعاله وخصومته لما جاز للاستاذ الزيات أن يعتقد بإمكان اقامة شاب جميل غريب في بلاط ملكه

ارستقراطية متعجبة تغازله وتسامرته عند الخلوات وتنادمه في ظل الفرس السانحة . والآن أود أن أقطف لك نبذة طيبة مما قاله الاستاذ الفاضل بوصف اقامة الشاعر الجميل وضاح في كنف الملكة الائمة على ظنه ، قال حضرته :

« ظل وضاح ابن الطبيعة الطليقة سجيناً في قصر الوليد لا يبصر سماء ولا أرضاً ولا يرى غديراً ولا روضاً ولا يسمع حركة ولا صوتاً ، ولا يشعر بمجرى الحياة إلا حينما تخرجه أم البنين من مخبئه ساعة يغفل الرقيب وتغفو العين المريبة فتطارحه أحاديث الغزل وتسقيه من سلاف الهوى عللاً بعد نهل ثم ترده عند الخوف الى مأمنه » .

قال : « ومضت على تلك الحال حقبة من الدهر ورفت عليها ظلال الامن فيها النخ ... » .

لنسلم على أن أم البنين قد تنازلت عن جلالها الملكي وواجهها الزوجي فعاشرت وضاحاً واتخذته خليلاً أو عاشقاً عف الضمير طاهر الذيل على أقل تقدير ، ولنفرض جـدلاً أن الشهوة الحيوانية الخبيثة المتغلبة قد حدث بهذه المرأة الضعيفة الطائشة على أن تحتقب عشيقها كما تحتقب طرائف الحلي والحلل ، ولكن كيف تسنى لوضاح أن يعيش في ناحية من قصر الوليد عيشة السجين كل هذه الحقبة ؟ من كان يتعهده بما لا بد له منه من طعام وشراب وما أشبه ذلك ؟ من كان يتولى القيام على شأنه ؟ أكانت أم البنين هي التي تفعل ذلك بذاتها ، أم كانت تعهد به الى وصيفة ذكية مؤتمنة ؟ وسواء أكانت الملكة هي التي كانت تفعل ذلك بذاتها أم أنها كانت تعهد به الى وصيفة ، ألم ينتبه الى تلك الحركة المتكررة المتجهة دائماً الى ناحية الختبا الامين أحد من سكان القصر وأفراد الحاشية ، على كثرتهم ووفرة عددهم ؟ ألم تتهامس بذكرها الشفاء ؟ ألم تتغامز بشأنها العيون والحواجب ، ألم تتحول تلك الهمسات وهذه

الغمرات إلى ضجرات عالية تهتز لها مناكب القصر وتتلوى بها مسامع الوليد ، حتى يستيقظ من رقدته ويتنبه من غفلته ؟؟

كل هذه الأسئلة لا تقيس الإجابة عليها لأحد سوى الاستاذ . على أننا إذا تدبرنا أمر هذه القصة وتفهمناها جيداً رأينا أن لا مندوحة لنا من أن نعتبرها مختلقة محمولة على أم البنين وعلى وضاح معاً في عصر متأخر . لسبب من هذه الأسباب العدائية التي تبرر بنظر البعض اتیان أي عمل كان من الأعمال التي لا يفتخر بها انسان ما دامت الغاية المتوخاة وهي الانتقام من الخصوم تقتضي ذلك ، أو أن تذهب إلى أن وضاحاً شاعر حاکر وقد وسوس له شيطانه أن يصطنع الهيام ويتكلف الغرام والغزل في أم البنين ليلحق بها ويزوجها الخليفة « النزاری العدناني » هذه الوصفة الفظيعة والسبة الخالدة ، تنقصاً لشرفها وتهجماً على مقامها ، لا شيء سوى أنها نزاریان عدنانيان ، وأنه شاعر يمانی قحطاني ، وأنت تعلم ما شأن العدنانية والقحطانية في أيام بني أمية ، وقد سبق وضاحا الى مثل هذه الفعلة عبد الرحمن بن حسان الأنصاري ، وهو شاعر يمانی قحطاني تشبب برملة بنت معاوية بن أبي سفيان وزعم أنها تبادلته الحب وغم عليه بالوصل ، إلا أن معاوية الداهية تمكن من حمله بحيلة لطيفة على تكذيب نفسه بنفسه بغير ما إكراه ولا إجبار ، نعم انه لا مندوحة لنا من أن نأخذ بأحد هذين الأمرين ، وبرهاننا على صحة ما ندعيه أو نفترضه في هذا الشأن أن صحيفة حياة الشاعر وضاح قد طويت في أيام الوليد بن عبد الملك ، وأن الرواة يروون له أشعاراً غزلية كثيرة يزعمون أنه نظمها في أم البنين ، فينبغي أن تكون هذه الأشعار قد نظمت ورويت بعد وفاة الوليد ، أو قل بعد سقوط الدولة الأموية ، وأضيفت إليها الأخبار والحوادث الغرامية المختلقة المفتعلة ، وحملت جميعاً على الملكة البريئة كذباً وهتاناً ، وأنها « أعني أشعار وضاح » قد نظمت ورويت

وجُهزت بما يلائمها من الحوادث المحجّلة في أيام الوليد نكايّة وتحديداً له
 وإرضاء للخصومة القويّة الشديدة المتبادلة وقتئذ بين العصبيتين العدنانية
 والقحطانية اللتين كانتا إذ ذاك أشد ما تكونان تعادياً وخصومة . وبديهي
 أن كلتا الوجهتين لا تقتضي سوى تبرئة الملكة التزيهة المتهمة . هذا ما
 تحب أن يكون ، وإلا فهل من المعقول أن شاعراً ليست له ضغينة سياسية
 تأكل قلبه وتفقدده رشده وتضطّره إلى التضحية في سبيل غرضه ، يستطيع
 أو يجرؤ على التشبيب بملكة وذكرها علناً بما يسيء إلى سمعتها ويضر بشرفها
 وكرامتها سواء كان بينه وبينها غرام وصلات وعلائق غرامية
 في طبقات الخفاء أم لم تكن ، أليس من المحقق الذي لا نزاع فيه
 أن ذلك مما يعرض حياته إلى خطر ما وراءه خطر ؟ وقضية
 أخرى أود أن ألفت إليها أنظار القراء ، وهي : أن الشاعر وضاحاً
 قد جرب نفسه ما يستدعيه التعرض إلى ذكر الحفريات والتحدث عنهن
 بصراحة في منظوم الكلام من نتائج وخيمة وعواقب سيئة ، فإن رهط
 روضة (وهي أولى عشيقاته كما ذكر الأستاذ) أنفوا من تشبيهه بكرميتهم ،
 وغضبوا لذبوع اسمها مقرّونا باسمه على ألسنة الخاصة والعامة فصمموا
 على الانتقام لشرفها ولشرفهم منه وكنوا له على طريقه إلى الملتقى بها
 فحصلت بينه وبينهم معركة دامية تكشف عن سقوطه مخفناً يجرّح
 بليغة إلى الأرض . فليت شعري أمن المعقول أن تكون نتيجة هذا الدرس
 البليغ الذي أتاحه القدر لوضاح في غرامه الأول أن يستهتر فيما بعد بنظم
 القصائد الغزلية الماجنة وحملها على ألسنة الرواة مصحوبة بتفاصيل رواية
 غرامية يمارس تمثيلها هو وعشيقته الملكة على ما يزعم ؟ ألم يكن هذا
 نظير ما نزل به من رهط حبيبتة روضة عندما تعرّض لها في أشعاره
 وتحدث عنها في أشعاره . أما إنه إذ جاز لنا أن نستخلص من كل ما
 تقدم نتيجة حاسمة ، فإننا نستنتج بزيد الاطمئنان والثقة أن الرواية التي
 قيل أن الشاعر وضاحاً وأم البنين قد اشتركا فيها على مسرح الخلاعة

والانتم لم تكن سوى رواية خيالية مفتعلة في أخبارها ، منتحلة في أشعارها
مختلقة في كل شيء من الاول الى الآخر .

محمد المهدي البصير

وعلقت البلاد على كلمة البصير :

البلاد : « لقد أجاب حضرة الأستاذ الزيات على تعليق الأستاذ محمد
هجة الأثري حول هذا الموضوع نفسه .

وعلق الأستاذ الأثري على جواب الزيات بمقال مدعوم بالحقائق والوثائق
والمستندات ونشره في البلاد في ١٤ شباط ١٩٣٠ في صحيفة الشعر
والبيان . »



الادب وعوامله وحفظ العرب من تاريخه :

ألقى الأستاذ أحمد حسن الزيات المحاضرة الأدبية الأولى في قاعة
(الثانوية المركزية) في ١٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٠م ، وكانت عامة حضرها
جمهور كبير من المعنيين بالادب ومن عشاق الزيات ، وإني أخلص المحاضرة
الاولى ، ثم أعود فأثبت المحاضرة الثانية لاهميتها ، وفي رأيي أن المحاضرة
الاولى كانت كمقدمة للثانية .

قال :

لا نريد يا سادة أن نهدم لنصبح من غير أدب ، ولا أن نظهر النقص
لنفسه الى مجد العرب ، إنما نريد أن نغير ما بأنفسنا من خرد وتقليد
وجمل ليغير الله ما بنا من تأخر وعمودية وظلم ، لا نريد أن نرأم
جروحنا على فساد ونفل ، ولا أن نقيم صروحنا على خواء وخلل ، وإن
أدبنا بحمد الله لا يزال قوياً قتيماً ، يشادّ الزمن ويحالد الحوادث ويفيض
بالحياة فيضان النيل والفراطين ويردى ، وواجبنا أن لا ندعه يفيض في

الصحارى والسهول . واجبتنا أن ندبره باقامة القناطر والجسور ، وأن
نظهر مجراه من الاعشاب الدنيئة والصخور ، وأن نحول تياره الى الارض
القريبة الحصبة ، فنجعل منها ربوعاً عامرة وجناناً ناضرة ، فيها متاع
الاذن بالتعريد والشدو ، ولذة العين بالرواء والبهجة ، وشهوة النفس بالذكاء
والعطر ، وسعادة العالم بالسلام والوفاء والمحبة . أما الزهاوي والرصافي
والمطران والزركلي وحافظ وشوقي ، فهم الاوتار السليمة الباقية من قيثارنا
المفقود ، يشجوننا غالباً بألحان الذكرى فنأسى على الماضي ، ويطربوننا
أحياناً بأنغام الامل فنفرح بالمستقبل ، وإنا لندرجو متى وجد هذا القيثار
وأكملت الاوتار أن يصنع شعراؤنا ما صنع كتابنا فيؤلفوا من الاحسان
الشرقية والغربية موسيقى جديدة يتقدمون بها كتائب الجهاد الى محاربة
الفساد وغزو الاستعباد وتثبيت الحرية .

بعد هذه المقدمة عرض للفظه الادب ، وفصل تأريخها ومعانيها في
الجاهلية وفي اليونانية والسومرية ومعناها الاسلامي . فلما بلغ العرب عهدهم
الذهبي الزاهي في بغداد وازدادت حضارتهم وازدان عمرانهم بالعلم تطور
لفظ الأدب كما تطور مدلولها ، وأخيراً عرفها الزمخشري بأنها تعني « علوم
الأدب التي يحتز بها من الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة . ثم تطور
مدلول الكلمة حين أخذنا نتلقى على الغرب العلوم والادب والفن
والحضارة ، فصار لمعنى الأدب مدلول عام ، فالمعنى العام لها تشمل جميع
ما صنف في أي لغة من الابحاث العلمية والفنون الادبية . أما المعنى
الخاص ، فيراد بالادب التعبير عن مكنونات الضمائر ومشبوب العواطف
وسوانح الخواطر بأسلوب إنشائي أنيق ، مع الإمام بالقواعد التي تعين
على ذلك .

وذكر أسباب جهل العرب لمعنى الادب العام ، وبراعتهم التي تميزوا
بها في التأريخ الادبي الخاص « يريد تراجم الاشخاص » فقد بلغوا فيه

غاية الاتقان وجاوزوا حدود الافتنان وذهبوا فيه كل مذهب ، فقسموا كتبه إلى عامة وخاصة ، فالعامة تترجم للناهين على تباین أوطانهم وأزمانهم وعلومهم ، وهي إما مرتبة على حسب الاسماء أو على حسب الانساب . فالاول منهج ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان ، وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات .

والثاني منهج عبد الكريم السمعاني في كتاب الانساب . وقد ترتب على أزمنة الوفيات كما فعل أبو الفداء والذهبي وابن كثير مثلاً . وأما الكتب الخاصة بأنواع شتى ، منها طائفة وضعت لمن اشتهر في علم أو فن بعينه في جميع العصور كبغية الوعاة للسيوطي ومعجم الادباء لياقوت وتاريخ الحكماء لابن القفطي ونزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري ، وهي مرتبة على حسب العصر . وأحياناً توضع بغير ترتيب كما فعل صاحب الاغانى ، ومنها طائفة وضعت لمن اشتهر في فن مخصوص في عصر مخصوص كيتيمة الدهر للشعالی ودمية القصر للباخرزي وخريدة القصر لعماد الدين الاصفهاني الخ ...

سيداتي سادتي :

ذكرت في المحاضرة السابقة أن تاريخ الأدب فرع من التأريخ العام ، لأن الأدب تعبير عن المشاعر والخواطر والأخيلة ، وهي تتأثر بأحوال العيش وأطوار المجتمع وأنظمة الملك وتقلبات السياسة ، وما للتاريخ الصحيح موضوع غير البحث في جميع ذلك .

هذه قضية مرسلّة مبهمّة ، يقتضي جلاؤها شيئاً من التفصيل والتدليل والأمثلة .

وسبيلنا الى ذلك أن نلم بالعوامل المؤثرة في الأدب ، وهي دستور المؤرخ وشرعية الأديب ونبراس الباحث فيما يصدر عن الإنسان من كدّ

الأذهان وفيض القرائح ، فالعامل الأول : طبيعة الإقليم ومناخ البلد ، وأثرهما في حياة الإنسان وسلائل الأجناس معلوم في بدائنه المعقول ، فأحوال الإقليم هي التي تنهج لساكنيه سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ، وتكون الكثير الغالب من خلاقهم وطباعهم ، ومناظره هي التي تربي ذوق أبنائه ، وتغذي خيال البدو : فألفاظه خشنة كالجبل ، ومعانيه وحشية كالأوابد ، وأساليبه متشابهة كالصخر ، وأخيلته مجذبة كالقفر ، ولن تجدوا في غير الجزيرة العربية أمثال الشنفرى وتأبط شراً والسليك بن السلكة من هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين تغنوا بحياة البادية ومناظرها وأباعرها وغزلاتها وكثبانها وأطلالها وجبالها بشعر متين الرصف صادق الوصف جاف اللفظ عنجبي الخيال .

وقد اختلف الشعراء في شبه الجزيرة نفسها باختلاف الأماكن : فهو في نجد غيره في الحجاز ، وهو في أهل الوبر غيره في أهل المدر . ولهذا العامل وحده أعزو انقراض الأراجيز ، وهي أقدم الأطوار لشعر البادية حين ارتحل ناظموها من الصحارى المجذبة الى سواد العراق وريفه ، وفي حواشي العراق وظلاله ، وخمائل نجد وجباله ، اخضرّ عود الشعر واستقام وزن القصيد ، ومن ثم قال القدماء : إن امرأ القيس ومهلل بن ربيعة وعمرو بن قميئة هم أول من قال الشعر وأطال القصائد . وما كانوا في الواقع إلا زعماء النهضة الأدبية في هذه البلاد .

وظل عامل الطبيعة يفعل فعله في الأدب خلال القرون ، فخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الأندلس ، فقد وجد شعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الأجواء المتغيرة والمناظر المختلفة والأمطار المتصلة والجبال المؤزرة بعميم النبات ، والمروج المطرزة بألوان النور ، فهذبوا الشعر ، وتألقوا في ألفاظه ومعانيه ، ونوعوا في أوزانه وقوافيه ، وديحوه قديج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر ، وسلكوا به مسالك التنوع

والتجديد ، وهذا العامل هو الذي يخالف اليوم بين الأدب في مصر وبينه في الشام والعراق . فالطبيعة المصرية تكاد تكون ثابتة ، فالجو معتدل في جميع الفصول لا يسكاد يختلف ، وحقول الوادي الحبيب لا تعرى من الزهور والزرع ، والسماء السافرة والصحراوان الوسيعتان لا تكاد مناظرهما تتغير . فإذا لم تكن طبيعة بلادنا فهي على الأقل مسالمة ، لأنها لم تزعجنا بالزلازل العنيفة ، ولا تهزنا بالعواصف الرعثن ، ولا نخزنا بالبرد القارس والحر اللافتح ، فطبعتم أهلها على الوداعة والفكاهة والبشاشة والكسل ، والمحافظة على القديم من العادات والأخلاق والآداب ، فلا تتطور هذه الأمور في مصر إلا بمقدار ، ولذلك تجدون شعرا منضداً اللفظ ، جيد السبك ، بطيء التجدد ، هادئ الأسلوب ، لين العطف لا يأخذ الأمور إلا بالملاينة والرفق . بينما تجدون الشعر في الشام شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد خلق الأساليب لتعدد المناظر واختلاف الصور وقلب الطبيعة ونشاط الحياة . وهو في العراق قوي أبي ، ثائر ساخط ، متوثب منتشر على السنة الخاصة والعامة لالتهاب الخيلة وتوقد الشعور وصفاء الحس من إفراط الطبيعة في الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على كثرة السكان ..

على أن هذا العامل قد أخذ يضعف منذ أواسط القرن الماضي لسهولة المواصلات وكثرة المخترعات وانتشار المدنية ، فيستطيع الإنسان أن يعيش في آسيا وأفريقيا كما يعيش في أوروبا ، ويزداد ضعفاً في المستقبل دون أن يحس ويبيد .

العامل الثاني - خصائص الجنس ، فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان في المذهب والخيال والغرض ، وشعر ابن الرومي يختلف عن شعر ابن المعتز ، وقد نشأ في بلد واحد وعصر واحد ، لأن الجنس الآري أميل إلى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق ، والجنس السامي لذكاء قلبه

وحدة خاطره يفهم الشيء في لحظة ثم يلخصه في لفظة ، فهو أميل الى التعميم والاجمال والبساطة .

العامل الثالث - دوام الحرب بين جنسين أو أمتين ، لفتح بلاد أو صد عاد أو تحرير وطن . فان هذه الحروب لتتمخض عادة عن أبطال ينمون في الخيال ويعظمون في الصدور ويكبرون في الزمن حتى تنسب اليهم الخوارق ، وتخلع عليهم المحامد فتسير بذكرهم الرواة ، وتحدث بأفعالهم القصاص ، وتنتقل شهرتهم من فم الى فم ومن جيل الى جيل ، وهي في خلال ذلك تتسع وتفيض حتى تصبح سيرهم لدى الشعب حديثاً وطنياً يجب أن ينشر ، وتراثاً قومياً يحرص أن يزيد ، فيفيض الله لهذه السير المتجمعة على طول الدهور شاعراً سمح القريحة ، فينظمها بأسلوب شائق ونمط جميل . كذلك دارت الالبادة الاغريقية على حروب اليونان لاهل طروادة ... والهاهاراته الهندية على الحروب التي نشبت بين نيدهو وبين كرو ، والشهنامة الفارسية على تاريخ الاكامرة ، ووصفت الحرب التي شملت أهل إيران وأهل طوران . وقد كانت تلك الحروب مفخرة الفرس الاولين ورمزاً للخلاف الدائم بين إلهي الخير والشر .

وكذلك دارت أغاني رولان الفرنسية على حروب الفرنج لعرب الاندلس . وهذا هو الشعر القصصي أو الملاحم الذي خلا منه الشعر العربي ، لاسباب لا يتصل ذكرها بموضوع اليوم . على أن عامل الحروب قد أثر في النثر والشعر العامي ، وان لم يؤثر في الشعر الفصيح ، فان نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بني هلال والاميرة ذات الهمة ، إثارة للنفوس ، وتحميساً للشعب ، وفريحاً من الهم .

العامل الرابع - طبيعة العمران وتوزيع الثروة وما يتصل بذلك من حال الاجتماع ، فإن تقدم الحضارة ورفاهة العيش وغماء الثروة تؤثر في

الذوق ، وتزويد في الصور ، وتساعد على نشر العلوم ، وتنوع في معاني الشعر وأساليب الكتابة . وشاهد ذلك أن مدن الحجاز حينما زحرت بالمال ونعمت بالفراغ منذ خلافة عثمان إلى أواخر القرن الاول للهجرة ، تدفق أهلها في اللهو ، وعكفوا على الغناء ، وألقوا أزمته في يد الصباية ، وانقطع شعراؤها الى الغزل فافقتوا فيه وتصرفوا في معانيه وأغفلوا سائر أنواع الشعر الاخرى كعمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزة . وشاهد آخر على تأثير الاحوال الاجتماعية في الفنون الادبية هو شيوع البذاء والفحش في شعر بعض البغداديين على عهد الرشيد والمأمون ، فقد حدث شيء من ذلك في الجاهلية وفي العصر الاموي حين كان الفرزدق وجريز ومن لف لفهما يتجاوبون بالفحش ويتهاجرون بالبداء ، الا أن ذلك لم يكن مقصوداً ، وانما كان يقال هجاءاً للعدو وسباباً للخصم . أما الفحش في شعر أبي نواس ومطيع بن اياس وحسين بن الضحاك وابن سكرة وابن الحجاج ، فقد كان صادراً عن خلق ، وناقلاً عن طبع ، ومعبراً عن حالة ، فالشعراء يقولونه ويفعلونه ، وأهل البيوتات وذوو المثالة يسمعونونه ولا ينكروونه . فبماذا نعلل ذلك الفساد الذي نال الطبع العربي الحر ، فجعلها تمتن الكرامة وتلقي شعار الحشمة ؟ إذا عللناه بفساد الترف ودنايا السرف حين تطفئ الحضارة ويثور البطر ، كان هذا التعليل وحده غير فاصل ولا مقنع ، فان أكثر أمم التمدن الحديث اليوم قد غرقوا في اللهو وشرقوا بالنعيم وأمعنوا في الخلاعة ، ثم لا تجدون النوابغ من شعرائهم وكتابهم يجرؤون على أن ينهوا على أنفسهم بالفواحش أو يجهروا في كتبهم بالفضائح ، وناهيك بما حدث لفكتور مركريت حين نشر قصة لاجرسون .

إنما الاشبه بالحق أن هناك سبباً آخر يساعد هذا السبب ، وهو كثرة الرقيق . وتأثير الرقيق إنما حدث من جهتين ، أولاً قيام العبيد

على تربية الاحداث في كرائم الأسر ، وفي كثرة العبيد دناءة في الطباع ووقاحة في القول ، فافسدوا النشء وعودوهم 'هجر' القول وفحش الحديث . وأخراهما اقبحام الجوارى والسراري خدور العقائل ، فأعدينهن من أخلاقهن بالجمانة والخلع ، فسقطت المرأة من عين الرجل ، فأخذها بالعنف ، وضرب عليها الحجاب ، وأقام عليها الخصى على عادة الفرس ، وأقصاها عن تربية الولد وتدبير البيت ، واتخذها للمتاع واللذة ، فكان في ذلك أن فشت في الخاصة أخلاق العبيد والإماء ، فتنادروا بالفحش ، وأكثروا الشعر في الإحاض والمجون . واليكم شاهداً آخر على تأثير الأحوال الاجتماعية والأمور المادية في فنون الأدب . ظهر أدب العامة أو الشعر باللغة العامية في بغداد والأندلس في عصر واحد ، ففي بغداد ظهر « المواليا » على لسان صنائع البرامكة من العامة ، وظهر نوع آخر ذكره ابن الأثير صاحب المثل السائر قال : « بلغني أن قوماً ببغداد من رعاة العامة يطوفون بالليل في شهر رمضات على الحارات وينادون بالسحور ، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة من العرب ، سمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة وان لم تكن الألفاظ التي صيغت بها صحيحة ، ولكن الشعراء والأدباء استخفوا به واحتقروه فلم يقلدوه ولم يدونوه ولم يأبهوا لأربابه . وحاول بعض الأطباء وهو محمد بن دانيال الموصلی أن يبتكر نوعاً جديداً من الأدب اقتبس من ألعاب خيال الظل ، فألف كتاباً سماه (طيف الخيال) ، فحبط عمله وخاب أمه . »

وأما في الاندلس ، فابتدع عبادة بن ماء السماء القزاز الموشح ، وابتكر أبو بكر بن قزمان الزجل ، فطرب الناس لهما وأعجبوا بهما ، وأقبل أمراء القريض وزعماء الأدب على نظمها وجمعها ، فنبتغ فيها النوابع واشتملت على روائعها الكتب . فما السبب إذن في استهجان

البغداديين ، لأدب العامة وعزوفهم عنه ، واستحسان الأندلسيين له ونبوغهم فيه ؟ السبب يعرفه المؤرخ الباحث ، وهو أن بغداد كانت شديدة الارستقراطية ، لأنها موطن الاشراف وذوي الاحساب والمثالية والثروة ، فكانوا يترفعون عن الشعب ، ويستخفون بأدبه وذوقه وذكائه ، ويجحدون من الغضاضة أن يتحلوا بحليته ، ويجروا على أسلوبه . ولكن الاندلس كانت ديمقراطية غنية كأمریکا اليوم ، فلم يعتز فيها بالنسب لتساوهم فيه ، ولا بالثروة لعموم الرخاء فيهم وحنن توزيع الثروة بينهم ، فكانت منازل الخاصة والعامة متصاربة وأذواقهم متقاربة ، لذلك لم يتأب الشعراء والأدباء عن تقليد الأدب العامي وتدوينه .

العامل الخامس - الأديان وما يتمثل بها من الأخلاق والمعتقدات . وتأثير الأديان في الادب بمعنييه العام والخاص ، أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع . فانها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة ، وتؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الادب ، على أن تأثيرها الذي يعنينا الآن هو ايجادها لأنواع خاصة من النظم والنثر .

فان بني الانسان كما نعلمون منذ أفزعتهم تهاويل الطبيعة ، وادهشتهم تعاجيب الفلك ، أحسوا بقوة القوي فألهوها كما فعل اليونان والهنود . أو نسبوا الاعاجيب الممتعة الخيرة لمبدأ ، والتهاويل المفزعة الشريرة الى مبدأ آخر كما فعل الايرانيون الاقدمون . ثم امتلأت نفوسهم بحلاهما وعظمتها ففاضت على ألسنتهم بالأناشيد والصلوات ، فكان من ذلك الشعر الديني ، وهو مبدأ كل شعر في كل أمة ، ومن أقدمه أناشيد (رع) عند المصريين ، وأناشيد (فيدا) عند الهند البراهميين ، وأناشيد (جالا) عند الايرانيين ، وأناشيد (ارقبة) عند اليونانيين ، وسفر أيوب عند العرب ، ورأبي الضعيف أن الشعر العربي لم ينشأ في الصحراء على ظهور الابل ، وإنما نشأ كذلك في المعابد العربية إبان انفصال العرب

عن الاسرة السامية الاولى ، فظهر على ألسنة الكهان باسم السجع ، ومن أقدمه سفر أيوب على أرجح الآراء ، وربما عدت الى بسط هذا الرأي في فرصة أخرى .

وتأثير الاديان في الاداب غير متّحد ولا متشابه ، لاختلاف العقول في إدراك هذه القوة الخفية . فاليونان قد عددوا آلهتهم ، وجسدوها على صور البشر ، ونسبوا اليها ما للانسان من كرم ولؤم وغضب وحلم وحرب وسلم وعفة ودعارة وزواج ولذة . ولم يميزوهم عن الناس إلا بالقوة والخلود ، لذلك كان شعرهم الديني في الالهة أشبه بشعرهم الدنيوي في الملوك : يصنف الخوارق والعظائم والقوة ، ولا ينم عن رحمة الخالق وخشوع المخلوق ، ولا يدل على الرجاء الذي يبعث على الطاعة ولا على الخوف الذي يردع عن المعصية .

أما بنو اسرائيل ، فقد وحدوا الله ، وبرؤوه من النقص ، ونزهوه عن المثل ، وعلّوا صدورهم بهيبته وعزته وجلاله ، فكان شعرهم في ذاته العلمية فياضاً بالتقديس والجلال والابتهال والاتكال والبكاء والرجاء والخوف . كذلك يختلف تأثير الدين الواحد في الادب باختلاف الازمان والبلدان وطبقات الناس ونظام الحكم . فان في كل دين من الاديان السماوية قسماً وجدانياً اجتهادياً يختلف أبنائوه في فهمه اختلافهم في الطبائع والمنازع والغاية . فأشعار الخوارج مثلاً تنضح بالدماء ، وتطفح بالحماسة ، لتعصبتهم وتصلبهم وجعلهم غاية الاسلام جهاد يخالفهم في الرأي . وأشعار الشيعة تفيض باجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه وتمثيل آلامهم ورناء من قتل من أعلامهم ، وأشعار الصوفيين تصف مقاماتهم وتذكر اشارتهم وتكثر من الكناية بالخر والسكر والعشق والعبق من شدة تعلقهم بالله . ولا يقتصر تأثير الاديان على النظم ، وإنما تؤثر كذلك في النثر ، فلولاها لما كانت النبؤات عند الاسرائيليين ،

ولا التعازي عند الفرس ، ولا خطب المنابر ومقامات الوعظ عند المسلمين والمسيحيين .

العامل السادس : العلوم النظرية والتجريبية وتأثيرها في ترقية العقل وتقوية الشعور وتنمية الصور ، لا يحتاج إلى تمثيل ولا تدليل ، ولكن لها تأثيراً خاصاً في خلق أنواع طريفة من الأدب كالشعر التعليمي مثلاً ، وهو نوع من الشعر يجمع بين رشاقة اللفظ ودقة البحث وحقائق العلم . وترويه في الآداب الأجنبية القديمة والحديثة أرفع وأمتع منه في الآداب العربية ، فإن من الغضاظة على الفن والاساءة الى الذوق ، أن ندخل فيه منظومة ابن عبد ربّه في التأريخ ، وألفية ابن مالك في النحو . وقد استحدث اليونان في النثر المحاورات الفلسفية يرصعونها بدرر الالفاظ وغزير البيان ، كمحاورات أفلاطون . وهي نوع طريف من الأدب الاغريقي قلده شيشرون في محاوراته في الاخلاق والفلسفة والبلاغة ، كذلك أحدث انتشار العلوم نوعاً من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث تحقيقاً لرأي من الآراء أو تشويقاً لعلم من العلوم ، كما فعل الفرنسيان فلانمريوي الفلكي وجون فيرن القصصي ، وكما صنع أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الاندلسي في رسالة «حي بن يقظان» . فقد أراد بوضع هذه القصة أن يشرح كيف يستطيع الانسان بمجرد عقله أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلمية ، ولكنه يعجز عن ادراك أرقى الحقائق بغير وحي من الله وهداية من نبي . ثم كان كفساق العلوم التأريخية في صدر القرن التاسع عشر ، وميل الجمهور الى دراسة الماضي أن ظهر في انكلترا القصص التاريخي . ابتدعه الكاتب الانجليزي (ولتر سكوت) ، واقتفاه في فرنسا الفريد دوفي في رواية خمسة مارس ، وفي ألمانيا جورج ايسبري في قصته المصرية ورد ، وفي مصر جورجي زيدان في رواياته الاسلامية .

وللعلوم فضل ظاهر على اللغة في المادة والأسلوب ، وأثر قسوي في ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح ، وما ارتقى النثر في أمة من الأمم إلا بعد تقدمها في الحضارة ورقمها في العلم ، لأن النثر لغة العقل ، كما أن الشعر لغة الخيال ، فالنثر اليوناني لم يرق إلا بعد عصر هوميروس بأربعة قرون حين دوت تأريخ لوسديد ومحاورات أفلاطون وخطب ديمستين ، والنثر العربي لم يرق إلا أوائس الدولة العباسية على يد ابن المقفع ، والنثر الفرنسي لم يرق إلا بتأثير الفلاسفة الرياضيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر كديسكال وديكارت .

العامل السابع :

أحوال السياسة الداخلية ، فان لمدها وجزرها ، ولانتقاض حبلها أو اتساق أمرها أثراً بالغاً في فنون الأدب يختلف باختلاف حاله .

ففي خلافة معاوية مثلاً انتشر الهجاء المقذع في العراق ، وفاضت بحور الغزل الرقيق في الحجاز ، وما علة ذلك إلا سياسة هذا الخليفة ، فقد كان يخشى العراق على عرشه الواهي الدعائم ، فساسه بالتفريق ، وإحياء العصبية ، وإذكاء التنافس بين الشعراء والقبائل ليشغل الناس عن الخصومة في خلافته بالخصومة في أمر جرير والفرزدق والأخطل . وكان يستوحش من ناحية الحجاز ، فاعتقل شباب الهاشمين في مدينه ، وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال وخطى بينهم وبين الفراغ ، فمكفوا على اللهو والصبابة والغزل . وبعد خلافة المتوكل العباسي ازدهر الأدب العربي وازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة ، وعلة ذلك السياسة أيضاً ، فان الخلافة العباسية قد انتقض حبلها في أواخر عهد المأمون ، وانصدع شملها في عهد المتوكل باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب ، فكان ضعف السياسة قوة للأدب ، لأن الشعراء والادباء ، والعلماء بعد

أن كانوا مكدرين في بغداد لا يرمون عنها ، تفرقوا في الممالك الجديدة ، فوجدوا من أمرائها وأجوائها ما ساعدهم على وفرة الانتاج ورفع شأن الأدب . وللأحوال السياسية كذلك أثر في خلق فنون جديدة من الأدب أو ترقية ما كان منها .

وتطرق في محاضراته الثانية هذه الى القضايا التالية ، قال :

« ومن هذه العوامل اختلاط الأجناس المختلفة العقليات والعادات والاعتقادات بالمصاهرة والمجاورة في امة واحدة ، وأثر هذا العامل أظهر ما يكون في دولة العباسيين في بغداد ودولة الامويين في الاندلس ، ففي البلدين اتصلت المدنية السامية بالمدنية الآرية فالتقى التصور العميق بالتصوير القوي ، والعقلية العالية بالوجدان الشعري . ومنها : التقليد والاحتذاء ، ولقد كان للتقليد في الآداب القديمة شأن نابه وأثر ظاهر . وضرب لذلك الأمثلة من الشعر اللاتيني وتقليده وأخذه من بحور الشعر اليوناني .

وتكلم على الأدب الفارسي والأدب التركي ، وقال : « انهما صنعة التقليد ، ونفحة من نفحات الادب العربي . فان الفرس حينما استولى الإسلام على أفئدتهم ، ولغته على ألسنتهم ، ظلوا زهاء قرنين يقرضون الشعر بالعربية دون الفارسية . فلما هبوا في القرن الثالث يستردون مجد أجدادهم ويطاردون العربية ونفوذها من بلادهم ويوحون الى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الاسلاف بتأليف المنظومات القصصية والانشيد القومية ، لم يجدوا ذلك ميسوراً إلا باحتذاء الشعر العربي واقتباس أوزانه وبديعه ، وكذلك فعلوا في النثر .

وأما الاتراك العثمانيون فانهم حين أخذوا يدونون أشعارهم في أوائل

القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الاوزان العربية مدداً لأوزانهم القديمة ، ولكنهم ابتداء من القرن التاسع أغفلوا أوزانهم واصطنعوا العروض الفارسي ، وهو في الاصل العروض العربي . وفي منتصف القرن الماضي جدد الوزير ضياء باشا المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ دعائم الشعر ، وخلصه من التقليد ، وانضوى الى طريقته رهط من الشعراء المجددين مثل كمال يكن وأكرم وناجي ، فأنقذوا أدبهم من سخط التقليد ، وقووه بالابتكار والتجديد .

هذه أهم مقومات الحاضرتين .

نسائم النيل الى وادي الرافدين :

نقلت أنباء القاهرة وفاة العلامة اللغوي أحمد باشا تيمور ، فكان لنبا وفاته أصداء الأسى والفجعة في نفوس أهل الفضل والعلم ، فدعا صديقه الاديب الكبير الاستاذ محمد بهجة الاثري الى إقامة حفل تأبيني كبير في مقر جمعية الشبان المسلمين المجاور لقصر نقيب الاشراف السيد عبد الرحمن النقيب على دجلة في محلة المربعة ، وألقى فيه الاستاذ الاثري قصيدة جميلة قدمها بكلمة رائعة نشرت في جريدة البلاد ، كما ألقى مدير الجريدة المذكورة الاستاذ رفائيل ترجمة ضافية للفقيد ، وكان الاستاذ الزيات من أسهم في هذه الحفلة بكلمة بليغة نشرتها البلاد في يوم الاحد ٨ حزيران ١٩٣٠ بعنوان : (نسائم النيل الى وادي الرافدين) ، هذا نصها :

سادتي الأفاضل :

باسم الأمة المصرية ، وباسم الجامعة العربية ، وباسم الشهداء في سبيل العلم والوطنية ، باسم أسرة الفقيد الكريمة أقدم جزيل الشكر وموهور الحمد الى حضرات الداعين والمدعوين الى هذه الحفلة الموقرة . وأذكر

بالأعجاب هذه العواطف النبيلة التي عبر عنها حضرات الخطباء ، فأحسنوا التعبير ، وأجادوا البيان . جميل جداً يا سادة أن تتجاوب أصداء الأسمى في جميع الاقطار العربية كلها عبثت بأمالنا الخطوب ، وعدت على رجالنا عوادي السياسة أو الموت ، وأليم جداً يا سادة أن تتخطف المنايا أقطابنا وهداتنا والبحر الذي نسلكه مضطرب والمركب حائر والمرقأ بعيد .

إن المرحوم أحمد باشا تيمور ، برد الله ثراه ، كان علماً من أعلام الإسلام والمشرق ، احتقر الراحة والثروة والجاه في سبيل لغتنا وأدبنا وتاريخنا ، فلم يدع ريبة إلا نفاها ، ولا غامضة إلا جلاها ، ولا منقبة إلا نقّس عنها ورواها . كان رحمه الله مثال الانسان الفاضل ، جعل قلبه لله ، وعقله للعلم ، ووجدانه للفضيلة ، وسعيه للخير ، فاكتسب رضا الله بالتقوى ، وشرف العلم بالعمل ، ومحبة الناس بالاحسان .

لم ينفق ماله في المجد الزائل ، ولا عمره في اللهو الباطل ، وإنما أنفق ثراه الضخم في صنع البر ، واقتناء عشرين ألف مجلد من أندر الكتب المخطوطة والمطبوعة في العالم ، ثم عكف عليها عكوف الصابرين ، فما حرك كتاباً منها الا قرأه ونقده ، واستفاد منه وكتب عنه وعلق عليه ، ثم وقف هذا الجهد الجاهد والذهن الثاقب على خدمة العلم والعلماء في المشرق والمغرب ، يحقق المسائل ويحل المشاكل ويدبج المقالات ، ويؤلف الكتب وكل ذلك في تواضع شديد ، وأدب جم ، وساحة نادرة ، ثم ختم هذه الحياة الصالحة بحبس هذه المكتبة الثمينة على طلاب العلم بعد أن وقف عليها من أجود أراضيه عشرين فداناً ثقل ثلاثة آلاف روبية في العام .

إن حياة الفقيه العظيم كما سمعتموها من الاستاذ بطي مثل من المثل العليا للحياة العاملة في غير ضجيج ، الناصبة في غير ملل ولا ضيق ،

الحافلة المثمرة في غير غرور ولا دعوى ، فهي أشبه شيء بالنبع العذب .
يسيل حلو الخرب في مطمئن الأرض ، فيروي العطاش ، ويعرع السهول في
غير هدير ولا صخب ، أو هي المونة الغادية الهتون ظلت لللاغب المحرور ،
وبللت الثرى المجهود ، ثم ذهبت تاركة وراءها الربيع المزهو والمرتع
الخصب ، شكر الله سعي من سارع في هذه الحفلة بالالقاء أو الاصفاء ،
وحيا الله فيكم يا شباب الرافدين هذه النخوة العربية ، وهذا الشعور ^(١)
النبيل الذي تبدونه من حين الى حين لجزء من أجزاء الوطن العربي المشترك
وعوض الله العلم والعربية عن الراحل الكريم خير العوض ، إنه جميع مجيب .

(١) الحق أن العراق كان ولا يزال سباقاً في مشاركة الأقطار العربية أفراحها وأفراحها
اذكاء للشعور القومي ، وتخليداً لذكرى أهل الفضل ، واشاعة لأقدار أهل العلم والفن ، فما
كان يحدث حدث أو ينزل في مصر أو غيرها قضاء في علم من أعلام الامة إلا وتجذ في نفوس
العلية من أبواب العلم صداد وأساء ، وقد أقيمت حفلات التأيين لركي باشا ، وسعد زغلول
ولصاحب المنار السيد محمد رشيد رضا كما أقيمت حفلات التأيين لأحمد شوقي وحافظ ابراهيم ،
وعباس محمود العقاد ، الا أن هذه العواطف الكريمة والمشاعر القومية لم تجد لها رعاية في مصر
قبل انتشار الوعي القومي على لسان صاحب الرسالة وأحمد امين والسنهوري وزكيه
مبارك وأضرابهم .

تاريخ ألف ليلة وليلة

وعما نذكر له بالاعجاب تلك المحاضرات الممتعة في الأدب العربي والحضارة العربية وفي تاريخ ألف ليلة وليلة، وقد توالى في أماسي الخديس الأول والثاني من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٢ فكانت تمتزج أرواحنا بروحه ، وتقتشي نفوسنا بروعة أسلوبه ، ويسحرنا بحسن أدائه ، ويطربنا بنبهات جرسه الحلو وكلماته المنغمة الناعمة ، فكنا ننسى أنفسنا ونسهو عن الوقت ، ويدركنا المساء فيسكت عن السحر المباح ولما يدرك شهرزاد الصباح ، وما زال الكلام عليها يمتد وفيها رغبة ملحة أن يتصل الكلام ولو فائنا مدفع الافطار ، وكانت القاعة على رحبها تغص بالمستمعين من المتأدبين عشاق أدبه الغض يحدها القارئ ، الكريم بنصها بلاحق الكتاب .

والزيات في ما ترجم وألف وكتب من المقالات ، وما أكثر ما كتب منها في الرسالة والأزهر والرواية ، أديب مطبوع ، جمع رصانة الأسلوب مع عمق التفكير ، وطلاوة التعبير وجودة الصياغة والأسلوب المشرق ، جمع الثقافة القديمة والثقافة الحديثة ، وجمع إليها رقة الحاشية والشعور المرهف ، فهو أديب متأنق ، يغلب على أدبه التجديد والفن ، والنشر القني لا ينفع معه الارتجال ولا يخدمه الخاطر العابر . والتأنق صفة أصيلة في الأستاذ الزيات ، تلازمه في حديثه ، وتلمسها في تفكيره ، وترأها في ملبسه ، وتلاحظها في مشيته وجلسته ، لا يرضيه للكاتب

المعجلان ، ولا الكاتب الذي يكتب عفو الخاطر ، وإنما يعجبه الاعداد والالتزام والتفكير والتدبر .

وصفه صديقه الأديب الناقد محمود محمد شاكر ، فقال : « ورأيت الزيات في كل أسلوب هو الزيات لا يختلف ولا يذنافر ، والكاتب إذا صار الى هذه المرتبة حيث نراه هو مهما اختلفت الاغراض ، وتباينت الأساليب ، فاعلم أنه إنما يشق لك ما يكتبه من حرّ نفسه ، ولا يقبل الزيف ، وهو يعطيك ولا يسألك ، ويبذل لك ولا يئن عليك ، ويعلمك ولا يدعي أنه أعلم منك ، وذلك بأنه قد بلغ في العقل والفكر والصفاء والبيان حيث يعلم انه ملك قارئه ، لأن القارئ ملك له ، وأنه مرشد لا مسيطر وأنه أخوك يناقلك الحديث ، وأنه كان بمنزلة الأب » .

وقال : « والزيات كما عرفته في كتاباته روح هادئة متكنمة مسترسلة ، يكاد يختفي في نفسه حين يفكر ، ويحاسب نفسه ولكن على التسامح والرضا والاستسلام ، فإذا أراد أن ينفجر خيل الى أنه عين حمة ترسل لواذعها ساكناً ساخناً حامياً كلاماً إذا غلبني ثم هدأ بعد هدأة لا يضرب بعضه في بعض ، ولذلك نرى نقده إذا نقد شديداً بالفاء ، ولكنه رقيق غير عنيف .. »

يرضيه الأدب الوقور العف ولا يرتضي البذى المكشوف ، ولا يسميه أدباً . آمن بالعروبة والاسلام ، ونافح عنهما ، وعالج قضايا الامة العربية في مشرقها ومغربها ، وكتب في المناسبات الدينية ، وعمق مفاهيمها في نفوس قرائه ، فكتب في العام الهجري ، والمولد النبوي ورمضان والحج و ليلة القدر ويوم بدر ، وكان في كل ما كتب صادق العاطفة قوي الشعور عميق الايمان ، كما كتب في الاستعمار ،

وجسد أخطاره في أرض العروبة ، وأوضح مخاطر الصهيونية وأبات أهدافها التوسعية ، وألهب الحماسة في نفوس المواطنين من أبناء العروبة ضدها ، ودعا الى توحيد القوى لمحاربتها واجتثاث جذورها من قلب الاراضي العربية قبل أن تقوى وتزاد فتكون مصدر قلق المنطقة وتشريد أهل فلسطين الشرعيين .

فلما وقع الخطب وقررت الدول الكبرى التقسيم وتخلت بريطانيا عن مسؤولياتها ، بعد أن زودت العصابات الصهيونية بالسلاح وأعدتهم للايقاع بعرب فلسطين وتشريدهم من أرضهم ، كتب رحمه الله : « ها هي ذي تقسم فلسطين احدى القبليتين وثالث الحرمين قسمة ضيزى بين العرب الأصلاء واليهود الدخلاء ، وتحمل الصهيونيين على ضمائرهم ويواخرونها من أركان الأرض الى فلسطين ، لينصبوا فيها الصليب للحق ، كما نصبوه من قبل لعيسى ، ويبذروا الشقاق للناس كما بذوره في يثرب - محمد - ، ليت شعري ما جريرة العرب والمسلمين على الأمم الاوروبيين والامريكيين ؟ هل جريرتهم عليهم أنهم فتحوا العالم وطهروه وأعلنوا دين الله ونشروه ؟ قد يكون الفتح ترّة العنصرية ومع نشر الدين تعصب الكنيسة ..

ولكن ترّة اليهودي المقهور وتعصب الكاهن ، لم يكونا وحدهما السبب في هذا الاستخفاف الدولي بالاسلام والعروبة ، إنما السبب الأقوى فيما أعتقد أن المسلمين عولوا على الحق دون القوة ، وعولوا على القول لا الفعل ، واعتقدوا الفرد ، ونسوا ان دينهم قرآن وسيف وتأريخهم فتح وحضارة ، وشريعته دين ودنيا ، وحرهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة ..

ولم يترك الزيات فرصة تمر أو تسنح إلا اهتبلها ، وعاود الكتابة في قضية فلسطين ، وعمق مفاهيم العروبة في نفوس الناشئة يوم

كانت فكرتها في نفوس الساسة والمثقفين باهتة بل غامضة. ونحن ما زلنا نذكر باعجاب مقاله القيم ، باعتزاز وفخر « فرعونيون وعرب ، الذي ردّ فيه على من كان ينزع نزعة فرعونية أو يفكر تفكيراً أقلّيمياً ، قال :

« أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العروبة ؟ نعم ، قالوا ذلك القول ، وجادلوا فيه جدال من أعطي أزيمة النفوس وأعنة الاهواء ، يقول لها : كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ، ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات ، وأيدوه بالمنظرات ، ورددوه في المحادثات حتى خال بنو الأعمام في العراق والشام أن الأمر جدّ ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة ... مهلاً بني قومنا لا تعبدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بني عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن الى القرابة ، إن الأصول والانساب عرضة للزمن ، والطبيعة تواشج بينها القرون وتقفصل فيها الاجواء ، حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة » .

لقاءات وصلات :

وفي السنوات الثلاث التي قضاها الزيات في العراق قامت له مع أدبائنا وشعرائنا ورجالالات المجتمع البغدادي صداقات وذكريات ، وثواشجت له مع الكثيرين منهم وشائج روحية ومودات رأينا صداها على صفحات مجلته الرسالة - وكانت مادة من مواد كتابه (العراق كما رأيته) . نبتت له صداقة مع جميل صدقي الزهاوي ، ومعروف والرصافي ، وطه الراوي ، ومحمد بهجة الاثري ، وساطع الحصري ، والشبيبي ، ورفائيل بطي ، ومصطفى علي ، وناجي الأصيل وكهالك ابراهيم ، وتوكدت بينه وبين

طلابه مودات وصداقات دامت ذكراهما في أنفسهم . ومن أبرز طلابه ناجي معروف وجواد علي ومزاحم الشايندر وعبد الغني الجرججي رحمه الله وناجي يوسف وغيرهم ، أحبوه وأحبهم ، وعرف العراق معرفة الدارس الناقد ، فكان لهذه الصلات صداها الذي تردد فيما بعد على صفحات الرسالة والرواية ، ومن أثرها كتابه « العراق كما رأيته » الذي أعدّ فصوله وأتمّ نسخته وتبويبه ، ولكن ظروفًا سياسية أرجأت نشره في وقته ، وبمضيّ السنين عصفت بأوراق الكتاب يد الإهمال وامتدت إليه يد الغفلة من صنّاع المنزل ، فضاع الكتاب ، ولكن لما يعزينا عن فقدده كله أن الزيات قد نشر بعض فصوله في الرسالة وفي الأجزاء ٤١ ، ٤٢ و٤٣ من أجزاء مجلة العربي التي تصدر في الكويت لسنة ١٩٦٢ .

ومما قصه علينا في شأن هذا الكتاب ، قوله :

« في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٢ ولدي ولدان : طفل ولدي وكتاب ، أذكر. هذا كل الذكر ، لأنني في ذلك اليوم المقرر عدت في متوع الضحى من دار المعلمين بالكرخ الى داري بالرصافة ، فلزمتها جالسا أمام المدفأة الموقدة أكتب الفصل الأخير من كتابي « العراق كما رأيته » . ثم جاءني النبأ من مصر بعد ذلك بأن « رجاء » ولدي في هذا اليوم نفسه وكان طفلي وكتابي أعز شيء عليّ ، لأن ابن نفسي كان نتيجة ثلاث سنين من خير عملي .

« أجل قضيت ثلاث سنين في تأليف « العراق كما رأيته » جمعت مادته من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث في سنتين ، ثم حررته وأنشأته ببغداد في سنة . فلم اكتب منه في القاهرة إلا رحلتي الى كردستان والموصل وجبال عباد الشيطان^(١) وعودتي الى

(١) اراد سنجار والشيخان وسكانها من اليزيدية لا يعبدون الشيطان وانما يتقون شره .

سوريا عن طريق دير الزور وحلب ، ثم وجهت عزمي الى نشره ، فهياته للطبع ، وتربصت به مائة الفرصة ، ولكن الفرصة انقالت ، حتى وفد الى مصر صديق من رجالات العراق له بصر وخطر^(١) فرغب ان يقرأ ما كتبته عن بعض الناس ، وما عقلت على بعض الحوادث ، فحملته اليه في « الكنتننتال » فحبس نفسه عليه نصف نهار لم يبرح فيه الفندق ، ثم رده اليّ في المساء وهو يقول في سمته الرزين ومنطقه المتشد : « أشهد أن كتابك أول ما كتب عن العراق في صراحة ولباقة وأخلاص وصدق ، ولقد طويت عني ما قلته في » ، ولكنني بعد أن قرأت ما قلته في غيري أكاد أعرفه بالاستنتاج والحدس ، ولعلّ من الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسي منه الى حين ، أما قسمه الادبي والاجتماعي فستكثر حولها الاقاييل والاحاديث ، ولكنهما في الأدب والنقد والتاريخ نصر وفتح .. »

نزلت على رأي الصديق العظيم - وليته لم يفعل - وعدت بالمخطوط الغالي الى موضعه من المكتب ، ثم أعلنت أنني سأنشر بعض صوره الادبية في « الرسالة » ، وقد نشرت بالفعل صورتين أو ثلاثا ، رنت بها الآذان ، وأصفت اليها الافئدة .

ولكن ، وأسفاه لم يعد للطفل الحبيب نفس ينسم على نفسي ببرد الجنة ، ولم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعب فؤادي بذكرى العراق .

والهفتهاه على ولدي الذي أبدعه الله ، وعلى أخيه الذي أبدعته نفسي ، جاءا معاً في الشتاء فلم أجد بفضل وجودهما برداً ولا عبوساً ولا كآبة ، وذهبا معاً في الربيع فلم أحس بسبب فقدما دفئاً ولا

(١) هو الزعيم المغفور له ياسين الهاشمي .

طلاقة ولا بهجة . أودى بهما القدر العاذب خداعاً وغيلة ، فسلم العين الكلو ريبة الحذر ، وجرد الدفاع اليقظة من فرصة الحيلة .

دبّ للطفل الموت الـروحى^(١) في وعكة خفيفة من البرد ظنها الطبيب زكاماً عارضاً ، فاذا هي الحناق « الدفتريا » ، ومشى للكتاب القدر المحتوم في ركام من الورق المتروك فذهب به الى النار .

وهكذا قضى الله أن تذهب الى العدم ، خلاصة العمر وعصارة الفكر في فترة ضائعة من فترات الغفلة ، وهيمات أن يكون لهما في الحياة عوض ، فان الغفلة إذا انقطعت من الجسم لا ترجع اليه ولا تتجدد فيه ، وسحر المنظر الجديد لا يتكرر أثره في نفس زائرة ومخيلته .

القهوة الضحيانة :

ومن أوراق الكتاب الفقيد .. وصف لمقهى كان يقع على دجلة ملحقاً بفندق كارلتون جاء فيه :

« هذه القهوة الضحيانة التي رقدت على صدر دجلة النابض ، واستفرقت في الدفء والضوء والسكون كانت أحبّ القهوات إلى القلب العميد ، والخيال الشاعر . كنت كثيراً ما أغشاها بعيد الغداء ، فأجد جماعة أو جماعتين يلعبون الورق هنا ، وفقى أو فتيين يتساقطان الحديث هناك ، وبائع « الأبيض وبيض والعنبا » يسرق خطاه بين هؤلاء وأولئك ، فيذكر بتدائه البطون التي شغلها عن طلب الطعام سكرة القهار أو نشوة المنادمة ، فأجعل ظهري إلى أحلاس القهوة ، ووجهي إلى دجلة ، وعيني إلى الجسر ، ثم أشاهد « فلماً » عجيب الألوان من الناس والأجناس

(١) الـروحى : السريح .

والصور .. فهذا قطيع من الغنم يعبر الجسر إلى المجزرة في حى راعيه ، وهو مستسلم لصوته منقاد لعصاه استسلام الأمة للطاغية يقودها إلى الحرب ، وانقياد الخليفة للقدر يسوقها إلى الموت .. وهذا الملك « فيصل » يعود من قصر العرش إلى قصر الزهور ، من غير حرس ولا جلبة ، فيقف في غمرة الناس على فم الجسر ينتظر أن يعبر القطيع راعيه ، وهناك تلاقى راعٍ وراعٍ ، وتقابل قطيع وقطيع ، !

الحلقة :

وكتب صورة ثانية من كتابه المفقود تحت عنوان « الحلقة » وصف بها رفقة من رجال العراق كان يطلق عليهم ياسين الهاشمي « الحلقة » قال :

« ستة من الاخوان جمعهم تشابه الذوق ، وألف بينهم تجانس الهوى ، فتساموا الصفاء ، وتقاسموا المودة ، وخلطوا حياتهم بحياة بعض . فما كانوا يفترون أصائلَ الأيام ولا عشايا الليالي ، كانوا يتخذون سامرهم كل ليلة في دار أحدهم . فيتعلقون على مائدة الشاي السخية ، أو يتقابلون أمام المدفأة الواهجة ، ثم يدبرون بينهم سُقاط الحديث على أروع ما تشققه الأذهان الخصيبة من براعة الفكر ، وملاحة النكتة ، وطلاوة الخبر ، وسلامة النقد ، وصحة الحكم ، فلا يدعون شأنا من شؤون الحياة ، ولا وجهاً من وجوه السياسة ولا أمراً من أمور البلد ، إلا تناولوه باللسان المرهف والفؤاد اليقظ والنظر المستقل ، فهم معارضون ولا لسان لهم في حزب ، ومصلحون ولا يد لهم في زعامة ..

كانوا يمثلون نواحي النشاط الفكري في العراق أصدق التمثيل ، ففيهم رجل الجيش ، ورجل التعليم ، ورجل القانون ، ورجل الطب ، ورجل المال ، ورجل الشعب ، ذلك إلى امتياز كل منهم بسمه من سمات

الطبع ، وصفة من صفات الخلق .

فطه الهاشمي عذب الروح ، سريّ الأخلاق ، وقور النفس ، مصروف
الهم إلى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل بالتأريخ والحرب ، ولو
ترك إلى نفسه لما خرج من مكتبته ^(١) .

وناجي الأصيل نبيل العاطفة ، حلّو الفكاهة ، سمح المقادة ، أفلاطوني
النزعة ^(٢) ، يعيش في السماء ، ويحلم دائماً بالمدينة الفاضلة .

ويوسف عز الدين ^(٣) متشد اللسان ، حصين الصدر ، سريع الفطنة ،
يتبسط في هزل الكلام . ويتحوط في جده ، ولا يتفك لإخوانه موضع
السر . ومرجع المشورة .

وكامل الجادرجي ^(٤) متوقد الذكاء ، متمرد الطبع ، متوثب العزيمة ،
دائب الحركة ، صليب الرأي ، يدين بالديمقراطية ، ويميل إلى الاشتراكية ،
ويرفرق بينناحيه على الفلاح والعامل والمتعطّل .

(١) دخل الوزارة مرات ورأسها قبيل ثورة العراق ٢ مايس ١٩٤١ وترك بعد وفاته
مذكرات عالج فيها قضايا العراق بصراحة وإقتضاب ، حتى ثورة قوز ، وكان الواجب
يقضي عليه أن يبدي رأيه في أحداثها وما لازمها من المخزافات ومضاعفات وما أعقبها من
اضطرابات ولكنه آثر السلامة .

(٢) رأس الجمع العلمي العراقي ودخل الوزارة قبلها ، توفي في الاسبوع الأول من ثورة ١٤
ومضان ٨ شباط ١٩٦٣ ، رأيي فيه ان شهرته أكثر من حقيقته ، لم تعرف له مواقف جريئة ،
يسلم كل حكم ، ويفيد من كل وزارة ، ويتظاهر بالعلم والعفة .

(٣) يوسف عز الدين ابراهيم كان مديراً المعارف ثم مفتشاً عاماً للمالية ، وعين وزيراً
للمعارف أيام انقلاب بكر صدي ، رجل عملي قليل اللغو بعيد عن الادعاء .

(٤) دخل الوزارة أيام بكر صدي ، ورأس الحزب الوطني الديمقراطي وعارض سياسة
نوري السعيد كما عارض الأحلاف ، يرجع اليه الى اعضاء حزبه شيوع الفكرة الاشتراكية
وعلى قنطريته عبر الحزب الشيوعي العراقي ، ولما انتهت الفرصة تذكروا له وللحزب الديمقراطي ،
توفي سنة ١٩٦٨ .

وموفق الآلوسي^(١) طموح القلب ، سربع البادرة ، بارز الشخصية ، يعتمد برأيه إلى حد العناد ، ويعتز بنفسه إلى حد المخاطرة .

وشوكة الزهاوي^(٢) واسع البال ، ضيق الأفق ، رصين العقل ، قد قصر جهده على عمله فلا يكاد بطمع في شيء ، ولا يشارك في رأي ، ولا يحفل بحادث .

وأولئك كانوا لما اجتمع لهم من ضروب الشفافة وشئ الخلال ، صورة مصفرة للأمة ، يعيشون منعزلين وهم فيها ، ويفكرون مستقلين وهم منها ، كأنهم كانوا لآمالها رموزاً تتميز تميز العنوان وتنفرد انفراد العلم ، كانوا جميعاً في ربة الحكومة ، الا كاملاً ، فكان للجباة الكلمة الحرة ، والفكرة الطليقة ، وقف على السياسة الصريحة قواه ، وأبقت لأطوارها المختلفة رأيه ، فكان يناصر الحزب ما دام معارضاً ، فإذا قبل الحكم تركه إلى غيره ، حتى انفرد هو ذات يوم بالمعارضة ، كان اليد اليمنى لياسين الهاشمي في حزب الاخاء ، وياسين أمل البلاد المرجو ، وزعيمها المنتظر ، فلما رآه يقصد الحكم عن طريق الملاينة والمسايرة ، خالقه ومعه مقاعد البرلمان ، ووظائف الديوان ، وخرج مغاضباً إلى الجهاد بالنفس والمال ، فزاول المحاماة ، وعالج الصحافة ، ولقي في سبيل ذلك ما يلقي المعارضون المتزمتون من الضيق والعنت ..

كان للزيات في هذه « الحلقة » كرسي وثير ، يلقاه أصحابها بالترحاب

(١) درس في الحقوق وانتخب عميداً لها ، وعين مديراً للخارجية ، وترك العراق بعد انقلاب بكر صدقي ، واختير سفيراً للملكة العربية السعودية ، وأخيراً أحيل على المعاش ، ويسكن سويسرا في الوقت الحاضر ، لم يترك أثراً علمياً ، وقد صلح حاله وابتمد عن عناده وإدمانه .

(٢) طبيب حاذق في فنه ، وبرغم ذلك أقحم في الوزارة وهو أبعد ما يكون عن السياسة ومطاويعها ، توفي في الحسينات .

والتكريم ، وكان يجد لهم في نفسه من الطمأنينة والأنس ما لا يجده عند غيرهم ، فكان يناقلهم شجون الحديث ، فيعلم منهم ما لا يعلمه عن طريق الدراسة ، أو الصحافة ، أو الرسميات ، يقول في ذلك :

« كانوا يحملون في نفوسهم آمال العراق الناشئ ، وفي رؤوسهم ثورة الشباب الجديد .. سياستهم الجماعة قبل الفرد ، والعامية قبل الخاصة ، والعراق قبل العروبة ، ولكن آراءهم في رأيي أشبه بأحلام الفلاسفة ، تحت رواق المعبد ، لأنك إذا استثنيت «كاملاً» لا تجد فيهم من يفكر في انقلاب ، أو يحجر بمعارضة .

وكان ظن الزيات صائباً ، فقد اشترك كامل الجادرجي في انقلااب ١٩٣٦ بقيادة بكر صدقي ، وساند الانقلابيين بتكوين الجبهة الشعبية ، واندفع في إدخال المقترحات الاشتراكية مما سبب له معارضة اضطرته أن ينسحب من الوزارة ، وقد اشترك من أعضاء الحلقة في الوزارة آخران هما : يوسف عز الدين ابراهيم لوزارة المعارف ، وناجي الأصيل للخارجية ، وأخرج من الحلقة اثنان من العمل الرسمي ، طه الهاشمي : أبعد عن رئاسة أركان الجيش ، وموفق الألوسي من الخارجية .

وكان هذا الانقلاب أول حدث زج الجيش فيه بالسياسة ، ولا شك أن فساد الحكم وتطلع الشعب إلى الإصلاح والحد من تدخل المستشارين البريطانيين هو الذي أدى إلى تدخل الضباط في الاشتراك بالانقلاب ، ولكن ما عثم أن استغل بعضهم مراكزهم فانحرفوا عن الأهداف التي جاهدوا الناس بانجازها مما دفع آخرين من عسكريين وساسة أن يدبروا انقلاباً مضاداً نفذت فيه خططهم ونجحت باغتيال بكر صدقي ومحمد علي جواد ، ومن يومها لم تعرف البلاد طعم الاستقرار .

والصورة الثالثة التي احتواها كتاب الزيات المفقود ، وصف الصيف في بغداد ، الذي يصل حره أيام تموز وآب ، إلى خمسين درجة أو أكثر أحياناً ، وحق للمقريزي أن يقول : « إن من محاسن مصر ، أن أهلها لا يحتاجون في حر الصيف إلى الدخول في جوف الارض كما يعانيه أهل بغداد » .. يريد به السرداب .

ووصف حر العراق كاتب عراقي ، فقال : « حر لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع فيه ثلج ولا خيش ، فهو كقلب المهجور ، أو كالمتنور المسجور » ..

والزيات لم يقض الصيف كله في بغداد ، وإنما كانت الدراسة تعطل في اليوم الاول من تموز ، فيبأرح العراق إن لم يكن قد بارحها قبل ذلك ، ولكنه حر العراق الذي لم يألفه في مصر أو غيرها ! فقال في وصفه : « السنة في العراق فصلان ، شتاء وصيف ، وليس بين الفصلين المتعاقبين إلا استراحة قصيرة لا تزيد على شهر . فالحر يبدأ من أواخر مارس ، ثم يتدرج حتى يبلغ الأوج في أشهر يونيو ، ويوليو ، وأغسطس ، ثم تنكسر حدته بعد ذلك . هذا في العام . أما في اليوم ، فيطلع الحر بطولع الشمس ، ثم يصعد بصعودها ، حتى إذا أقبل الضحى بلغت الحرارة خمسين درجة مئوية في الظل ، وانقلب البيت 'فرنساً' من غير وقود ، والهواء لهباً من غير دخان ، وحينئذ تحس كأن روحاً نارية تمتد إلى وجهك فتحرقه ، وإلى نفسك فتزهقه ، وإلى صدرك فتضيقه . فإذا كنت في الطريق لذت بجدار تحته ظل ، أو بقبوة فيها مروحة . وإذا كنت في دارك تجردت من أكثر ثيابك ، وألقيت بنفسك في السرداب فظللت به إلى أن تغرب الشمس . والسرداب في بيوت بغداد حجرة في أسفل الدار تنخفض عن صحنها مترين أو أكثر ، وليس فيها فتحة

غير الباب ، وفي جدارها القوائم على الدهليز مبدك مودع يبلغ ارتفاعه ثلثي الجدار « البادكير » وقد سدّ بمسا يشبه مرتبة السرير قد حشيت بأعصان الصفصاف المورقة ، يرشونها بالماء الحين بعد الحين ، فترطب الهواء ، وتحركه المروحة الكهربائية^(١) ، فينسم على الجالسين بالطراوة . ودور بغداد مبنية من طابقين ، فالطابق الأسفل للصيف ، والطابق الأعلى للشتاء . وهذا الطابق الشتوي لا ينفك يرسل في النهار والليل حرارة كوهج النار فلا يدخله في الصيف أحد ، إنما يبرون به سراعاً في الليل وهم صاعدون الى سطح الدار ، ليناموا أهناً النوم تحت السماء .

وإذا كانت أيام الصيف في بغداد لفحات من سعي جهنم ، فإن لياليها نفحات من نعيم الفردوس . وخير ما يعوض الأجساد من ذوبانها المستمر في عرقها الدائم ، تلك العشايا الجميلة التي يقضيها البغداديون على ضفاف دجلة . فهم يخرجون اليه كل مساء عائلات وجماعات وأفراداً ، ومعهم الخدم والفرش والطعام والشراب والفاكهة ، فيركب بعضهم زوارق النزهة ، ويجلس بعضهم في جزائر النهر ، وهؤلاء يغنون ويرقصون ويقصفون ، فيمسي دجلة بمائه وشطآنه وجزره مقصفاً محدوداً بين الرصافة والكرخ ، يضح بالمتاع واللذة^(٢) ، ويفيض بالانس واللهو ،

(١) هجرت السرايب بعد استعمال المكيفات الحديثة ، هذا في بيوت بغداد القديمة .
 (٢) رحم الله أيام زمانك يا استاذي فقد فقد البغداديون بما فيهم الموسرون واهل الروائب العالية ، تلك المنازه والمقاصف وسقف السمك واتخاذ شواطئ دجلة مصايف ، يقيم فيها الناس اشهر الصيف . كانت الحياة رخيصة ، ومواد العيش زهيدة ، لا تكلف إلا يسيراً من دخل الموظف او التاجر . اما اليوم فانها عشرة امثالها ، بومها يكت تباع السمكة التي تكفي العائلة بربع دينار او اقل ، واليوم لا تقدر ان تبتاعها بأقل من ثلاثة دنانير او اكثر ، وقس عليها غيرها . ولا شك ان وجود المباني الحديثة وما يلحق في الدور من الحدائق الواسعة قد عوضت عن منازه النهر وان كانت المقاهي على شارع ابي نواس ما زالت مكنته بروجها الى اليوم .

ويتمتع بالأدب والسمر.. وتلك عادة اجتماعية ، توارثها البغداديون عن أسلافهم ، منذ أيام العروس في عهد الرشيد والأمين . ولا يزال لها في تاريخ الأدب أثر قوي ، وفي قصص ألف ليلة وليلة صدى رائع .

وحسي أن أذكر لك في سبيل الترفيه يوماً من أيام بغداد ، وليلة من ليالي دجلة ، قضيتها مع صديقي المرحوم السيد عبد العزيز الشعالبي الزعيم التونسي المعروف ، وكان يومئذ لاجئاً بعاصمة العراق من اضطهاد فرنسا أم الحريات !

دعاني الزعيم ذات نهار من أنهار تموز الى الغداء ، فتحاملت على نفسي ، وذهبت اليه في الظهر . فوجدته في الحجرة السفلى من داره ، متهاكماً على فراشه ، وقد تعرى جسده البدين البطين ، إلا من إزار كإزار الحمام . فقلت مداعباً : أنجُزِم يا أستاذ في غير رقت الحج ؟ فقال علي البديهة ، وهو يضحك ضحكته العريضة العذبة : وكيف لا أحرم وهذه شمس بغداد ترمي الجمرات ؟ فعجبت من جمال توريته ، وحضور ذهنه ، على الرغم مما كان يقاسي من لاث الحر وتفصد العرق . وتخففت من بعض ثيابي ، ثم جلست أناقله الحديث . وتعجب كيف ازدهرت حضارة العباسيين في هذا القبيظ الطويل ، واستبحر عمرانهم في هذا الخمود الملازم .. وكان الرجل قد وضع على مسافة متر منه مروحة كهربائية كبيرة وتركها ترسل على جسده العاري الضخم هباتها القوية من الهواء الحار ، فكانت لا تنفّس عن صدره ولا تخفف من كربيه ، فيقوم الى الحمام فينقع جسمه في الماء ، ثم يعود ليعود اليه الخناق واللهاث والحر والعرق .. واشتدت الحال ، فمجزت عن الكلام ، وعجز هو عن الاصغاء .

وظللنا نتردد بين غرفة الحمام وحجرة الطعام ، حتى سكنت فورة

الحر ، فاقترحت عليه أن نقضي هذه الأمسية على دجلة ، وكان ثالثنا صديقاً من ادباء بغداد . فهباً لنا العشاء والزورق ، وجذب بنا الملاح حتى توسط النهر ، فوقع في أسباعنا من جهة الكرخ غناء وعزف .. فقال أحدنا للنوتي : تتبع طريق هذا الزورق اللاهي . فقال الملاح بلهجة الغاضب الأنوف : ولماذا نتبع نحن ولا يتبعون هم ؟ ولم يدهش العراقي .

وحاذى المركب المركب ، فإذا جماعة من شباب اليهود لا يقلون عن العشرة ، قد انتظموا صفين على جانبي الزورق ، وفي الوسط مائدة مستطيلة عليها الطعام والشراب والزهر ، وشاب أنيق يعزف على الكمان . فلما رأونا خشعت الأصوات ، وشخصت الأعين ، ونادى ملاحنا بلهجة عراقية آمرة : تعالي يا بنت ، تعالَ يا ولد ، وانتظرت أن أرى الغضب والاحتجاج أو التردد ، فلم أرَ إلاّ القوم يخلون للجوقة الطريق واجفين ويساعدونها على الانتقال واقفين . ولو كنّا جريئاً مع النوتي على مذهبه ، لنقل كل ما كان في مركبهم الى مركبه ، ثم سار زورقنا ، وهم يتبعون ، يغني ويعزف وهم يسمعون ... الخ ...

كدت أخرج من موضوع الحديث ، ولكن الأسى يبعث الأسى والذكرى تثير الذكرى ، والحديث شجون ، والأحداث عبر ، وكان في النية أن أتم الحديث بذكر الوسائل الصناعية التي كانت يتخذها أهل الترف من خلفاء بغداد ، وسراة العراق ، فيردّون الجحيم نعيماً ، واللحمة اللادعة نسمة رطبة ، ولكنها صفحة من تأريخ التمدن أرجو أن أجلو بعض سطورها .

كيف كان العراقيون يتقنون الحر ؟

وتحت هذا العنوان كتب صورة أخرى كانت من مواضيع كتابه « العراق كما رأيته » قال : « حدثتك بطرف من ذكرياتي عن صيف

بغداد ، ووعدت أن أتم الحديث بذكر الوسائل التي كان الناس في العراق يتقون بها هذا الحر قبل أن يُكشَف الكهرباء ، ويُكَيَّف الهواء ، ويصنع الثلج ...

والناس منذ عايشوا الطبيعة ، قد حاولوا أن يدروا عن أنفسهم غوائل الجو بشتى الحيل . فاتقوا البرد القارس والمطر الواكف ، والريح العاتية ، تقف عند باب السكن فلا تقتحمه على من فيه .

ولكن الحر تعمَّسَ عليهم اتقاؤه ، لأنه يهاجمهم في الظل ، وفي الليل ، وفي داخل المسكن .. وغاية ما استطاعوه أن خففوا عنهم شدته بوسائل دلت عليها الطبيعة ، وهدت اليها التجربة كالتخاذه الملابس من الكتان ، واختيار الأبيض من الجلابيب والعمام ، ورش الأرض بالماء وتحريك الهواء بالترويح ، وتبريد الجسد بالاستحمام . وقد قيل لأعرابي من بدو العراق : كيف تصنعون في البادية إذا اشتد القيظ ، وانتعل كل شيء ظله ؟ فقال الأعرابي ، ووجهه يتهلل بالرضى والغبطة : « وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلاً فيتصبب عرقاً ، ثم ينصب عصاه ويلقي كساءه في ظله يكتال الريح فكأنه في إيوان كسرى .. »

على أن هذه الوسائل البدائية ، لم تلبث أن ارتقت بارتقاء الحضارة ، وازدادت بازدياد الترف . يحدثنا الطبري وياقوت : أن الأكاسرة كان من عاداتهم إذا اشتدت وقدة الحر ، أن يؤتى لهم باطباق من غصون الصفصاف الذي نسجه شعر البنات ، فتجعل ركاماً حول الحجرة ، ثم يؤتى بقطع الثلج الكبير من قمم الجبال فتوضع ما بين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين بالشام أيضاً . ولكن الناس في عهد الخليفة المنصور اتخذوا الخيش الغليظ للتبريد ، فكأنوا ينفطون به جدران الحجرات طبقة فوق طبقة ، ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد ما يلامسه من الهواء بفعل التبخر .

وكان المترفون يغشون هذا الخيش بظهارة من النسيج الدَّبِيقِي المصنوع بقاء الورد والكافور والصندل . كان يجلب اليهم من مصر ، ثم اتخذوا بعد ذلك بيوت الخيش وهي قباب ينصبونها على شكل خيام المعسكرات اليوم ، يجري من فوقها الماء من قنوات صغيرة تبلها على الدوام فيبرد هواؤها أشد البرد ، حتى ضربوا ببرودتها المثل فقالوا : طبعه أو شعره أبرد من قبة الخيش . حكى ذلك المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، وكانوا يتخذون مع الخيش المراوح الكبيرة المعلقة . قال الفزولي في كتابه « مطالع البدور » : « وكان يستعمل في البيوت صيفا مروحة تشبه شراع السفينة ، تعلق في سقف البيت ، ويشد بها حبل يديرها ، وهي قبل بالماء وترش بقاء الورد ، فاذا أراد الرجل ان ينام وقت القائلة جذبها من حبلها ، فتذهب بطول البيت وتحجب ، فيهب فيها نسيم بارد طيب .. »

ثم تأثرت هندسة العمارة بطبيعة هذه الحرارة في القرن الثالث للهجرة ، فبنيت القصور والدور في سامراء عاصمة العباسيين في عهد المعتصم وبنيه ، على طراز يقول الاستاذ آدم متز في كتاب تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع إنه منقول من آسيا الوسطى . وذلك أنهم يبنون الحجرات والأبهاء والمجالس في الطابق الأرضي ، سراديب أنيقة الوضع جميلة الزخرف حسنة التهوية بديعة الإضاءة . ثم يديرونها في شكل مربع على فناء سماوي رحب ، تتوسطه بركة أو نافورة أو بستان . ولقد زرت وأنا في العراق أطلال سامراء أو « سرّ من رأى » - وشاهدت آثار قصر الجعفرى الذي بناه الخليفة المتوكل على هذا الطراز ، وشق في فناءه بركته المشهورة التي يقول فيها البحترى :

تنصبّ فيها وفودُ الماء معجلة	كلخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة	من السبائك تجري في مجاريها

إذا علتها الصبا أبدت لها حبيكم
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكمها
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
وريتق الغيث أحياناً يبكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلاً ، حسبت سماء ركبّت فيها

وهذا الوصف الدقيق الرقيق ، يدل على عظم البركة ، وفخامة القصر .

وفي القرن الخامس للهجرة ، يقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو :
إن من خصائص مدينة أرتجان أن فيها الأبنية تحت الأرض مثل
ما فوقها .

ومصادق هذا الخبر ما نراه اليوم في مدينة النجف بالعراق . فان
موقعها على طرف الصحراء وموضعها من شرف الأرض جعلها أفسى
البلاد حرّاً وأبيسها طبيعة . فبنى أهلها السراييب طوابق كطوابق الدار
ثم عمقوها حتى نزلوا بها خمسة وثلاثين مثراً في جوف الأرض ، ثم اتخذوا
من مائها الجوفي مجلساً رحباً تلوذ به الأسرة من حرّ الهواء ، فتجد به في
قيظ الصيف برد الشتاء . وقد نزلت في زيارتي للنجف سرداباً من هذه
السراييب العجيبة في مدرسة السيد كاظم اليزدي ، فوجدت فيه من بدیع
الصنع مالا تصدق الاذن إلا إذا رآته العين .

أما مرفهات الصيف عند المترفين من الخلفاء والكبراء والقادة ، فحسي أن
ألخص لكم صفحة من صفحات هذا الترف المسرف سجلها ابن أبي أصيبعة في
كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » عند كلامه على العالم النصراني
بختيشوع بن جبرائيل طبيب المنوك . وقد كان يذهب في عيشه مذهب الملوك ،
وهو أول من احتال لتكييف الهواء في الصيف والشتاء . . فقد حدث متحدث
أنه دخل على هذا الطبيب في يوم شديد الحر وهو في مجلس مغشى بطاقات
من الخيش ، بعضها فوق بعض . وفي وسط هذا المجلس قبة مجلاة بالكتمان
الناعم ، مظهرة بالدّيبقي المصبّغ . وكان يلبس رداء من الخنز فوقه جبة

من الصوف ، فعجب من زيته ، فلما دخل في القبة ناله من البرد أمر عظيم ، فضحك الطبيب وأمر له برداء وجبة ، ثم قال لغلامه : إكشف جوانب القبة ، فكشفها فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الايوان في مواضع مكبوسة بالثاج وغلمان يروحون بالمراوح على ذلك الثلج ، فيخرج منه ذلك البرد الذي لحقه . ثم دعا بطعامه ، فأثني بمائدة عليها من ألوان الطعام كل غريب ، وأغرب ما كان عليها فراريج مشوية قانية الحمرة ، وجاء الطباخ فنفضها كلها فانتفضت . فلما سأله عنها قال : هذه فراريج تعلق اللوز المقشر ، وتسقى ماء الرمان .

ودخل عليه المتحدث في يوم قارس البرد ، وهو جالس في إيوان على بستان أنيق الوشي مسكي العبير ، وعلى الايوان ظهارات من فراء السمور وأكسية الحرير ، وجلود اليمن ولبود المغرب ، وقد ارتدى غلالة رقيقة وبين يديه موقد من الفضة مذهب مخرق ، وغلام يحرق فيه البخور الهندي . فلما دخل معه الإيوان فإذا مواضع لها شبابيك من خشب بعد شبابيك من حديد ، وكوانين فيها فحم الغضا ، وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالأكوار كما يصنع الحدادون . ثم دعا بطعامه ، فأحضروا له ما جرت به العادة من الشهي الطيب ، وعلى المائدة فراريج ناصعة البياض ، فظننتها غير ناضجة . وجاء الطباخ فنفضها فانتفضت . فلما سأله عنها قال : هذه فراريج تعلق الجوز وتسقى اللبن ، وهي ثلاثم البرد كما ثلاثم تلك الحر .

وبقية الصفحة رواية أخرى عن مأدبة أدبها بختيشوع هذا للخليفة المتوكل في يوم قائف ، جمع له فيها ما لم يخطر على بال من فنون الترف والسرف والعلم ، فبرد الحرارة وطرده الذباب من الجو وأدنى متاع اللجنة من الضيف .

وهذا النمط من العيش الرفاه الراغد ، إنما كان مقصوراً على أولي النعمة من رجال الدولة ودهاقين المال . أما طبقات المجتمع الأخرى ، فقد راضتها الطبيعة على مكاره الحر ، حتى أظفوا رمضاء الصحراء ، كما ألف الاسكيمو ثلوج القطب . والطبقة التي ميزها الملك الموروث والحكم الفاسد والثراء الفاحش ، هي الآفة التي تقوض بناء الشعب ، والعاهة التي تقتل سلام الأمة . وإن ما قرأناه من بذخ بختيشوع وأمثاله من أهل الترف ليزكرنا بما سمعناه عن بذخ يوسف كال وأشباهه من أهل البطالة ، والفرق بين ذلك الطبيب العالم ، وهذا الأمير الظالم ، هو الفرق بين الانسان والوحش ، أو بين الملك والشیطان ، فقد كان أمير نجع حمادي يعيش هو وسائر الاقطاعيين في هجير الصعيد كما يعيش في نعيم سويسرا . وكان يسخر مئات الالوف من الفلاحين ليعقدوا من دمائهم الذهب ومن دموعهم السرور ، ومن شقائهم السعادة ، ثم يولم الولاثم الفاخرة للأقارب من أسرته ، وللجانب من ندمائه ، ويأمر عماله وفلاحيه أن يصطفوا صفين عن يمين وشمال ، فإذا مر بينهم هو أو ضيوفه ركعوا جميعاً . وكان يحشد لهذه الولاثم كل متعة ويجمع فيها كل منكر ، ثم يرض على الفقراء بالفتات والفضلات فيلقى فيها في نهر النيل السمك . واستدرج الله هؤلاء الفاسقين وأملى لهم ثم استجاب لدعوة المظلومين المحرومين ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ..

وكان ما كان من ملك ومن ملك

ثم انقضى وكان القوم ما كانوا ،

أقول : ليت الذين يتولون مصالح الناس يتعظون بما جرى للذين حكموا قبلهم وأسأؤوا وانحرفوا وانجروا بطعام الشعب ، وأثروا علي حساب نفوذهم ، وسخروا سلطانهم لاحتجان المغانم والمكاسب لهم وللأقربين والمحسوبين ، فأصبحوا بين عشية وضحاها يعيشون عيش البطر ، ويصرفون مصالح البلد ، ويديرون السفينة وفق رغباتهم وأطماعهم ، وظنوا أن عين الله تنام ، أو أن عين الشعب غافلة - (وما الله بغافل عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) .

الزيات والزهاوي

ومن الفصول الممتعة التي ضمها كتابه المفقود ، لقاءه الأول للزهاوي .
قال :

« كنت جالساً في بهو كارلتون ، صباح اليوم الثاني لقدومي بغداد ،
أروض قلبي على روعة الفراق ، وأذني على لهجة العراق ، وعيني على
غرابية الصور ، وإذا بأحد الندل يلقي الي بطاقة كتب عليها : « جميل
صديقي الزهاوي » ولم تكذب تلوح في تخيلتي صورة الشاعر التي صورها
السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخاً في حدود الثمانين ، قد انخرع
منته ، وثقلت رجله ، ورعشت يده ، فلا يحمل بعضه بعضاً إلا جهداً .

أقبل عليّ يتخلع على ذراع غلامه ، وقد انبسطت أسارير جبينه
العريض ، وانفجرت شفتاه الذابلتان عن ابتسامة نضرة عذبة ، ثم سلم
علي تسليم البشاشة ، بيد مرتجفة ، ورحب بي ترحيب الكرم ، بصوت
متهدج ، ثم انطلق يشكو جمود الأمة ، وإغفال الدولة ، وكيد الخصوم ،
وإلحاح المرض . وتطرق إلى خصومته عامئذ مع الاستاذ العقاد فذكر
والأسف المر يكسبه لهجة المظلوم ، وهيئة الشهيد ، كيف استغلها في
العراق من سدد خطاه في الشعر ، وأرجف بها من تولاه بالرعاية ، وحمد
الله على أنني جئت بغداد بدل العقاد ، فقد كان وجوده تأليباً متصلاً

على فضله ، وازعاجاً مستمراً لسكينته .

لم يدع لي الزائر الكريم فرصة بين كلامه الدافق ، أدخل عليه منها بالتخفيف ، فان الزهاوي - كما علمت بعد - ديدنه أن يتكلم . كالبلبل ، خاصته أن يغرد ، أو كالزهر طبيعته أن يفوح . فهو في مجلس الصداقة شاكٍ أو شاكر ، وفي مجلس الأدب محاضر أو شاعر ، وفي مجلس الأنس ، مفاكه أو محدث . كان الشيخ يتكلم أو يفسد ، ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسله ، ووجهه المسنون الأعجف وشاربه النائم على فمه الأهرت ، وعينه البراقة ترأراً من خلف المنظار ، وشعره الأشمط يتهدل على تنوء الصدغ : كل أولئك كان يخيّل إليّ أن طيفاً من أطيار الجدود ، أو نبياً من أنبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة في هذا المكان الصامت ، والنور القائم ، والجو الغريب ، ولكن الجدّة التي تفيض من كلماته ، والعزيمّة التي تضطرم في نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال ، وتجعلني وجهاً لوجه أمام « كتلة » من الأعصاب القوية المشدودة تتكلم وتتألم وتثور وتهبّ ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج أبداً عن « الأنا » إذا صح التعبير .

كنت ألقاه في خلال الأسبوع مع الناس في منتداه بشارع الرشيد ، أو على ضفة دجلة جالساً على الدكة الخشبية ينشد الأبيات الرائعة ، أو يرسل النكتة البارعة ، أو يروي الخبر الطريف في بشاشة جذابة ، وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لا تنفك تعبت بلحيته الصغيرة ، أو تضعد وتهبط بسيكارتة العراقية ، أو تمتد « بالأنثى » إلى غلام القهوة كلما طلب الشاي إلى صديق ^(١) .

(١) كان الزهاوي في الضحى يجلس في مقهى ما زال يسمى باسمه ، وفي الأمسيات يجلس على سيف دجلة في مقهى في الباب الشرقي يقع قرب وزارة الشؤون الاجتماعية مقابل سينما —

دأبت « عربية » الشيخ بعد ذلك على أن تقف أمام منزلي صباح يوم الجمعة من كل أسبوع . فكنت أستقبله استقبال العابد المتحنث للكاهن الملمم . ثم نقضي ضحوة النهار مما يحدثني فأعجب ، أو ينشدني فأطرب ، وقد تكون أذني إلى فمه ، وإيس معنا ثالث ، ولكنه يجاهر بالإلقاء ، ويصور المعنى بالصوت والإيماء ، حتى يدهش المنزل وينصت الشارع .. وهو بين الفترة والفترة ، يعود إلى الشكاسة ، وشكواه لا تنقطع . وأظن أنا أمام هذا الجيوشان الروحي ساهماً حالماً ، أفكر في الذهن الذي لا يكل ، واللسان الذي لا يفتر ، والزهو الذي لا يتطامن ، والطموح الذي لا يتقاصر ، والقلق الذي لا يسكن ، والتمرد الذي لا يهين ، والشباب الذي يلبس رداء الشيخوخة ، والحياة تتخذ هيئة الموت .

وكنت أزوره في مثواه « بالصابونجية »^(١) ، فأراه في مبادله قاعداً يشكو الوصب ، لأنه قضى الليل ساهراً يقرأ ، أو ذاهلاً ينظم . فالقصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده ، والمسودات مدسوسة تحت مخدته أو في ثيابه ، فلا يتمالك حين يراني أن يصيح : أنظر كيف أذيب عمري في شعري ، والأمة تقذفني بالبهتان ، والحكومة تخرجني من الأعيان ،

حوروكسي ، وكان من عادته إذا جاء زائر ومعجب بشعره دفع عنه « الآنة » قيمة الشاي وتساري خمسة فلس ، وكان البعض من الحبناء من لم ينالوا « الوير » باصطلاح البغداديين يجتأون على كرمه بمدح قصيدة من قصائده أو بعض منها أو بشروا له بنجر يشم منه رائحة تعيينه في الأعيان بعد أن فقدوه بالقرعة ، هناك يعلو صوته : أمين! شاي الأندي . ويشير إليه بيده . وبعض الظرفاء حوادث يخادعون بها حتى ينالوا دعوته على الغداء معه في داره . ويغيطه بعضهم فيروي له قصيدة من شعر الرصافي ويفضلها على كل ما قاله الشعراء ، أو ينقلون له خبراً يعزونه إلى مصطفى علي صديق الرصافي وحافظ شعره ، فيحتاج ويسبهم أو يقوم عنهم إلى ركن آخر أو يركب عربته ويرجع إلى داره .

(١) الصابونجية محلة كان فيها بيوت آل الزهاوي تقع بالقرب من الميدان وما زالت مأهولة بالسكان .

والملك يستكثر عليّ أن أكون شاعر البلاط .

اني سأذهب وستبقى أشعاري معبرة عن شعوري وناطقة بآلامي ،
فهي دموع ذرفت على الطرس ، وهي خليقة أن تبعث من عيون قارئها
دمعة هي كل جزائي من نظمها .

وكتب له ترجمة في أحد أجزاء الرسالة ، قال :

« ولد الزهاوي في يوم الاربعاء من شهر يونيو « حزيران » سنة ١٨٦٣
ببغداد لأبوين كرديين كريمين ، تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب .
فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام ، وأخوه ^(١) فقيهاً
من فقهاءها . فنشأ جميل بين أبيه وأخيه ، يرتاض عقله ليمتثقف ، ويرتاش
خياله ليطير ، ولكن أخاه كما حدثني الزهاوي كان حشر ^(٢) اللسان لا
يتذوق الأدب ، فكان يزوده عن رواية الشعر ويصده عن دراسة اللغة ،
ويأبى عناده هو وتسامح أبيه إلا أن يديم النظر في الأدب ، ويروض
القرينة على القريض . كان هم أخيه ، وأمل أبيه أن يستقيم على عمود
أسرته ، فيكون صاحب قضاء وفقه ، ولكنه استقام على محتوم طريقته ،
فكان صاحب دعوة وفلسفة . والاستعداد الموهوب في الطبع هو مشيئة
الخالق في الخلق ، جعل من الزهاوي أبا العلماء ، وقد كان أهله يريدونه
أبا حنيفة ، وجعل الرصافي أبا نواس ، وقد كان الالوسي يريد في معروف
الرصافة معروف الكرخ ^(٣) .

(١) هو محمد سعيد الذي كان من أعلم فقهاء بغداد ، وهو والد الشيخ أجمد الزهاوي رئيس
المجلس الشرعي ورئيس رابطة العلماء . والصواب مدينة السلام أي بغداد .

(٢) حشر اللسان : فاقد الذوق .

(٣) يريد به الشيخ معروف الكرخي الصوفي المشهور .

والألوسي هو الامام محمود شكري الألوسي البغدادي الذي أخرج به الرصافي ودرس عليه
ولازمه مدة طويلة ناهزت اثني عشرة سنة ، وهو الذي لقبه بالرصافي .



جميل صدقي الزهاوي

كان العراق أيام نشأ الزهاوي تركي الساطان ، 'سُنِّي الحكومة ،
فالتعليم المدني فيه كان تابعاً في لغته وطريقته وغايته لسياسة الاجنبي
وهواه . فلم يخرج إلا رجال جيش يخضعون للنظام ، ورجال إدارة
يذعنون للحكم . أما التعليم الديني ، فقد ظل في صحون الجوامع على ما
عهده الناس ، عربي اللسان ، حر النزعة ، طليق الفكرة ، مستقل الغاية .
وطبيعة هذا النوع من التعليم الجدلي المطلق أن يخلق المجاهل للشعور
البليد فيضل ، ويكشف الآفاق للفكر النافذ فينبغ ، ويساعد الجبلة
في الانسان على حسب الاستعداد فتعلو أو تهبط ، فهو يساعد المهمة
القاعدة على السقوط ، والنفس القائمة على القنوط ، والذهن المبطن على
التخلف ، كما يساعد العقل الحائر على التزندق ، والطبع الفلق على
التمرد ، والارادة المستقلة على التزعم ..

ورجال الثورة والاصلاح في تأريخنا الحديث ، كانوا جميعاً من أهل
هذه الثقافة كالأفغاني ، وعراقي ، ونديم ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ،
والكواكبي ، والزهاوي ، والرصافي ، ومن اليهم . والناهيون من أهل هذه
الثقافة ، لا ينفكون دائبين على القراءة ، والتتبع والمشاركة ليدفعوا عن
أنفسهم معرة الذم ، وهم عسيّون - إذا جددوا - أن يسرفوا في التجديد ،
كسذي العاهة يدفعه النفور من ذل الضعف إلى الافراط في المسف
والتجبر .. فالزهاوي الجريء بطبعه ، الطموح باستعداده ، ثقّف بهذه
الثقافة ، ثم تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد
الصحاري المهمة ، ثم نزعة عرق العم والخال من الكردية ، فجاهد
وجالد وغامر . والكرد كالعرب إن لم يكونوا من العرب . ثم ابتلي
وهو في الخامسة والعشرين من عمره بداء في النخاع الشوكي لازمه
بقية حياته ، ورمي بعد ذلك بالشلل في رجله ، فبرم واكتأب وتشاءم ،
ثم مني من أهل عصره بفساد السلطان ، واستطالة الجهل ، والنحل

الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى موقف المصلحين من الانذار والتضحية .

رأى وهو في الأستانة عبد الحميد يلقي الأحرار مغلولين في السجون ، أو في قاع البحر ، فأرسل مع أبي الهدى قصيدة منها :

أيامر ظل الله في أرضه بما نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال ، وينفي مبرأ ويسجن مظلوماً ، ويسبي ، ويقتل
تمهل قليلاً ، لا تغظ أمة إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك ان طالت فلا تغتر بها فان يد الايام منهن أطول
فسجنه حيناً ثم نفاه ..

وسمع وهو عضو في مجلس « المبعوثان » من بغداد ، مقرر الميزانية يذكر في ميزانية وزارة الحربية مبلغاً جسيماً من المال ، جعلوه لقراءة « البخاري » في الأسطول ، فقال : أنا أفهم أن يكون هذا المبلغ في ميزانية الأوقاف ، أما في ميزانية الحربية فلا . فالمفهوم أن الأسطول يمشي بالبخار لا بالبخاري . فثار عليه المجلس ، وشغب عليه العامة . والزهاوي كان يردد هذه الحكاية ، ويتفاخر بجرأته في اعتراضه . يحكيها بلهجته الساخرة يقول : « أفندم ، هذا لن يكون ، الأسطول أفندم يسير بالبخار لا بالبخاري ، أفندم أنقلوا المبلغ إلى ميزانية الاوقاف ، يقوم بها الشيوخ وأهل الطرق . ولهجته وسخريته من عادة قراءة البخاري تبركاً جعل العامة تشغب عليه بعد أن رد اعتراضه جماعة من النواب ذوي النزعة المدنية .

ورأى مسا تعانيه المرأة من عنث الاستعباد والاستبداد والجهل ، فهب لابقاظها ، فكتب في جريدة المؤيد مقالة المشهور « المرأة والدفاع عنها » فزلزل الناس في بغداد وغير بغداد ، فسمعوا به إلى ولاية الأمور

ليعزلوه ، وحرشوا عليه دهماء الشعب ليقتلوه ، فاضطر إلى لزوم داره .
 الزهاوي عقلية « افاقة » ، وحيوية ، وطبيعة ساخرة . وهذا
 النوثب الحماسي فيه هو الذي جعله يؤثر النظم في تقييد خواطره ،
 وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلاهما ، أو ابتذالها ،
 فيذهب الشاعر ويبقى الفيلسوف ، ويكون الزهاوي معك كالآلة تدور
 مليئة مترنة ما دامت على شيء ، فإذا نفدت مادتها فجأة ، انطلقت
 تدور على الفارغ سريعة مضطربة . ذلك أن الفكرة الفلسفية هي المادة
 الاصلية في شعر الزهاوي . وليس الشعر كله فكرة ، وإنما هو - فضلاً
 عنها - صورة يرسمها الخيال ، وشعور تبعثه العاطفة . على أن فكرة
 الفيلسوف واضحة ، وجمالها في هذا الوضوح ، وفكرة الشاعر خفية
 وسحرها في هذا الخفاء . إما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها
 فتكون صاحب فلسفة ، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون
 صاحب شعر ، أما الخلط بين الفلسفة والشعر ، لأن الشاعر يدرس
 ظواهر الكون ، فكأخاط بين التصوير والتشريح ، لأن المصور يدرس
 بواطن الجسم .

كان الزهاوي كشوقي حربصاً على متابعة العصر ، ومسايرة التطور .
 ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف
 يأنف التخلف .

ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه ، وأن التيه يذهب به فيجب الشناء
 ويبغض النقد . فهو لعزفه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ،
 ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف ، ولطمعه في نباهة
 الذكر يحاري ميول الخاصة ، ويعارض هوى العامة . ومن ثم كان
 أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم ووزارة على الجمود
 بمجاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

ونظم في أعقاب عمره « ثورة في الجحيم » ففزع المؤمنون من شرها إلى الملك فيصل ، فلما كلمه في ذلك قال : « ما أصنع يا مولاي » عجزت عن إضرام الثورة في الأرض فأضرمتها في السماء ، !

ورسم الزيات صورة ثلاثة للزهاوي ،

وازن فيها بين عقله وبين أصحاب العلم والفلسفة ، وردّ أصول دراسته وما ترجم إلى الكتب والمقالات والمجلات ولا سيما « المقتطف » لأنه ما كان يحسن سوى العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لغات المترجم إليها من العلوم قليل ، لا يبيل صدى الظمآن ، ولا يصل فكر الانسان بالتطور الذي نضج في أوروبا وأمريكا .

قال :

« ومع ذلك استبطن الزهاوي دخائل هذه العلوم بعقله الناقد حتى ألف كتاب « الكائنات » في الفلسفة ، وكتاب « الجاذبية وتعليمها » وقال :

« سواء أنهض دليله « في الجاذبية » أم دحض ، فإنه يدل على النظر الثاقب ، والفكر المستقل . ورجاحة عقله هي التي حملته وهو في ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود ، من سماء فكره لا من سماء خياله . والمعهود في عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك . فلما هيأته الأقدار الجميلة لرسالة الشعر ، كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته . والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث ، يصدر عنهن فيض القريحة ، ويرد اليهن إلهام العبقرية . ولكن الشعر ، لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة . أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضيء الطريق للخيال والعاطفة حتى يأمننا الضلالة . فالفكر للعبقرية بمثابة العين ،

والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين ، فإذا تغلبا عليها كانت الشروء والزيف ، وان تغلب عليها كان الجفاف والمعم . ومن هنا جردوا أكثر ما قاله أبو العلاء ، وأقل ما نظم أبو الطيب ، من الشعرية ..

والزهاوي شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة ، والفتنة النافذة وليس له الاذن التي « تمسق » ولا القرينة التي تصنع ، واللفظ قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والاسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية تمج بين الأبواب المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطئ المنهارة .

« والزهاوي بعد هذا وقبل هذا ، كان رسولا من رسل الفكرة الإنسانية ، وبطلا من أبطال النهضة العربية . كان يهزج بأغاريد الفخر على ضفاف دجلة فتتردد اصداؤها الموقظة على ربوات بردى ، وخائل النيل ، وسواحل المغرب .

وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف ، ثم تسعى لتقود أمة كما كانت ، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون » ..

وضع العربنة لدى الزيّات

ندب الزيّات للتدريس في العراق سنة ١٩٢٩ ، وبقي في بغداد ثلاث سنين مليئة بالفكر والعمل . خالط فيها رجال القومية والداعين للعروبة في العراق ، وكانت الفكرة القومية تتردد على لسان المثقفين ، وكانت ذكر العروبة تتعطر به شفاه المتعلمين . وبحكم اجتماعات الزيّات بقيادة الفكر وأرباب السياسة وزعماء النثر والشعر ، واختلاطه بالأساتذة وهم حملة الأقلام والأفكار النيرة ، تملّى أفكار القومية والدعوة للوحدة ، وسبر عمق العروبة وما تعني . عرف أبعادها وأفكارها من كبار دعايتها مثل ساطع الحصري الذي يعد بحق فيلسوف القومية وزعيم دعايتها ، ومن الثعالي والهاشمي والشبيبي والراوي وغيرهم ممن زامله في دار المعلمين العالية ، فأمن بالعروبة وأصبح من دعايتها ، وساهم في تأسيس الجمعية الثقافية التي تأسست يومئذ في بغداد . ومن أهدافها أن تقوم مثيلات لها في مصر وسوريا ولبنان وفي أقطار العروبة كلها ، وترمي هذه الجمعيات الى نشر الوعي القومي عن طريق إحياء التراث العربي والثقافة العربية ، وقد تبلورت فكرة قيام هذه الجمعية إثر المحادثات وتبادل الأفكار بين ساطع الحصري والأساتذة العراقيين من جهة وبين أساتذة الجامعة المصرية الذين زاروا العراق في شباط سنة ١٩٣١ من جهة أخرى . فتم الاتفاق بين الزائرين والمضيفين على وجوب التعاون في سبيل انهاض

الثقافة العربية وضمّان ازدهارها . يقول ساطع الحصري في مذكراته :
ورأينا أن أحسن طريقة لذلك ، في ظروفنا الحالية هي :

« أن نؤسس في كل من بغداد والقاهرة جمعية تسمى « جمعية الثقافة العربية » ، لتتولى هاتان الجمعيتان مهام الاتصال بين مثقفي البلدين وتنسيق وتوحيد الجهود التي يجب أن تبذل في هذا السبيل ^(١) » .

كانت هذه السفارة الثقافية الاستكشافية برئاسة الأستاذ العلامة أحمد أمين وعضوية عبد الرزاق السنهوري القانوني الضليع ، والأستاذ عبد الوهاب عزام ، وشفيق غريبال ، ومصطفى عامر ، يرافقهم عدد من طلاب الجامعة ممن أصبحوا هم وأساتذتهم يتسمنون مراكز حساسة في الحكومة المصرية حلوا ضيوفاً على وزارة المعارف ، أو على دار المعلمين العالية على الأصح . ووضع الحصري منهاج الزيارات والاحتفالات ، واختار الأساتذة المتحمسين لفكرة العروبة ليكونوا برفقة الوفد طلاباً وأساتذة .

أقيمت للوفد حفلات ، خطب فيها درويش المقدادي ومتى عقراوي . وألقى فيها جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي قصائد مناسبة . يقول الأستاذ ساطع الحصري :

« ان الخطب التي أُلقيت في هاتين الحفّلتين (حفلة دار المعلمين العالية ونادي المعلمين - في فندق كارلتون المطل على نهر دجلة ، في يومي ٨ و ٩ شباط ١٩٣١ . ان هذه الخطب التي ألقاها المحفّتون والمحفّتي بهم) شغلت مكاناً هاماً من صفحات الجرائد ، وأوجدت حركة فكرية وقومية تلفت الأنظار ، ولا سيما قصيدة معروف الرصافي التي كان مطلعها :

(١) مذكرات الحصري ، الجزء الثاني ص ٧٢ .

أرى بعد نوم طال في الشرق يقظة
نهوضية فيها طموح الى المجد
ففي مصر شيدت للمعلوم معاهد
على أسس التحليل والبحث والنقد

وأكد أحمد أمين في خطبته على الروابط التاريخية التي تربط مختلف البلاد العربية وان كان قد أكثر من استعمال تعبير « الأمم العربية » ثارة « والأمم الشرقية » ثارة أخرى ، وهذه التعبيرات كانت موضع حوار ونقاش بين ساطع الحصري وأحمد أمين في جلسات خاصة .

ويقول الأستاذ ساطع الحصري : ولكن أهم الآثار الفكرية تولدت من اختلاط طلاب الجامعة المصرية بطلاب دار المعلمين العالية ببغداد .

وقال : « كان المصريون يستغربون أشد الاستغراب من تكلم العراقيين في القومية العربية ، ويسألونهم : أنتم عراقيون فكيف تشعرون بأنكم عرب ؟ وأما العراقيون فكانوا يستغربون أسئلة المصريين هذه ويسألونهم : أنتم أستم عرباً ؟ صحيح انكم مصريون ولكن أليس المصريون كلهم عرباً ، فكيف لا تشعرون بعروبيتكم ؟ » يقول أبو خلدون : كنت أشعر بسرور عميق عندما أطلع على هذه المحادثات خلال تجوالي بين موائدهم دون أن أستغربها ، اعتقاداً مني بأن ذلك لا بد أن يفتح أمام الشبان المصريين آفاقاً جديدة ، كما أنها كانت لا بد من أن تقوى عند الطلاب العراقيين روح العروبة .

قلت . لم أستغربها لأنني كنت أعرف أن بمصر ، كانت تحصر كلمة « العرب » بصورة رسمية في البدو ، فان الأحصاءات الرسمية بعد أن تذكر ما يعود إلى كل محافظة واحدة فواحدة تذكر ما يعود إلى العرب . كأن أبناء المحافظات ليسوا عرباً » أقول إن هذا الاستعمال كان معروفاً

في العراق فاذا قال أحدها إني أريد الغدور إلى العرب ، عَنَسَى الرِّيف أو
البدو ، ولكن الوعي القومي أبطله تدريجياً ..

الزيات عضو في الجمعية الثقافية العربية :

وكان أعضاؤها المؤسسون بترتيب حروف الهجاء :

- (١) ابراهيم الشابندر (٢) أليس قندلفت (٣) أحمد حسن الزيات
(٤) داود الجلبي (٥) درويش المقدادي (٦) رفائيل بطي (٧) ساطع
الحصري (٨) سامي شوكة (٩) طالب مشتاق (١٠) طه الهاشمي (١١) متى
عقراوي (١٢) موفق الآلوسي (١٣) ناجي الأصيل (١٤) يوسف زينل .

وبعد الحصول على الأذن القانوني انتخب الدكتور داود الجلبي مدير
الصحة العام رئيساً للجمعية ، والدكتور متى عقراوي « سكرتيراً » لها ،
وابراهيم الشابندر محاسباً وأميناً للصندوق ، ووزعت الجمعية المنشور التالي
على عدد كبير من المثقفين ، أثبت نصه لما فيه من تفكير عميق وحماسة
للفكرة القومية .

بعد العنوان :

« لم يبق أحد إلا وقد شعر بأن الشرق العربي يتجه اليوم اتجاهاً
جديداً نحو الحياة ، بعد أن شملته يقظة الأمم والشعوب عقيب الحرب
العظمى . ولكن الوضع السياسي للناطقين بالاضاد وما خلفته أعوام الركود
جعل الأقطار العربية مبعثرة من حيث النفوذ السائد عليها والنظم التي
تخضع لها ، فعدت تختلف حالاتها الاجتماعية والأدبية بعضها عن بعض
اختلافاً بيناً . وهذا ما جعل هذه الأقطار بعيدة عن اجتناء ثمرات
النهضة الحديثة التي استروحت نسائهما في العهد الاخير . لذلك كان

التفكير في التقريب بين أقطار الشرق العربي من طلائع الغايات التي يجب على المنورين في كل قطر أن يضعوها نصب أعينهم . ونخالكم تتفقون معنا على أن المشروع الأول الذي يجب أن تتضافر عليه الجهود في هذا الباب توحيد الثقافة ، وهذا لا يتم إلا بإيجاد الصلات الفكرية والروابط الأدبية بين البلاد العربية للحصول على وحدة ثقافة شاملة .

تلك حاجة شعر بها الفياري على مستقبل الشرق العربي ، وشغلت أذهانهم ، فصاروا يبذلون المساعي لسدها بالسبل القوية ، وقد حفزت هذه النزعة الشريفة جماعة من المشتغلين بالعالم والأدب في بغداد ، فعنوا بمناقشة الموضوع مع طائفة من الاساتذة المصريين الذين أمّوا مدينة الخلفاء في بعثة الجامعة المصرية في الشتاء الماضي ، فاستقر الرأي على تأليف جمعيات في ديار العروبة تتخذ واسطة الاتصال بين المفكرين فيها ، وأن تسلك هذه الجمعيات الطرق المؤدية الى توحيد الثقافة العربية النخ .

ومن هذا البحث أريد أن أخلص إلى أن فكرة القومية ومفاهيمها قد نضجت في صدر أستاذنا الزيات في اثناء اشتغاله في العراق ، فلما عاد الى مصر وأنشأ الرسالة كانت بحق مجلة الرسالة القومية الحاملة لواء الدعوة الى العروبة وغرسها في نفوس قرائها من أبناء الشعوب العربية .

لقد اشتد الجدل يومئذ بين نفر ممن عمل بتوجيه من المستعمرين والمستشرقين ينزعون نزعة إقليمية ، وهذا يقول بالفرعونية وذاك يقول بالفييقية ، وذلك يقول بالبربرية . واتهم أساتذة كبار من أمثال طه حسين والعقاد ، بأنهم تنكروا للعروبة ، وكثر اللغط والجدل حول هذا الموضوع ، وتوضحت الأفكار وصححت المفاهيم ، ووضح ما كان مبهماً ، وتخلص الكتاب من كثير مما كانوا يقومون فيه من الأخطاء والخلط في مثل التعبيرات « الأمم العربية » والصواب الشعوب العربية ،

« الشرق العربي » وكأن المغرب العربي لم يكن أهله عرباً .

ومثل « إحياء عظماء الشرق » ويريدون به عظماء الأمة العربية لأن الشرق يشمل الهند والفرس والصين واليابان الخ ... وإلى القارئ الكريم خلاصة من المقالات فيها الدلالة على التحول الكبير الذي أحدثته التوعية القومية وشيوع فكرة العروبة في كتاب مصر بفضل الزيات وكتاب رسالته . من تلك المقالات التي كتبها الزيات في القومية مقالته المشهور (فرعونيون وعرب) : فقد كان له تجاوب في الأقطار العربية ، وصدى على أسلات أقلام الكتاب . قال :

« عفا الله عن كتابنا الصحفيين ، ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ربح ، ويبعثوا حرباً من غير جند !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطياً يجادل في الدجاجة والبيضة أيتها أصل الأخرى ؟ فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقاتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟

نعم ! قالوا ذلك القول ، وجادلوا فيه جدال من أعطي أزمة النفوس وأعنة الاهواء . يقول لها : كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون ، ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ، فبسطوه في المقالات وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه في الحوادث ، حتى خال بنو الاعمام في العراق والشام أن الأمر جد ، وأن الفكرة عقيدة ، وأن ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل والعلماء كهنة .

مهلاً بني قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بني عمنا لا تسبوا بقسوة الظن إلى القرابة ، فبأي شيء من هذا يتبارى إخواننا

الجدليون ، وهم لو كشفوا في أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام ، لرأوا الروح العربية تشرق في قلوبهم ديناً ، وتسري في دماهم أدباً ، وتجري على ألسنتهم لغة ، وتفيض على عواطفهم كرامة .

لا نريد أن نحتاجهم بما قرره العلماء المحدثون من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحجاج يقطع فيه النفس ، ولا ينقطع فيه الجدل . وكفى بالواقع المشهود دليلاً وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلاث من التاريخ العربي نسخت ما قبلها كما تفسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . وذلك ماضي مصر الحي الذي يصيح في الدم ، ويثور في الأعصاب ، ويدفع بالحاضر الى مستقبل ثابت الأسس شامخ الذرى عزيز الدعائم .

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ما يبقى في يد الزمان من مصر . هل يبقى غير أشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الأمواج » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجاوات ، وقبور ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانفهاخها الارض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضي الأبعد الذي تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة ، تصور بألوانه ، وتشدو بألحانه ، وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لا تثقل إلى الأعقاب إلا في نتاج العقول والقرائح ، فهل كشفتم بجانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب ؟ أم الحق أن مصر القديمة دفن فنبت روحه مع الآلهة ، وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ؟ والحامد لا يبعث حياة ، والجامد لا يلد حركة .

لا تستطيع مصر إلا أن تكون فصلاً من كتاب المجد العربي ، لأنها لا تجد مدداً لحيواتها ، ولا سنداً لقواتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة العرب . أما أن يكون لأديها طابعه ولغتها لونه فذلك قانون الطبيعة ، ولا شأن (لينا) ولا (ليمرب) فيه لأن الآداب والفنسون ملاكها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر ، فإذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ، ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاتته الصبغة المحلية وهي شرط جوهري لصدق الاسلوب وسلامة الصورة .

وقديماً كان لون الأدب في الحجاز غيره في نجد ، وفي العراق غيره في الشام . وفي مصر غيره في الاندلس ، دون أن يسبق هذا التباير دعوة ولا أن يلحق به أثر .. انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين ، واستقروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يده من أكفان الرميم ، ثم تحدثوا واطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادي وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياة فرعون هي روح عمرو ، وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر ، وأن القيثارة الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثارة امرى القيس ، وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتلأ السطور وتغذي العالم هي أدعى إلى الفخر ، وأبقى على الدهر ، وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

إنما تتفاضل الأمم بما قدمت للخلقة من خير ، وتتفاوت الاعمال بما أجدت على الانسان من نفع . أليس « الحزان » خيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الأهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟

وبعد ، فإن ثقافتنا الحديثة إنما تقوم في روحها على الإسلام والمسيحية ،

وفي آدابها على الآداب العربية والغربية ، وفي علمها على القرائح الأوروبية الخالصة . أما ثقافتها (البردي) فليس يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا الاقباط (١) .

الزيات من دعاة الوعي القومي :

من مقال نشره بعنوان « مصر وأخواتها » في ٤ مارس ١٩٣٥ ، جاء فيه .

« كأنما السؤال من الناس كسؤال الناس ، لا يتفق مع الرخاء ولا يكون مع الغنى ، فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران من وراء الحدود ، والوحدة العربية في البلدين على الرأي الاغلب حديث خرافة أو حديث بحاملة ، فلولاً الأدب الذي يجمع الفؤاد بالفؤاد ، ويربط البلاد بالبلاد ، ويصل الأحفاد بالأجداد ، لظلت منابت العروبة ومواطن الاسلام أغفالا لا تعرف ، وأرحاما لا تبلى .

يزور المصري من أقطار العرب ، فيكون أول ما يرد على سمعه عتب المحبين على الهجر ، ولوم الأقربين على القطيعة ، وعذل الجيرة على التخاذل ، فيلقى معاذير الملوم المخرج في منطق عي ودفاع غير ناهض ، ثم يزداد حرجه وتتحاذل حججه كلها رأى قلوبهم تزخر بعواطفه ، وصدورهم تجيش بامانيه ، وألسنتهم تضطرب بأخباره ، ونهضتهم تسترشد بنهضته ، ووجهتهم تسير مع وجهته . فصحفه تقرأ ، وكتبه تدرس ، وسياسته تحتذى ، وزعامته تتبصع . ثم خصومته هي لهم خصومة ، وقومه لقومهم أهل ، وبلده لبلادهم قبلة ، حينئذ يقول لنفسه ، والتجمل

(١) وحي الرسالة ١ - ١٠ - ١٩٣٣ .

والعجب يتعاقبان على وجهه ، إن وطني مترامي الحدود ، فلماذا أحده
على الضيق ؟ وقومي ضخام العديد ، فلماذا أحصرهم على القلة ؟ وجيراني
كرام يصفون المودة ويصدقون العطف ويولون المعونة ، فلماذا أجعل
بيني وبينهم سداً من الامال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناضجة لترخص
الأموال والأنفس في التمكين لأديبها ونفوذها وعروضها في الشرق ،
فكيف نعرض نحن عن ذلك ، وهو بأتينا عفواً عن طريق القرابة
والنسب والوحدة في اللغة والادب والمشابهة في الحظ والحالة ؟ « وختمها
بقوله : « إن من وراء حدودنا - يا قوم - آداباً لا تقل عن آدابنا
يحسن أن تعرف ، وشعوباً تتصل بأنسابنا يجب أن تؤلف ، وأسواقاً
تفتقر إلى انتاجنا ينبغي أن تكشف ، أما النظر في حدود البحر ،
فادمان يفرق البصر ويعجم الخطر وينجم بقوميتنا وأمانينا على الفرق... » .

حديقة النادي العسكري

كان الزيات يسكن في السنة الأولى من حياته في العراق ، السنة الدراسية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ في بيت قرب دار جريدة الزمان الكائن بمحلة الميدان ، اختارها لقرىها من المدرسة التي اتخذت معهداً للمعلمين العالية ، فكان إذا وجد متسعاً من وقته عرج على حديقة النادي العسكري ، يغشاها عند الصباح الباكر ، يجتلي محاسنها ويتنسم عبير أزهارها ، ويتبرد بأفياء أشجارها فكان لمجتلاها الساحر أثر فعال في إبداع ذلك الوصف البارع الذي ديجمه قلمه البليغ في وصف تلك (الحديقة) ، قال :

كان ألذما أتذوقه من جمال بغداد وقفة في حديقة (النادي العسكري) كل صباح ، فكنت تراني أحرص عليها حرص العابد المتحنث على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجّد على لقاء فتاته . كنت أغشى كل يوم هذا المجتلى الساحر في روتق الضحى أو في متوع النهار ، فأجد الشمس قد لأأت ذوائب النخل وغوارب النهر ، وأخذت ترشف بأشعثها الظلال النديّة من خلال الشجر ، وبنات الهديل ^(١) يبعثن كمعادنهن في عساليج ^(٢) التين

(١) بنات الهديل : كناية عن الحمام .

(٢) العساليج : جمع عسلوج ، وهو ما لان واخضر من أغصان الشجر .

وأغصان التوت بأرجلهم ومناقيرهن ، وهن يرجعن على التعاقب ألحان
 الخريف . وأرى الحديقة مطبولة النباتات منضورة الزهر ، تنففس
 بالفاغية ^(١) تنففس الطفل الحالم ، فأشعر بالسكون مرهوب الجلال ،
 أنيس الوحشة ، يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع بأرض ^(٢) النبات وهو
 يذبت ، وأجد النادي خلواً من أهله ، فلا تجد إلا بستانياً يعمل في صمت ،
 وغلاماً يكنس في هدوء ، وطفلين جميلين يجيئان أحياناً فيجلسان في
 الشرفة أو يمشيان في الحديقة ، فلولا نشوز خادمها الكهل ، ومنظر هندامه
 الزري الشكل ، لحسبتها زهرتين من زهورها أو عصفورين من طيورها .
 فأسير في الروضة متند الخُطى مرسل النفس مرهف الحس ، تارة بين
 مماشيتها ، وتارة فوق حواشيتها ، فأقف عند كل شجرة ، وأحيي كل زهرة ،
 وأسأل النبتة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود؟
 ثم أصدد درجة الى الشرفة ، وأنعم ساعة بتملك الوقفة ، أنفسم هواء
 النهر ملء رئتي ، وأخذ جملة المنظر بمجامع عيني ، وأي منظر يسحر
 الطرف ويملك الالب كهذا المنظر الفاتن ؟ الحديقة من ورائي تضوع بالنسيم
 الأريج ، وتروق بالرواء البهيج ، وتروع بالسكون الملم ، ودجلة الخالد
 من أمامي تتجاوب أصداء الأمم خافتة في لججه ، وتتهادى خفاف
 القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين الشجر والماء ، كالطائر بين الأرض
 والسماء ، يسبح خاطري في أجواء الماضي القريب والبعيد صاعداً إلى
 فكرة ، أو هابطاً على ذكره ، أو حائماً حول منظر كهذا المنظر ، تدفق
 به قلب في قلب ، وامتزجت فيه نفس بنفس ، وتجمعت الأحلام والاماني
 كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحت سرحة فينانة من روضه . لا
 تظنّ هذه الحديقة فيحاء ، قد تأنقت فيها يد الطبيعة وتألقت بها فن

(١) الفاغية : كل زهر له رائحة .

(٢) بأرض النبت : أوله .

الانسان ، انما هي مربع من الأرض على قدر ما يتسع له فناء كبير في منزل
فخم ، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب ، فقسماها
الى أربعة أقسام سواء ، وفي هذه الأقسام وما ألحق بها قام دوح السرو ،
وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب ممشيها أشجار النارنج ،
وانتثرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النور الجميل والورد العطر ،
فساؤها - كما ترى - للشجر ، وأرضها للزهر ، وجوها للعطر ، وهي كلها
لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر .

ليت شعري ، ما مصدر هذا السحر الذي يشع في عيني ، ويشيع في
نفسي كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو ذاك البناء المتآكل الذي يقوم في
جنوبه كأنه المعقل البالي أو الدير المهجور ؟ أم هو ذلك المزيج العجيب
من جلال القدم في المكان ، وجمال الطبيعة في البستان ، وعظمة الحياة
الماثلة في النهر ؟

ليس للروح العسكري في هذا المكان الشعري مظهر ولا أثر ، فما
تعمده من الحشونة في الشكنات ، والعنف في الحركات ، والقسوة في
النظرات والكلمات ، يحول هنا إلى ذوق فنان ، ويقة شاعر ، وهذوء
فيلسوف .

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحة تذهلني عن حديقتي ، واليوم عيد
من أعياد الطبيعة ، برزت فيه عارية من الحلل ، غانية عن الحلي . والحريف
في العراق هو الربيع احتترقت غلاله الوردية في لظى تموز ، فهو على تجرد
أرضه من الأنوار والأزهار ، وتحجب سمائه أحيانا بالغيوم وأحيانا بالغبار ،
جميل البسات ، عليل النسبات ، رفاف الأديم . فما نحن أولاء بين أعقاب
الحريف وطلائع الشتاء ، والشمس لا تزال في ثغر السماء ابتسامة حلوة ،
تضاحك النهر الحبيب ، فتزیده طلاقة ، وتداعب الزهر الكئيب ، فتكسبه

أنافة ، وتطالع الجو المقرر ، فتقبسه حرارة ، وتصارع برد الموت في أوراق النارنج وأطراف التوت ، فتطيل بقاءها فترة أخرى من الزمن . وهذه اليمامات السوامع ما زلن يأوين إلى أعالي الشجر ، ويمرحن في الضوء ، وينعمن بالدفء ، ويهتفن بالأهازيج كأنهن في أمنة من حلول يناير ، وهو منهن على ليال قلائل . وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعيم ، وبطفح غرينه بالذهب ويقذف تياره بالغشاء والزبد ، بعد ما يختره القيظ فنش حتى انكشف ضميره ، وانقطع خريره ، وكاد يزحف الشبوط والزورق فيه على القاع ، فالباخر تصعد صافرات في سرعة ، والأطواف^(١) تنحدر صامتات في بطفء ، والقفف تعبر موقرات في هودة ، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتهادى في عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة في الفكر العميق ، والطيور الصائدة تحوم على وجه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق ، والجمعة^(٢) الملكية تطعن في صدور الموج بمنقارها الطويل العريض ، وهي تسبح أمنة في حمى البيت العميق ، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد إليّ حاملة أنين الأمواج وخفق المجاذيف وغماغم الكرخ ، فتختلط بتجاوب اليام على الشجر ، وتناوح الرياح بين الغصون ، وحشجة الأوراق الناذية على الأرض ، فتتألف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية ، تبعث رواقد الأحلام ، وتثير كوامن الآلام ، وتقطع بين النفس ووجودها الحاضر .

(١) الأطواف : جمع طوف وهو الرمث وجمعه أرمات ، وهو ما يعرف بالكلك . والقفة : نوع من السفن المرافية الأثرية مدورة ومقمرة يرجع تاريخها الى عهد الكلدان مطلية بالقار .

(٢) الجمعة كانت تمشي في قصر الملك فيصل الذي يقابل النادي العسكري ويقع على النهر ، ثم اتخذ مجلساً للنواب والأعيان ، ومن قبل كان مدرسة للصنائع في العهد العثماني ، وأصبح اليوم مقراً للأشغال العسكرية .

إيسه يا دجلة 'يا سجل' الأمم وراوية العصور ، لشدّ ما فنيت في خريرك
ضحكات ، وامتزجت بنميرك دموع ، وخفيت في ضميرك أسرار ! لقد
رأيتك بالأمس ضارعاً قد لصق خدك بالأرض حتى همّ بخوضك الخائض ،
وهدمت حياتك حتى أوشك أن يسكن عرقها النابض ، ثم رأيتك اليوم
وقد غاثك الغيث ، فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة ، ثم
أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين 'مدوّي' الدارات ، صخاب اللج ، تعرض
هذا النعم ملحقاً على بنيك ، فيعرضون عنه إعراض البطر ، ويؤثرون
على فيضك الميمون ودق المطر ، ثم يهينون كبريائك يا أبا الحضارات ،
فيجعلون مبلغ همك حمل الأرمات ونقل القفف ، فهل يعجبون إذا فار
غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالفرق ؟

وس كتابه المفقود

فيصل الاول :

كان الملك فيصل الأول حركة دائبة ، ووطنية متوثبة ، ونشاطاً متواصلاً ، وسعياً مدعوماً بالتفكير والتعقل ، وكان قلبه يجيش بالحياة ، ويعمر بالآمال ، وكانت نفسه تتطلع إلى معالي الأمور برغم عوائق الاستعمار ، وبوائق الانكليز .

جاء إلى العراق برغبة من أهله ، وبطلب من زعمائه ، وسعي من أصدقائه الانكليز الذين أرادوا أن يكفروا عن خيانتهم له ، وتنصلهم مما وقع من حلفائهم الفرنسيين ، وإخراجهم اياه من سوريا ، بعد أن أسس ملكاً كان معقد الرجاء وموضع الآمال العربية .

فاستقبل يوم مقدمه بالابتهاج والأفراح ، واحتفل بشخصه الوطنيون ، ومما أحسب يوماً عرفت نفوس البغداديين كيوم وصول فيصل ، لأن العراقيين رأوا فيه معقد الآمال ، في تحقيق الاستقلال .

رأيت بعيني فرحة العراقيين وأنا منهم - وكنا طلاب دار المعلمين - نخف بسيارته ، والجمهير كتل متراصة كالوج خلف سيارته وأمامها وعن يمينها وشمالها فلا تكاد تحبو متراً أو تقطع ذراعاً إلا بصعوبة .

والبشر يعلو الوجوه ، « والهوسات » تدوي في الفضاء ، وزغاريد النساء تستقبله من شرفات المباني وأعالى السطوح .

ورأيت العراقيين يبكون فيصلا ، ومواكب البغداديين تملأ الشوارع والطرقات والساحات . يلطمون صدورهم على فيصل ، لأنهم فقدوه يوم تلاطمت المحن وتألب على العراق الخصوم ^(١) ولأن يفقده ضاعت آمال ، وتبددت جهود ، وخابت مساع ، وخيف على السفينة أن تتقاذفها الأمواج من كل مكان ، بعد أن فقدت ربانها القدير .

فكتب الزيات مقاله الأسبوعي في ١٠ أيلول سنة ١٩٣٣ بعد ثلاثة أيام من وفاة الملك فيصل ، فقد كانت وفاته في « برن » من الجمهورية السويسرية ليلة السابع من أيلول . قال الزيات من ذلك المقال :

« فلما نعاہ البرق الى الآفاق ، فزع الناس إلى الشك ، يدفعون به هول الخطب ، ويرجم بعضهم بالظنون ، يعللون به بغثة الحادث ، وتعذر على العقل أن يفهم الموت مقروناً الى فيصل « صقر قریش » ، وقد كان الى أمس يقطع بعزمه الجبار أجواء الشرق والغرب حاملاً في يمينه العراق ، وفي يسراه سورية ، وفي قلبه « دولة العرب » ، ثم انجلى الشك وانجابت الظنون ، فاذا العراق ، واذا سورية ، واذا العرب أمام الفاجعة التي روتت النفوس ، وضربت الأنفاس ، وقوضت حصون الرمل ...

لم يحزع العرب حين نعى الناعي اليهم فيصلاً على نفس كسائر النفوس تنفوس في لجج العدم ، وانما جزعوا هذا الجزع الهالع على آمال أمة ،

(١) كان العراق قد خرج لتوه من قمع ثورة الآشوريين ، وكانت المحافل السياسية الغربية وصحاتها قد تألبت على العراق ، وراحت تندد بنا ويحشنا ، وترميننا بالهمجية والتوحش ، وتتهمنا بالنعصب . وكان فيصل يشجب هذه المفتريات ، ويفند أقوال الصحافة . في هذا الظرف العصيب ، وقف القلب النابض ..

وجهود نهضة ، ومستقبل فكرة ، لأن ملك العراق كان مناط هذه
 الآمال ، ومبعث هذه الجهود ، وعدة هذا المستقبل ...

ومن العجب أن يكون مصدر هذا الجزع كثرة الزعماء الأكفاء ،
 لا قلتهم ، فإن هذه الكثرة كانت دائماً وبالأعلى وحدة العرب ،
 إذا لم يقم على رأسها زعيم يعتمد في قيادتها على سلطان الدين وشرف
 النسب ، وقد اجتمع الملك فيصل مع هاتين القوتين ، عقل كيس ، وخلق
 نبيل ، ونفس طموح ، وجاذبية قوية ، فلا جرم كان رجل الساعة لهذه
 الأمة الناهضة ، يجمع كلمتها حول رأيه ، ويوحد وجهتها وراء خطاه .

وقال :

« عرفت جلالة ملك العراق ، أثناء مقامي ببغداد ، معرفة وثوق
 وخبرة ، وكانت حال البلاد في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك
 النابغ ، فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ، ويحمل
 التبعية ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة عليه . والحكومة العراقية
 كانت يومئذ بادية البلى ممزقة الجوانب ، لا تستطيع بخروجها أن تستر
 العرش ، فالملك بحكم الوضع كان يستر الانكليز ، ولكن الوزارة بحكم
 الضعف كانت تكشفه ، فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في
 رأي المعارضة والشعب على الملك ، وكانت الحاشية بعبثها تنفض ظالمه
 على جدّ البلاط ووقاره شيئاً من العبث ، والشعب العراقي على اختلاف
 منازعه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد طموح ، لا يصبر على نقص ، ولا
 يغفل عن خطأ .. فقدّر في نفسك كيف كان مصير الملك لو كان غير
 فيصل ^(١) .

(١) كان العراقيون يتهمون فيصلاً أنه ياليء الانكليز ، ويضلع في ركبهم ، وينفذ سياستهم.
 وعمد الانكليز يتهم فيصلاً بأنه ياليء المعارضة ، ويدفعها المطالبة ، ويحرك الشعب عليهم ..

اضطلع الملك فيصل وحده بأعباء الملك والحكم والزعامة ، في هذه الحال المضطربة ، فكفكف بحكمته من شرّة الانتداب ، وخفف بحنكته من عسف الوزارة ، ولطف بحلمه من غضب الشعب ، وصرت من شؤون الدولة على قدر ما يسلم الرأي الحصيف من خبث الاستشارة ، وضعف الوزارة ، ثم سهل حجابيه لأمرء العشائر ورؤساء الطوائف وزعماء الأحزاب ، فاستل ما في صدورهم بالقول اللين والعتاب الهين والشخصية الجذابة ، حتى كان الرجل منهم يدخل قصره وهو عليه ، فلا يخرج منه إلا وهو له . ثم نظر إلى خارج العراق فرأى على حدوده دولاً يتنزى في صدورها حقد الماضي ، وطمع الحاضر . فزار تركيا وفرنسا وإيران ، فأحال عداها صداقة ، وجفأها مودة . ثم اجتمع بملك الحجاز ، وأوفد إلى امام اليمن ، فأحكم أواخيه المودة بينهما وبينه . ثم هداه تفكيره العملي المرت أن يعالج الانتداب البريطاني بالمصانعة والموادعة حتى انتهى به إلى نوع من الاستقلال يحفظ الكرامة ويعين على النهوض .

دخل الملك فيصل العراق دخول الإمام الحسين ، لا مال أمامه ولا جند خلفه ، ولكن الحسين جرى على سياسة عليّ فهلك ، وجرى فيصل على سياسة معاوية فملك . ثم اعتمد في تأثيل ملكه وإنهاض شعبه على الإخلاص العامل ، والجداّ النزيه ، وتحامل في ذلك على دمه وعصبه وروحه ، حتى ذهب فيصل شهيد الواجب ، كما ذهب الحسين شهيد الحق .

كان الملك فيصل ملكاً من طراز خاص ، ولعله كان أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم : كان ناصع الظرف ، جم التواضع ، رحب الأناة ، طاهر الموادعة ، زاهداً في أهبة الملك ، عازفاً عن مظاهر السلطان ، فلا يتخدج بتحية ، ولا يمشي في حرس ، ولا يتشدّد في حجاب .

وفي صباح أحد الأيام غدا على المدرسة المأمونية^(١) الابتدائية ، ففضى
ردحا من الزمن فيها ، ثم سجل اسمه في ثبت مدرسيها^(٢) .

« كان الملك فيصل في العراق ملك دولة ، ورئيس حكومة وزعيم
أمة . وهو في الاقطار العربية مؤسس نهضة وممثل فكرة ، ورسول
وحدة ، وداعية سلام ، ومعقد أمل . فإذا هفت النفوس جزعا لفقده ،
واستولى على العرب الوجوم والحيرة من بعده ، فإن في منطق الحوادث
وطبيعة الأمور ما يسوغ هذا الجزع ، ويعمل هذه الحيرة .

« وكان من أجمل مظاهر ديمقراطيته الأصلية ، أن تراه في
شارع الرشيد أو في طريق الصالحية ، يقود سيارته بيده ، ويشق
طريقه بنفسه ، دون ربيشة من خلفه ، ولا طليعة بين يديه ، فيسبقه أي
سابق ، ويزاحمه أي سائق ، وقد تبكر ذات صباح الى مدرستك ، أو
ديوانك ، فتراه في ذرور الشمس قد طلع عليك بوجهه المسنون ، وقده
السميري المشوق ، ورشاقته الرياضية البارة ، فيسلم عليك ، ويتحدث
إليك ، ثم يتعمد المكان ، ويعرف العمل ، ويودعك بابتسامته الرقيقة ،
وملاحظته الدقيقة .

دعا مرة مؤتمر المعلمين العراقيين ، إلى الشاي في حديقة قصره ، فكان
يجلس الى كل منضدة من المناضد الكثيرة جلسة يفاكه أهلها بحلو
الحديث ، وبنقاشهم في وجوه الاصلاح ، ثم خطبهم في شؤون التعليم
خطبة جامعة ، غنى في سياقها أن يكون معلما مع المعلمين يؤدي إلى الأمة

(١) كانت تشغل مبنى مدرسة الاتحاد والترقي وقد ازيل بناؤها واصبح ساحة لموقف
السيارات جنب مبنى ادارة اسالة الماء العامة .

هذا الواجب المقدس^(١) .

حكى الأستاذ الكبير ساطع الحصري أن وفد الأساتذة المصريين أخذهم العجب وأذهلتهم الدهشة للديمقراطية الملك فيصل يوم دعاهم إلى مأدبة الإفطار ، وكان الوفد الجامعي يرأسه أحمد أمين ويصحبه السنهوري والعبادي ، وظلوا أياماً يتحدثون عن ظرفه وتواضعه ورحابته صدره وسعة اطلاعه ، ويقارنون بين ما عندهم في بلاط مصر من الحجاب الكثيف ، والتعالي على الخاصة بلبه العامة ، وكان قد شهد هذا الإفطار الأستاذ ساطع والزيات وبعض أدباء بغداد .

الزيات بصحبة الملك علي

كان الأستاذ الزيات كثير الاصدقاء ، له من وقته الموسع ، وتخففه من واجبات البيت والعائلة ما يفسح له المجال لهذه الزيارات التي يقوم بها في أماسي الأيام وضحوات الجمعة ، فتراه في الصابونجية في زيارة الزهاوي ، وبصحبة الشاعر وبعبريته يغدو إلى ندوة الجمعة في بيت الدفترى ، ويغشى جريدة البلاد يقضي بعض الوقت مع مديرها رفائيل بطي الصحفي الأديب ، ويزور نادي المعلمين ويصحب الأستاذ مصطفى علي في زيارة الرصافي ، ويحضر في أصائل الأيام مجلس الملك علي بن الحسين الذي له دوق أدبي مرهف . فإذا عاد إلى غرفته في بيت شفيو ، سجل صوراً من تلك اللقاءات ، ورسم خطوطاً جلية من ملاحظهم بقلمه الفنان ، فيعرض قسماتهم بارزة ، وبصور صفاتهم واضحة ، من ذلك ما كتبه في الملك علي .

قال : -

« كان رضوان الله عليه - مثال الفطرة العربية النقية ، يقبل علي

(١) كان ذلك بعد مؤقو عام ، وكنت قد حضرت هذه المأدبة السخية ، واستمعت الى خطابه الارتجالي الذي ألهم نفوس المعلمين ووطنية ، وأشاع في نفوسهم الرضى عن حركتهم .

زائره بأنسه ، ويمكن جليسه من نفسه ، ويزيل الفوارق بين محدثه وبين شخصه ، حتى يصدر عنه الوارد عليه ، وفي ذهنه صورة من جلاله لا تحول ، وفي قلبه عاطفة من حبه لا تزول ، وفي نفسه أثر من ذاته لا يعفو .

لا يلقي في روعك حين تلقاه طموح الزعيم ، ولا جفاء القائد ، ولا دهاء السياسي ، ولا سورة الملك ، وإنما تجد في خلائقه فوحة المجد ، وتقرأ في ملامحه عنوان الطيبة ، وتعرف في حديثه لهجة السيادة ، وتذكر في نبرات صوته ولحظات عينه ولفظات ذهنه ، ذلك الروح القوي الذي أنبث في موات الوجود من بني هاشم .

وقارن بينه وبين أخيه فيصل فأعطى كل واحد منهما صورة صادقة . قال :

« حكم فيصل في شروق ملك عائد ، فكان عزمة لا تسعها قدرة ، وفكرة لا يحصرها أفق ، وطموحاً لا تحده غاية . ولأن علماً حكم في غروب ملك بائد ، فكان أمراً لا يمضيه سلاح ، وأملاً لا ينهضه جناح وصلاً لا تواتيه فرصة . ثم كان مصير الرجلين مصير 'خلقين مختلفين' ، خلق اتسع لخدع السياسة ، وشبه الحكم ، وأهواء النفوس .. وخلق انحصر بين حدود الشرف الموروث ، وسنن الدين المتبع ، وتقاليد العرب المحتومة . وكان قصره القوائم بالكرادة على الشاطئ الأيمن من دجلة بلاطاً للجلالة الحائرة بين الحجاز والعراق وسورية ، 'تقضى بين أيهاته الأمور الجسام ، وترف على أفئاته ، الآمال الباسمة' ، ولكن حياة بغداد الدافقة بالنعيم الفارقة في اللذة ، لم تستطع أن تنسي الملك الحزين عرشه الصخري في الوادي الجديد ، فكان لا يفتأ يحن إلى ملكه المفضوب حنيناً شعرياً صامتاً يذيب الكلى ، ويستوقد الجوانح ، إلا أن أثره كان لا يبين تحت سمة الملك إلا لمن دخل في أمره ووقف على سره .

« كنت كثيراً ما أقضي أصائل الأيام في حضرته ، وكان مفتي^(١) بغداد يومئذ لا ينقطع عن مجلسه . وكان للملك - رحمه الله - عطف عليّ منشوء فيما أظن حبه للأدب ، وميله إلى مصر ، وأنسه بالغريب . فهو يحب أن يناقني الحديث ، ولكن المفتي سألني الله رجل يرى من حقه أن يقول في كل شيء ، وأن يجيب عن كل شيء ، وهو لا ينطق إلا بببيت من الشعر أو أثر من الحديث أو آية من القرآن . أما ارتباط ما يقول بما يسمع ، فذلك ما كنا نعجز دائماً عن فهمه . كان الملك يبدأ الكلام ، فلا يكاد يمضي فيه حتى يقطعه المفتي بحكاية عرضية ، أو مسألة فقهية . فأرفع طرفي إلى الملك لعلني أرى عزة الملك تشع في عينيه ، أو تثور في وجهه ، فلا أجده إلا باسمًا للمتكلم ، صاغياً كالمتعلم ، هادئاً كالشماع الشاحب في شفق الخريف . على أنه كان يصحح ما يقمض الشيخ من الشعر ، وينتف من الأمثال ، ويتخذ ذلك مادة للحديث ، وموضوعاً للمشاركة فيسفر قوله عن ذوقٍ صافٍ وبصيرة نافذة . »

رستم حيدر :

وكتب في رستم حيدر ، الذي كان من أساطين الفكر ودهاقين السياسة في العراق ، ومن رجال الجهد والعمل . رافق فيصل الأول يوم تولى أمر العراق ، ودبّر مآلتيه ، ووزر في الوزارات العراقية أغلبها .

(١) المفتي المقصود الشيخ يوسف العطا كبير فقهاء بغداد وخبر من كان يدرس المجلة في كلية الحقوق ، أصابه في أيامه الأخيرة مرض عقل أسانه ، كان يجلس إلى الشيخ إبراهيم الراوي كل أمسية يقرأ له على ماء فيبيل به فمه ، فإذا صادف أن حضرت طلب إلي أن أقرأ له في كتاب أو مجلة أو ديوان شعر . وكان ديوان الراوي يزدهم بالزائرين رحمهما الله ورحم أيامهما ، كانت مطمئنة والناس فيها في بلهنية من العيش الهني .

وكان يتصرف عن فكر ثاقب ، ويعمل بحزم دائب ، ولكن السياسة مع النفوذ الأجنبي غول ، ومع الشعب الناشئ خطر على صاحبها ، ومع الحاشية الطامعة صاحبها يقف على فم البركان . فراح رسم شخصية الجهل والطمع والتعصب . وصفه الزيات بحذر ، وعرض جملة خبره باقتضاب ، فقال :

« رحم الله رستم حيدر ، لقد كان وحده فصلاً في تاريخ العراق الحديث ، وإذا كان في بعض حواشي الملوك رجال للهو والزهو ، وآخرون للتجسس والتمويه ، فإن رستم حيدر كان في حاشية الملك فيصل رجل الجد والعمل . ولم أرَ في المهاجرين إلى بغداد مع صقر قريش أعلم ولا أفهم من رستم حيدر وساطع الحصري . وقد أبلى الرجلان في اذكاء النهضة العراقية البلاء الحسن ، هذا في ميدان الثقافة ، وذلك في ميدان السياسة . وكان بينهما مشابه من جهات كثيرة ، فكلاهما مستقل الفكر له في كل مسألة رأي ، وعلى كل رأي اعتراض ، وكلاهما متقن للعمل يتقضى أطرافه ، ويستبطن دخائله ، وكلاهما صلب الرأي ، يعييك أن يتابعك على ما تريد . وإذا كان بين الرجلين اختلاف ، فهو الاختلاف الطبيعي بين رجل السياسة الذي يتأثر بالأحوال والرجال والحوادث ، وبين رجل العلم الذي لا يستخدم غير المنطق ، ولا يتوخى غير الحقيقة .

كان المرحوم رستم حيدر ، ظاهر الوقار ، دائم الانقباض ، كثير الصمت ، خافض الصوت ، هادئ الحركة ، ولكن هدوءه كهدوء الماء العميق ، تضطرب في جوانبه الأفكار والأسرار ، وهو ساكن السطح بارد الأديم .

وكان منذ اشتغاله بشؤون العراق مستشار المغفور له الملك فيصل

في سياسته الداخلية والخارجية ، لبصره بعلوم السياسة والمال ، وعلمه بدخائل الأمور ومخارج الحيل . فكانت أعمال العاهل العظيم تجد مصاديقها غالباً في أقوال المستشار البقظ .

كان من سياسة رستم الاعتماد بعد « التاميز » على الفرات قبل دجلة ، لأن الفرات شيعي المذهب ، على ضفافه الخصيبة تنزل القبائل البدوية القوية ، وفي تقويته بالشيعية حيطة من نجد ومودة لإيراب . وكان يشيح بوجهه عن مصر لأن هواها في ثورة الحسين على الترك كان مع الخلافة ، ولأن اشتغال طلبتها بالسياسة كان في رأيه مرضاً مخطرأ لا ينبغي أن تسري عدواه إلى العراق . ولعله السياسي العراقي الوحيد الذي يهتم بأحوال مصر ولا يتصل برجال مصر . وكان من رأيه توسيع التعليم الأولي والمهني ، وتضييق التعليم الثانوي ، وحصر التعليم العالي في مدرسة لتخريج الموظفين ورجال الإدارة ، خشاة أن يكثر المتعلمون المتعطلون فيكونوا مصدراً للشغب والإضراب والفوضى . وفي ذلك العهد الذي أرجع بذاكرتي اليه أغلقت المدارس العالية جماء ، إلا مدرسة الطب . وكان من أشد المعارضين لهذه السياسة التعليمية الأستاذ ساطع الحصري ، لأنه كان يحاول أن ينشئ الثقافة العامة على قواعد العلم الخالص ، دون أن يحفل بأحوال الطوائف وأغراض السياسة ، ولذلك نحتي حينئذ عن سياسة المعارف ..

وكان من خطة المرحوم رستم أن قطل الأراضي الزراعية ملكاً للحكومة ، لتضمن بمنح الزمة ، ومنعها طاعة القبائل وتأديب العصاة . ومتى تحضرت العشائر ، وتوحد القانون ، وعمت المدنية الاجتماعية ، أمكن أن توزع ملكية الارض على نظام عادل .

لقد كان رستم حيدر عنيبدأ في رأيه ، صليماً في خطته .

والعناد والصلابة صفتان لا تحسنان فيمن يتولى أمر العراق .

دخلت عليه ذات يوم من عام ١٩٢٢ وهو وزير مالية ، أسأله أن يرد على صديقي حسن السهيل أمير بني تميم ما أخذته الحكومة من أراضيه الملتزمة ، وهو يبلغ خمسة عشر ألف فدان ، فأجلسني إلى جانبه من يسار المكتب الذي 'سفك عليه دمه من أيام ، ثم أخذ يقنعني بالحجج والشواهد أن الحكومة محقة وأن الشيخ مبطل ، ثم عزا المصادرة إلى أمور تتعلق كلها بسلامة العشيرة ، وإقامة العدل ، ولم ير نفسه في حاجة إلى ذكر السبب الأول ، وهو أن سيد تميم عضو قوي في حزب المعارضة . فأدهشتني جرأة الوزير ، وأعجبني لباقة ، وعجبت كيف يصبر على مناوأة الشيخ ، وفي سبيل خمسة عشر ألف فدان تحشى الخصومة ، ولكنه نجا من مناوأة الأمير ، لأن الأمير طالب بمجد ، ولم ينج من مناوأة الموظف ، لأن الموظف طالب قوت .

قلت لنفسي :

بهذا العنوان كتب الزيات عن رئيس من رؤوس العراق (أحسبه طه الهاشمي) يحدث نفسه عن أمر الناس في عصرنا ، ويمعجب من أثرهم وأنانيتهم ، وأنهم أصبحوا لا يكاد أحدهم يعطف على آخر إلا للطمع في ماله ، أو الخوف من سلطانه ، أو الرغبة في نفوذه . أما تعاطف الجنس للجنس ، وتراحم الرحم للقرابة ، وابتهاج النفس لعمل الخير ، واهتزازها بأنس الصديق ، فقد أصبحت من الصفات الأثرية . والحقيقة أن الناس هم الناس من عهد آدم إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا تبدل لخلق الله . المصلحة هي التي تحركهم ، والرغبة والرغبة هما اللتان تسيطران على تصرفات الانسان ، إلا في ما ندر ، ولا حكم على النادر .

والشكوى من بني آدم قديمة : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك
الدماء ؟) الناس مع الزمان ، يقبلون متى أقبل على أحدهم ، ويدبرون
متى أدبر عنه . جاء في مقالته :

« كان ذلك والزمان كـَلْبٍ يحري وراء سيده ، ما دام الرغبة
في يده ، أما اليوم فالزمان حر مفكر لا يتبع إلا المبدأ ولا يطيع
إلا الضمير .

ولكن الواقع وا أسفاه علمنا أن الزمان لا يزال كَلْباً ، وأن
المال لا يزال ربا ، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة .

لي صديق من رؤوس العراق المرفوعة بالفضل والنبيل والكفاية ، كان
وهو في سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأي والهوى والحاجة ، فلما
نكبت في نفسه وأهله السياسة العشواء الجموح ، تجرد كالسيف ، وتفرد
كالأسد ، وأصبح فإذا الوجوه أقفاء ، والأنصار أعداء ، والأحياء في
دنياه موتى ، فلا رأس ينحني ، ولا لسان يحيي ، ولا يد تصافح .
وظل وحده ، يعالج مرارة الحزن والحerman والغربة ، حتى صحا الدهر
من غفوته ، ونهض الحظ من كبوته ، فعاد إلى الوزارة ، وعاد الناس
إلى الزيارة ، وقال الوجه العبوس وقال الوجه الذي عبس وأشاح ،
واللسان الذي ذم ونم : والله يا مولانا لا يعدل حزننا لغيبك إلا
فرحنا بأوبتك ، ثم انعكست الصفات في الصحف ، فصارت الخيانة
أمانة ، والبلادة زكاة ، والعقوبة شهادة ،

الملك غازي :

وكتب في مقتل الملك غازي كلمته الافتتاحية الأسبوعية لمجلة
الرسالة وهي تشف عن ألم صادق ، ومواساة محزون ، لما كان ينطوي

عليه قلبه من الحب للعراق ولكل من يحب العراق . وغازي كان محبوب العراق ، وهو بعد هذا وذاك في فوران الصبا وزهرة العمر ، ربي تربية وطنية ، ونشئة تنشئة بغدادية ، وهذب تهذيباً اسلامياً عربياً ، وأشرب قلبه بغض الاستعمار . لذلك كان مهوى قلوب العراقيين ، ومعقد رجاء العرب . كان طموحه هو الذي أوردته موارد الحتف ، وإذاعته الخاصة التي يبثها بنفسه هي التي أدخلت حبه إلى كل بيت . فحين نماه الناعي إلى الشعب العراقي كانت الفجیعة وكأنها قد حلت في قلب كل أم وأب ، وكأن الفقيد أحد أفرادها ، وقامت المظاهرات في كل ربوع العراق ، يندبون - غازی - ويككون الصديق الذي بيت اغنياله بليل ، وهاجم المتظاهرون دوائر الاستعمار ، واتهموا الانكليز وعملاءه بتبدير مقتله ، ولم يصدقوا أنه مات قضاء وقدرأً باصطدام سيارته بعمود البرق ، وأختفى العبد الذي كان خلفه ، ولم يعثر له على خبر ، واتهموا عبد الآله بالمؤامرة .

قال الزيات :

« عرفت خليفة فيصل وهو ولي عهده ، ولم أنل شرف لقائه وهو ملك ، لأنني تركت العراق وأبوه لا يزال على عرش الرشيد ، يدبر الامر بذلك. « علي » ودهاء معاوية . وكانت جلسائنا الليلية في حديقة البلاط المزهرة المقمرة ، حيناً في حضرة الملك وحيناً في حضرة خاله ، تكشف لي قليلاً قليلاً عن مصائر هذه النفس الرغیبة الطیعة التي نبتت في هجير مكة ، وأزهرت في ظلال بغداد ، فكنت لا أنفكُ منها أمام طبيعتين : طبيعة تتأثر بحاشيته فتسامح وتسامر وتمرح ، وطبيعة تتأثر بأبيه فتصعب وتسمو وتطمح ، ولكن المقرر في الاذهان كان أن الشبل سينتهي بالضرورة إلى طبيعة الأسد مهما يؤثر فيه طبع الناس وينل منه قفص الحديقة .

قلّ في الشباب من كان كغازي في سماحة نفسه ، وسماحة خلقه ،
ونبل شعوره ، وسمو تواضعه ، وظرف شمائله . وتلك هي الصفات
الهاشمية التي تنتقل في بني الحسين بالإرث ، وتقوى إذا ساعدتها القدوة ،
وساعدتها البيئة . ولكن ما ورثه هو عن أبيه - صقر قريش - من الجناح
الرفيف ، والبصر النفاذ ، واللب الحصيف ، كان يتقظ رويداً رويداً
مع الزمن والخبرة . فلم يكن بعد قد وثقت آراؤه للاضطلاع بالعبء
الفادح الذي ألقي على ظهره فجأة . والعبء الذي كان يحمله فيصل من
أمور العراق ، هو العبء الذي قسمه الدستور على سلطات الدولة الثلاث ،
فجميعه هو على عاتقه . من أجل ذلك لم يضع غازي يده من سياسة
العراق العليا موضع يد أبيه للتعديل والموازنة ، وإنما تركها في أيدي
الزعماء تجري سفينتها على مشيئة الريح ، تضطرب حين تشور ، وتستقر
حين تسكن .

من أجل ذلك امتحن الله الفراتين بالقوة الغشوم ، فحكّم الجيش ،
واستبد الطيش^(١) ، واضطرب العيش ، وسطت الأيدي المجرمة على عباقره
الأمة . ومن أجل ذلك لا نتوقع لسياسة العراق بعد غازي ما توقعه لها
الناس بعد فيصل . والغالب في الظن أنها ستجري في عهد فيصل الثاني

(١) يشير الزيات الى انقلاب بكر صديقي ، ومما أعقبه من مقتل جعفر العسكري وزير
الدفاع الذي كان يسمى أبا الجيش وله مكانة في جميع الأوساط العراقية والأجنبية ، لما يتمنع به
من وطنية ، وطيبة وإنسانية ، وحمية لعمل الخير ، ولو أنه بقي في بيته أو في مقر الدفاع لما
أصابه مكروه ، وربما استوزر في وزارة حكمة سليمان لما يربط بينه وبين بكر صديقي من وشائج
وصلات ، ولما كان بينه وبين حكمة من صداقة ، ولكن قضاء الله غلب ... وأراد بعباقره الأمة
- يسن الهاشمي ورشيد عالي ونوري السعيد وطه الهاشمي وأمثالهم وما أعقب ذلك من
للاعتمادات والاعتقالات . وأشدّها خطراً هو زج الجيش في السياسة لأول مرة ، فراحت البلاد
تتخبّط من سيء الى أسوأ ، وتسابق المغامرون والطامعون باسم الشعب ، والشعب على أيديهم يشقى
ويلقى الدواهي عقب كل انقلاب ..

كما كانت تجري في عهد فيصل الأول .

إن مصرع غازي على هذه الصورة الأليمة ، فاجعة تدمي العيون ، وترمض الجوانح . وإن العالم العربي كله يشاطر العراقي الحزين أساه على سيد شبابه ومناط أمه ، ولكن الدواهي الشكر صدمات تهز الشعور ، وتوقظ الفطنة . فتنبه على قدر ما تذهل ، وتوجه على أثر ما تضل . والشعب العراقي من الشعوب الكريمة الحرة التي تصقلها الخطوب ، وتلهيها الأحداث ، فتقف بنفطرتها السليمة أمام الخطر هوى واحداً ، ورأياً جليماً ، وعزيمة صادقة ؛ وسيرى الذين يتحيلون ويتقولون أن ارادته الصارمة الحازمة ستثبت لدواعي الشقاق ونواجيم البغي ، وستثبت أن عصر فيصل الثاني سيكون عصره الذهبي^(١) ، فيشتد بنيانـه ، ويمتد سلطانه ، ويتسع عمرانه ، وتهب من جوف الهلال الخصيب عبقریات غفت في أحضان الخلود ، ولكنها لم تمت .

(١) لم يشهد العراق دوراً مضطرباً كدور فيصل وهو طفل غير مسؤول ، وانما التبعة نالت على رصيه عبد الاله ورؤساء الوزارات المتعاقبة ، والتطاحن الحزبي وسوء الإدارة .

ساس البلاد رجل حقوق لدود لشم تاقم ، هو الوصي وولي العهد ، فصرف أمور البلاد وفق شهوته ونزواته ، وجر العراق الى مصائب وانقفاضات وانقسامات ، وانقسم الساسة القدامى الذين عملوا مع فيصل الأول وغازي ، وراح يكيد بعضهم بعضاً ، وتحزب الناس ، واشتدت الطائفية ، وتقسمت الى عناصر ، بل والى مدن ، واصطرع الشعب ، ونسوا الاستعمار وكيدهم والصهيونية واستفحال أمرها ، وابتمد العراق بسبب هذه السياسة عن شقيقاته ، بل راح يحاهر مصر ورئيسها العدم ، ويفري الاستعمار به بدلاً من مد يد العون له ، وهو الرائد القائد الذي حرر مصر من الامبريالية وأمم القننة . وعاش العراق ساخطاً متبرماً يتطلع الى ثورة عارمة تبديل أوضاعه وتقلب مفاهيم أولئك الساسة ويتخاصص العراق من عبد الاله وزمرته ، فكانت ذلك صبيحة الرابع عشر من تموز ، فقوبلت بالأفراح ، وابتهج الشعب بالقادة المحررين ، وأمل أن تكون حداً فاصلاً للمآسي والأحزان ، وفاتحة خير لعموم الشعب ، ولكن وأسفاه فقد رافقها الانحراف من ختام الشهرين الأولين لحياتها، وشهدنا انقسامات ومصائب واعتقالات ومظالم وفتناً سوداً راح الناس يترحمون معها على الماضي ، وما زال الحال ، ندعو الله أن يولي أخبارنا، فاذا دعاؤنا يرد علينا فيتسلط أشرارنا وصدق من قال : « كيفما تكونوا يول عليكم » .

شباب العراق في مصر :

تحت هذا العنوان كتب الزيات حين زار وفد كلية الحقوق مصر في ٣ مارس ١٩٣٦ جاء فيه :

« قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نبت على العروبة ، فقطعت الأسباب الموصولة ، وأيست الأرحام الندية : تعالوا فانظروا كيف بشيت بالعراق بشاشة الألفة ، ورفست لبنيه رفيف القرابة ، وأشبلت عليهم إشبال الأمومة ، قل لهم : تعالوا واسألوا شباب الفراتين : هل كانوا على ضفاف النيل في أرض غير أرضهم ، وبين قوم غير قومهم ، وفي بيئة غير بيئتهم ؟ » .

لقد كان أقبالهم على محطة القاهرة كأقبال الربيع ، واستقبالهم فيها كاستقبالهم العافية . نزلوا من القطار على أكتاف البهاليل من شباب النيل ، وحلوا في قلوب الميامين من رجال الوادي ، وتلاقت العواطف الضاممة على وردي الإخاء والمودة . ودخل الطلاب العراقيون في غمار الألوف المتهلة ، فتجاذبت الدماء ، وتمازجت القلوب ، وتعاطفت الذكريات ، وتجاوبت الأماني ، وترجمت اللغة ، ثم كانوا طوال الأسبوع المنصرم ، غبطة القاهرة ، وبهجة الأندية ، وحديث الصحف ..

وقال :

« أزيلوا قائم الحدود ، وجددوا دارس الطريق ، تتلاق الوجوه ، وتتعارف الأخوة . واعملوا ما يعمل في العراق رسول الوحدة (يسن^(١)) »

(١) يسن الهانمي : كان رئيس الوزارة العراقية يوم زار الوفد الحقوقي مصر ، وكان من أبرز زعماء العراق صدقاً وكفاية .

وفي مصر أمثال الوزير محمد علي^(١) والزعيم « طلعت حرب » ، أزيلوا الحدود تجددوا الاتحاد العربي جارفاً كدعوة « محمد » ، سريعاً كفتوح أمية ، خصيباً كحضارة العباس . هذه هي مصر الصحيحة يا شباب الرافدين ، لا يزال دينها دينكم ، ولغتها لغتكم ، وهواها هواكم . إنها لم تترك ولم تروها لأنها في جوف الخوت ، وهذا انكم تسمعون حشرجتها الأليمة في حلقة ، وستجيش بين معدته وأضراره جيشان السم الزعاف حتى يلفظها حية سليمة « كيونس » .. حينئذ تتجه « ابنة الشمس » إلى مطلع الشمس ، وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان مجدهم بالأمس ..

« لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات التاريخية المقدسة .. صافحونا بالأيدي ، وخاطبونا بالألسن ، وسمعونا بالآذان ، وزالت الفوارق العارضة ، وانجابت الحجب الكثيفة ، واستبان للناس أن الخيال جان على الحقيقة ، وأن السماع كاذب على العيان ، وأن الوحدة المستحيلة أمر من الواقع . »

وقال :

« إن تاريخ الجدود لينبجس فواراً حاراً في صحون المساجد الجامعة . هل تذكرون ثورة بغداد في جامع الحيدرخانة ؟ وهل رأيتم غضبة دمشق في الجامع الأموي ؟ هل سمعتم صرخة القدس في الجامع الأقصى ؟ هل علمتم وثبة القاهرة في الجامع الأزهر ؟ إن لذلك معنى عجباً لا يند عن خاطر ، ولا يلتوي على ذهن . ذلك أن المنارة التي يذكر عليها اسم الله لا تزال هي المكان الذي يرتفع فيه صوت الحرية ، وأن المحراب الذي يقوم فيه الدين لا يزال هو الركن الذي يأوي إليه الحق ، وأن

(١) محمد علي : يريد به محمد علي علوية باشا، الذي يعد من لوائل الوزراء العاملين لتجميع كلمة الأمة العربية .

الاسلام الذي ألتف شتيت البدو في الاول هو النظام الذي يجمع شمل العرب في الآخر .

نعمي الزهاوي :

« نعمي البرق شاعر العراق الزهاوي ، والمصريون والعراقيون في حفلة اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصاب في نفوس الفريقين واحداً لا يختلف ، وقام كبير الادباء « طه حسين » فأبتن كبير الشعراء بكلمة تلقاها الإخوان بمأظفة وشعور مشترك ؛ لان الزهاوي كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد اصداؤها الموقظة في ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط إلهية غير منظورة ، ولولاها لما تهيأ للعراق هذه الزورة . وبهذه الزورة وأمثالها تتعارف وتتآلف وتتحد . فتعالوا يا أخلاف المجد العتيق ، وأسلاف المجد الوليد ، نتعاون على دفع الاذى عن العزة المهانة ، تعالوا نقر في سمع الزمان أن أمة الرسالة تريد أن تؤدي الامانة . »

هكذا كانت مقالات الزيات تعبر عن إيمانه بالعروبة ، وتعرّب عن عقيدته في الوحدة وضرورة التمسك بها ، من أجل تحرير أرض العروبة من يد الغاصب الدخيل . وظل قلم الزيات يواصل الكتابة عن أحداث العراق كلما عراها حادث ، أو حلّ بها مصاب . كتب في حادثة الملك غازي كما رأينا ، وفي الزهاوي والرصافي ، وأبتنهما أجمل [تأبين ، لولا جملة انحراف بها قلمه وهو يكتب كلمته في الرصافي ، أسخطت أصدقاء الرصافي على أساس « اذكروا محاسن موتاكم » ولا أحسبه يريد إسقاط أحد أو يريد أن يبغض الرصافي منزلته أو يحط من قدره ، وهو الذي يقول فيه :

« كان الرصافي لسان العراق الصادق ينقل عن شعوره ، ويترجم عن أمانيه ، ويجدو ركبته المجاهد في سبيل استقلاله وعزته بالحداء الحماسي للمطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب . وظل هو والزهاوي ، وشوقي وحافظ ومطران ، حقبة من الدهر يؤلفون الاوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربي ، ولكل وتر درجته في الرنين والجهارة والاثّر . »

أغاخان والرصافي :

وكتب مقارنة بين الرصافي الشاعر العظيم يموت على فراش البؤس والفاقة وأغا خان الذي يزنه أتباعه المؤمنون كل عام بالماس تارة ، وبالذهب أخرى .. قال :

« في الاسبوع الذي كان الرصافي ، شاعر العربية ، يعالج فيه آلام المرض ، ويكابد غصص الموت على فراش القلق ، في المضجع الموحش ، وكل ما يملكه في حياته الطويلة العريضة ، أسماؤه البدوية ، وأشعاره المخطوطة ، في ذلك الاسبوع نفسه كان أغا خان زعيم الاسماعيلية يقعد في كفة الميزان المأثور المشهور ، وبإزائه في الكفة الاولى مئة كيل من سبائك الذهب المصفى ، هي مثقال الزعيم العظيم في هذا العام . خرج له أتباعه في الهند ، وفي غير الهند ، ونفوسهم راضية ، وقلوبهم مطمئنة . إبي والله مئة كيل من الابريز الخالص ، هي ضريبة العقيدة ، يقدمها للمؤمنون الخبثون كل سنة الى أميرهم المقدس ، ورقابهم من الجلالة خواضع ، وعبودهم من المهابة نواكس ، فيتعطف صاحب السمو بأخذها ، ليظهرهم بها ؟ ويزكيهم لأجلها ... »

وكان الرصافي كذلك أتباع يؤمنون بأدبه ، ويتصلون في الحياة



شاعر العرب الأكبر
المرحوم معروف الرصافي

الروحية بسببه ، فما بالهم تركوه يكتب في وصيته الأخيرة هذه الفقرة التي تستدر الشؤون ، وترمض الجوانح ؟

والفقرة التي أشار إليها الزيات هي : (كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية ، وإنما قصدت به خدمة المجتمع الذي عشت فيه والقوم الذين أنا بينهم ، لذلك لم أوفق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة . لا أملك سوى فرائي الذي أنام فيه وثيابي التي ألبسها وكل ما عدا ذلك من الاثاث الذي في مسكني ليس لي بل هو مال أهله الذين يساكنوني) .

وقال : -

ولو شاء الرصافي أن يهادن السلطان ، ويمالئ الحكومة ، وينافق الشعب ، لعاش في أرغد العيش ، وبلغ أرقى المناصب ، ولكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته (١) .

(١) كثر كلام المتأدبين وكررته الصحافة العربية عن البؤس الذي كان يعانيه الرصافي ولا سيما في أيامه الأخيرة ، وراحوا يلومون الحكومة ، ويعنفون في النقد والتغريب ، لاهمالها الشاعر الذي أفنى حياته في سبيل العروبة والعراق ، والسياسة يد طويلة في إشاعة هذه الانتقادات واختلاق جو التشويش ..

الحقيقة : أن الموارد التي كانت تتدفق على بيت الرصافي تكفي عائلة كبيرة ، ولكنها تقع في يد خادمه عبد صالح ، فيبيدها ويحتجنها لنفسه ، كان له تقاعد بسيط يساوي ١٤ ديناراً ، وخصص له الحسن العربي الكبير مظهر الشاوي ٥٠ ديناراً يرسلها إليه كل شهر مدى حياته ، وزودته مديرية اخصار التبغ بإجازة تدر على من يحسن تصريفها مع ما يخصص معها من الورق والسكرير نحواً من مئة دينار على أقل تقدير ، وكان محمود السنوي ومراد سليمان واخوه حكمة سليمان يتعمدون بالحليب والنبن والرز ، والحكومة تحضه من حين لآخر بالمساعدات .

وقال واصفا حياة الرصافي :

« قلت لصاحبي - الأستاذ مصطفى علي - ذات ليلة من ليالي في بغداد : أريد أن أزور الرصافي ، فقد زارني مراراً ولم أزره ، فقال : أتشجع على أن تدخل حي البغايا ؟ فقلت له : وما صلة هذا بذلك ؟ قال : إنه يسكن بينهم ، وقد تزوره واحدة أو أكثر منهم . فقلت له : هلتم ، فما يسع زواره من العذر يسعنا . ودخلنا البيت ، فإذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف ، لا أثاث ولا نظام ، ولا حرمة . وكلمة الشاعر هنا بدل الأديب تذكرك على أن ليس بالمنزل مكتب ولا مكتبة ، فقد كان الرجل لا يقرأ ، وإنما يتكلم على شدة ذكائه ، وحده فهمه ، ويكتفي بما حصل في شبابه من أدبه وعلمه .

كان في الردهة قوم يأكلون ويشربون ، وفي حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون ، وكان الرصافي يتصدر هؤلاء : في ينساه كأس وفي يسراه ورق . فلما رأي ، فضّ اللعب ، وأقبل بأنسه عليّ ، ثم أخذ يشرب ، ويتحدث باللغة العارية عن الحقائق العارية ، في غير اكتراث ولا تحفظ . ويظلم الرصافي من يقيد عليه في مثل هذه الحال . ولكن نداماه يروون شعوه ، أو يذيعون حديثه ، فيبلغ صاحب الملك فيغضب ، أو صاحب الحكم فيعجب ، أو صاحب الدين فيصخب ، أو صاحب الخلق فيثور . كل أولئك يعادون الرصافي ، ولكنهم يهابونه لشخصيته ، ويحترمونه لعبقريته ، ويتربصون به سوء المصير .

هذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم . أما عقيدته ، فالأمر فيها لله ، لا للناس . وأما شاعريته ، فالحكم عليها للنقاد ، لا للمؤرخ ...

واستطرد قائلا :

« ستقول إن الزعيم اغا خان كذلك صريح حر .. وإن صراحته

السافرة وحريرته الطليقة لم تبغيها عليه في قومه ، ولم تجر الى الكلام في صلاته وصومه .. والجواب : أن اتباع الزعيم الديني بصورونه في نفوسهم بصورة العقيدة التي يدينون بها ، ويجعلون هيكله المادي رمزاً لهذه الصورة ، ولهذا الرمز ظاهر يراه الأوزاع ، وباطن يستأثر بعلمه الاتباع . فهم يقوّمون ما يبصرون من زيفه ، ويؤولون ما يسمعون من باطله ، ويسجلون على عمله المريب ، ما يسببه الصوفيون من القداسة على الطبل والدف ، والناي والصنج . هذه الآلات في أيديهم غيرها في أيدي القيان والمجتان : وهي في نظر الناس لا تختلف في شيء عنها . قل إنها الجهالة ، أو السذاجة ، أو البلاهة ، فلن يقدح ما تقول في الحقيقة ، ولن يغير من الواقع .

أما أتباع الزعيم الأدبي ، فانهم يتخذون صورته من فنه وروحه ، فلصورته في كل ذهن شكل مختلف ، وفي كل قلب أثر خاص ^(١) .

وطبيعة هذه الصورة أو تلك الصور ، مشتقة من طبيعة الفن ، تتضح تارة وتختفي حيناً وتلوح حيناً ، على حسب استعداد النفوس لتقبل الجمال الفني حالاً على حال ووقتاً بعد وقت ، لذلك كانت عقيدة هؤلاء الاتباع في زعمهم كالعرض المنفك تزول ثم تؤول ، فاذا زالت نسوه كما ينسون السرور والحزن واللذة . وإذا آلت سمعوه ، كما يسمعون البلبل على فنن الدوحة ، يطرّبون لشده ، ويعجبون بريشه ، ثم لا يعنهم بعد ذلك أن يجد الحب والعش ، أم يجد الفخ والققص ؟ وكذلك

(١) سألت الصديق الكريم مصطفى علي عن زيارة الزيات الرصافي ، فقال : وعدني ان يلتقاني في نادي المعلمين ، وكان بطل على شارع الرشيد قرب سوق الصفارين ، فصحبته الى دار الرصافي في (كوك نظر) . وكان الرصافي على علم من زيارتنا له ، فرحب بالزيات وانس بزيارته ، وشاركنا في امره .

شأن أصحاب السلطان ، وأرباب الحكم مع رجال الأدب الذين يقتبسون من عقولهم النور إذا أظلمت الخطوب ، ويستمدون من نفوسهم اللهب إذا خمدت العزائم ، حتى إذا استوثق لهم الأمر ، وتنازعوا الفار ، وتقاسموا الفياء ، وأنكروا ما بذل الأدباء وقالوا بلهجة الساخر البطرة وماذا صنع هؤلاء ؟ لقد قالوا وإن الكلام طبع ، وكتبوا وإن المداد رخيص ، ذلك أن أكثر عشاق الأدب مفاليك لا يملكون لأربابه إلا الدعاء في الحياة ، وإلا الرثاء في الموت . وإذا كان لدى بعضهم فضل من القوت ، لم يجد في نفسه من سلطان العقيدة ما يحمله على المواساة به . ذلك هو الفرق بين العقيدة الأدبية والعقيدة الدينية . فالعقيدة الأدبية سلبية لا تتجاوز الإعجاب بالكلام والإنفاق من الكلام ، فإذا وجدت من يبذل في سبيلها المال ، كان ذلك قطعاً للسان الهاجي ، أو شراءً لضمير المادح ، أو تزيفاً لصور الحق . وليس في مثل هذا البذل كسب للأدب أو نفع للأديب .

حظك يا معروف هو حظ الأديب منذ كان في الناس أدباء وفي الأرض أدب . يموت أمثالك شرقاً بالبؤس ، كما يموت أمثال أغاخان غرقاً في النعمة ، فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك (الالوسي) من رسوخ قدمك في الدين ، وعلو منزلتك في التصوف . إذن لخلفته في الزعامة الدينية ، وبلغت في « طريقك » ما بلغ أغاخان في الدنيا ، ونلت من صوفيتك ما نال معروف الكرخي في الآخرة ..

رسالة :

وهذه الرسالة جاءت من آنسة عراقية مفتونة بالأدب ، مشوقة لما يكتبه الزيات . وأرسلت مع الرسالة صورتها ، وكنت اليه معتذرة

لمفاتهايتها اياه بالكتابة والإهداء من غير تعارف سابق ، وفي ذلك خروج على العرف لصدوره من فتاة . قال :

« يحلو لي أن أهرب أحياناً من زمني الحاضر لإثقاله ، أو إملاله ، فأرجع إلى ذكرياتي أجتر منها ما ألدّ ، أو إلى مذكراتي أقرأ منها ما أحب .

وفي هذه الساعة التي أكتب فيها للرسالة شعرت بضيق في الصدر والفكر ، فألقيت بالقلم ، وقلت لنفسي : دعي الكتابة اليوم ، وتعالى نتفرج من هذا الهم برجمة إلى دنيا الماضي ، فلعل في أصدائها الباقية ما يؤنس هذه الوحشة . وتذكرت أن شهر يناير « كانون الثاني » قد عودني الجميل فيما مضى من عمري ، فقد سجلت فيه أكثر ضحكات القلب ، وحسي منها ميلاد ولدَيّ : « رجاء » والرسالة .

فتحت مذكراتي عن صفحات هذا الشهر ، فوجدتني قد كتبت في يومه العاشر من عام ١٩٥٠ هذه السطور :

« ألقى البريد الجوي إليّ في صباح هذا اليوم غلافاً من العراق ، على ورقه طابع الدوق ، وعلى خطه سمة الظرف ، فلما فضضته وجدت فيها رسالة وصورة . قرأت الرسالة والامضاء ، ثم تأملت الصورة والاهداء ، فاذا هما لأنسة من أوانس^(١) بغداد المثقفات قد أولعت

(١) هي مليحة اسحق: فتاة يهودية معجبة بجمالها وشبابها وحوار عينيها وقامتها الفارعة وامتلأ جسمها الغض . هويت الالاب فراحت تتعرف على الادباء وتبادئهم باهداء صورتها وتدعوم الى بيتها إن رأت منهم استجابة . وهي مليحة كاسحها ، خفيفة الروح ، جذابة ، حلوة الحديث .

بالادب ، وأغرمت بأهله . ثم عدت أقرأ ، وعدت أتأمل ، وطال تردد
البصر والفؤاد بين الصورة وهي رسالة الجسم الجميل ، وبين الرسالة وهي
صورة الروح النبيل ، حتى غاب حسي في سكرة من سكرات
الاحلام .

ترامت لي في خلالها أطيايف من تعاجيب الهوى والشباب ، تتراقص
نشوى في أزقة « الوزيرية » و « رأس القرية » من مغاني بغداد العزيزة .
ولما عاد الحس أو كاد نظرت إلى الفم الحلو الذي يريد أن يبتسم ،
وإلى الطرف الاحور الذي يهم بأن يقول ، وإلى الشعر المغدودن الفاحم
الذي يسيل على الاذنين ، وأطراف الخدين ، فيجعل الوجه كله صورة من
الفتنة ، فتعود إليّ الغفوة ، وأعود انا إلى الحلم ، وأخيراً تخلصت
قليلاً من سحر الصورة لارى صاحبها الادبية تقول أول ما تقول :
« أعتذر اليك من الكتابة والإهداء على غير تعارف » ، ولم يخل اعتذارها
الصريح من احتجاج ضمني على العرف الذي يفرق في مثل هذا الصنيع
بين الرجل والمرأة ، فلو أنها كانت فتي كما تقول لما وجدت في الكتابة
إلى مثلي ما يعتذر منه ثم تحدثت طويلاً عن صلتها بالرسالة وحرصها
على أن تقرأ كل ما أكتب ، وخصت بالذكر رثائي للشاعر المرحوم علي
محمود طه ، وخرجت من ذلك إلى الكلام عن شاعريته وعبقريته .
ثم طلبت إليّ آخر الامر أن أخصص لتأبينه عدداً من الرسالة أكتب
أكثره . كل أولئك في اسلوب رقيق يوحي أكثر مما يعبر ،
ويتعم أكثر مما يقنع . ولم أكـد أستوعب الرسالة بفكري ،
وأناقش موضوعها في سري ، حتى تناولت القلم وفتحت « الالبوم »
وأجبت عن الرسالة برسالة ، ورددت على الصورة بصورة ، ولكن
هيئات وأسفاه ! لن تحجب رسالة عقل عن رسالة قلب ، ولن ترد صورة
قبيحة على صورة « مليحة » !

ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدري أو لو يريد ؟ إن كلمة
من قلب مفتوح ، أو بسمه من شفة بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ،
أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو نسمة من صورة فائنة ، لتستطيع أن
أن تنير ما أظلم قلبه ، وأن تفرج ما اشتد من كربه .

إن السعادة "فتات وفترات" ، فلا تكون في واحد صحيح ، ولا تدوم
في زمن متصل .



موقف الزيات من مقتل حسن سيف

في نهاية السنة الدراسية ١٩٣٨ وقعت حادثة مروعة كان لها صداها الماؤلم في العراق وفي مصر ، هي مقتل الأستاذ حسن سيف أبي السعود المدرس في كلية الحقوق ، فقد أطلق عليه أحد الطلاب الرصاص صبيحة يوم الاثنين ٢٠ / ٦ / ١٩٣٨ في مبنى كلية الحقوق وأصيب عميد الكلية الدكتور محمود عزمي برصاصة في كتفه . واستغل الحادث أعداء الامة العربية ، وراحوا يروجون دعاياتهم المغرضة . وجل قصدهم تمزيق 'عرى الاخوة والتعاون بين القطرين الشقيقين ، وقد تجلّى تعاونهم بالعديد من الاساتذة المصريين للمعاهد والكلليات العراقية ، وكان الحادث مجرداً عن أي عامل سياسي ، وانها نتيجة تصرف شخصي من طالب خائب فاشل ، حدا به جنونه أن يودي بحياته وحياة أستاذ فاضل مخلص في أداء واجبه ، حريص على أمانة العلم والمعلم .. فساء الاستاذ الزيات جموح' بعض الاقلام في تعليقاتها -على صفحات الجرائد والمجلات ، فكتب يرد على تلك الاقلام ، ويدفع قالة السوء يوم ٤ تموز سنة ١٩٣٨ :

« بين مصر والعراق »

« تجري أحكام القدر على أسباب خافية من حكمة الله ، لا يؤثر

في منطقها مقتضيات السياسة ولا مناسبات الظروف ولا مجاملات الصداقة ، ولو كان لهوى النفوس ومشية العقول أثر في تدبير الأحداث ، وتغيير الأقدية ، لما اختلف في ذلك الوقت هذا الطالب العراقي المسكين فأراق على ثرى دار الحقوق البغدادية نفس الدكتور سيف ودم الدكتور عزمي وهما مجاهدان غريبين في سبيل العلم ، يؤديان مخلصين للعراق فروض المودة . وأقول : « في ذلك الوقت ، لأن وقوع هذا القدر المروع في هذه الساعة التي تنعقد فيها أواخي المصاهرة بين مصر وإيران ، أتاح لبعض النفوس الجاهلة المريضة أن توازن بين ما يفعل إخوان النسب ، وبين ما يفعل إخوان العقيدة .

ومثل هذا الحادث المشؤوم يقع في كل قوم وفي كل يوم ، فلا تضطرم له القلوب ، ولا تضطرب به الأسنة ، ولا تهن منه العلائق . ولكن وقوعه ظلماً على الغريب النافع من القريب المنتفع أعطاه معنى التضحية ، وجعل له تأثير الشهادة . وابن الوطن إذا قُتل في وطنه كانت مصابه مصاب أسرته ، وإذا قتل في وطن غيره كان مصابه مصاب أمته .

أضف إلى هذه الملابسات شائعات مكذوبة ، وتعليقات مشوبة ، استطار بها السماع فدلست على ألسن الناس وجوه الحكيم ، وآذت أصدقاء العرب وعارفيه ، فهموا يصححون الخطأ في المجالس ، وبعلمون الصواب في الصحف ، رعاية لأسباب الاخاء ، وإدامة لتعاون الفكر ، وضناً بأخلاق هذا الشعب النبيل على الأفواه القارضة .

شهد الله أني قضيت بالعراق ثلاثة أعوام ، لم تنلني فيها كلمة تؤذي ، ولا فعلة سوء . إنما كنت أتعذب في بغداد كما يتعذب الطفل على أحناء الصدر الحنون : لا أحسّ غربة ، ولا أستشعر وحشة ، ولا أجد في العيون ولا على الشفاه إلا العطف عليّ والإعجاب بمصر .

وربما وجد المصري في غير مصر تناكراً بين وجهه ووجه ، وتدابراً بين عاطفة وعاطفة ، إلا في العراق فإنه يجد وجهه في الوجوه ، وهواء في الأهواء ويحس ان الأدب الذي درس ، والتاريخ الذي قرأ ، يتمثلان لباصرته وذاكرته ، في كل شخص وفي كل شيء ، ويرى أن هؤلاء الناس 'خلقوا كما خلق من النهر ذى الفيرين الحصب ، وعاشوا كما عاش على الأرض ذات الطلع والحب ، لا يختلفون عنه في سحنة ولا خلق . والعراقيون من جهتهم يؤيدون حسبانته ووجدانه بالطلعة الآنيمة والمروءة الجزلة ، والكرم الخض .

كانت مصر اذا ذكرها في المجلس ذاكر ، نزعنا منها قلوب القوم ، كما تنزع الأسرة الى عصبته النازحين الى بلاد الذهب والأدب والجمال .

وكان للمصريين في بغداد ، على قلتهم ، منزلة ملحوظة بين الجاليات الأخرى ، لا تحوم حولها شبهة الارتفاق ولا سبة التشرذ ، لأن العراق ، وان كان ضئيلاً بخبره على الأجنبي الواعل ، يعرف عن المصري ما يعرفه كل الناس ، من عزوفه عن النقلة من قرية الى قرية .. فكيف بالرحلة من وطن الى وطن ؟ وهذا الذي رأيته بعيني لا أزال أسمعه بأذني من الاساتذة المصريين الذين لا يزالون يسفرون بين الشعبين الشقيقين بالثقافة والمودة . فالأحاديث التي تندس اليوم الى الأندية اندساس الفتنة لا ترجع الى حق ، ولا تذهب الى منفعة .

وهذا الحادث على فظاعته ، ظاهرة من ظواهر المجتمع ، يحدث في الأمم المتقدمة كما يحدث في الشعوب الهمجية ، ويقع من القريب على القريب كما يقع من المواطن على المواطن ، وحققت النفس على النفس من طبائع الإنسان ، وضلال العقل ووهن الأعصاب من آفات الحي ، وما يستطيع غير الله أن يعلم خوافي الصدور وخوائن الأعين . فماذا كانت

تفعل حكومة العراق لتدبراً ذلك العدوان الفردي المحتوم ، وقد تهيأت أسبابه خفية في نفس مضطربة ، وأعصاب موهونة ويأس مذل ؟ ان الذين قالوا كان وعيداً كتب ، وتهديداً قبل ، لم يثبتوا بأن الصديق الخليل ، عزمي قد عالج بهذا الوعيد أو أخبراً الحكومة بهذا التهديد ، واذن لا يبقى الا نزق الشباب الذي لا طيبٌ له ، وقدّر الله الذي لا حيلة فيه .

إن العلاقة بين مصر والعراق طبيعية ، لم يفتعلها طمع الاقتصاد ولا طموح السياسة ، إنما هي علاقة الدم واللغة والأدب والتاريخ والمجد والعقيدة ، فإذا طاشت يد هناك أو هفا لسان هنا ، فلا ينبغي أن يقع ذلك من البلدين الأخوين الا موقع العبث الضروري الذي لا تكون الحياة الدنيا حياة الا لوقوعه فيها ، ولا يكون الانسان بشراً الا لوقوعه منه . هذه كلمة كنا نود ألا نقولها ، فان الحاجة الى تقرير الود بين الصديقين مظنة لوقوع الشك فيه ، ولكن قعائد البيوت وأحلاس المقاهي لا يحبون أن يزجوا فراغهم الثقيل الا بزخرفة الاحاديث على حساب الحق ، فلم يكن لنا ولهم من هذه الهمسة بد . وقد انبرى كاتب احب العراق والعراق أحبه ، هو الأديب صاحب النثر الفني الدكتور زكي مبارك ، فقد كتب فصولاً مسهمة دافع فيها عن العراق ، وكان من شهوده . انظر كتاب الاستاذ عبد الرزاق الهلالي (زكي مبارك في العراق) .

نضج التفكير القومي :

قدمت نماذج واضحة من نضج الوعي القومي بفضل الكتاب العرب ودعاة القومية ، وأن هذا الوعي وإن بدا مختلفاً في بعض الاقطار العربية ، وثوره في بعضها الآخر إلا أن الهزات العنيفة التي تقع في قطر

من أقطارها تثبت ان التماثل والتماثل ، واهتزاز وشائج القربى ، هو الادراك الحقيقي للامة العربية وانه هو القدر المشترك المجدد للشعور القومي والوعي المتنامي . وان الحكم على شعب لمن يحلو له ان يحكم - بتصريح أديب أو هفوة زعيم من أبناء ذلك الشعب ، بأن الشعب كله يتنكر لأمته ولعرويته بما سبق من هفوات بعض الافراد ، ذلك حكم لا يمثل حقيقة ، وانما الحقيقة الناصعة هي أن الامة العربية ما فتئت ، منذ مطلع العشرينات من هذا القرن ، تتقارب وتتفاهم وتتناصر وتتوحد برغم القيود المشددة ، والحدود المفككة ، والاحزاب المتخالفة . نراها في أقطارها تتجاوب وتتناصر وتتعاون وتنادى لدعاء الحرية والاستقلال . في مصر ثورة على الاحتلال ، وفي العراق ثورة على الاستعمار ، ونرى ثورات في سورية وفلسطين وفي المغرب العربي . كل ذلك يثبت للدراس المنصف أن الوعي القومي ينمو وينضج وينتشر حتى عمّ الاقطار العربية مشرقها ومغربها . وهل أدل على نضج هذا الوعي من تلکم المشاركات الجماعية والانتفاضات الشعبية كلما حدث حدث لقطر من أقطارها؟ فترى أبناء الاقطار الاخرى تتجاوب ، وتهتز فرحاً إن نال ذلك القطر انتصاراً على الاستعمار ، وتأسى حزناً ان حلت بأهله نكبة ، فتسارع للمساهمة مادياً وروحياً . وهل نسينا صدى حروب الخطابي وانتصاراته في المغرب وأفراحنا لها ، وأسانا يوم نفى (سعد) وصحبه الى جزيرة سيشل ؟ ألا يذكر الناس أفراح الامة العربية يوم جلا الاستعمار عن سورية ولبنان ، فاهتزت أقطار العروبة من المحيط الى الخليج ابتهاجاً وغبطة . وتعزيزاً لذلك أثبت مقالة الدكتور طه حسين الذي أشاع عنه البعض آراء كانت سبباً لإشاعة تقولات واتهامات تعدت الافراد الى الشعب كله فراحوا بحسن نية وبسوء نية يرمون الشعب المصري بالفرعونية .

رأى الدكتور طه حسين عن عروبة مصر

أشاع بعض الطلاب في أوائل الثلاثينات رأياً للدكتور طه حسين في عروبة مصر ، وأذاعوا في الصحف ان الدكتور يقول : إن مصر فرعونية ، وانها تتنكر للقومية العربية . أجرى هذا الحديث طلبة عراقيون وشاميون التقوا بالدكتور ، على ظهر الباخرة « شامبليون » وهم في طريقهم الى باريس ، ونشره الكزبري في صحافة الشام ، وتناولت صحافة لبنان والعراق وسوريا الحديث منكراً على الدكتور هذا الزعم ، وراحت تدال على عروبة مصر . وشاع هذا الرأي وتناقلته الجرائد ، وتداولته اللسان ، وصدقه أناس ، ونفاه آخرون . وقد يصح أن يقال إن مصر يجوز لها ان تتشغل عن القضايا العربية بقضاياها الخاصة ؛ ريصح أو يجوز أن يقال إن الوعي القومي العربي كان ضعيفاً في نفوس ساستها يومذاك ، لان كفاحهم متركز على مقاومة الاستعمار او منصب في المنافسات الحزبية ، وقد طغى كفاحهم للاستعمار على كل تفكير ، وجعلهم يشغلون عن قضايا غيرهم ، فظهروا بمظهر الاقليمية . ومن هنا جاء عتب ابناء العروبة .

فاستغلت الدعايات المغرضة التي دبرتها الصهيونية ، وروجها عملاء الاستعمار ، وأخذوا يعمقون القالة القائلة بفرعونية مصر ، وينشرون حولها الاحاديث ، ويقابلون الزعماء المصريين وأعمالهم الوطنية بالشبهات ، ويرمونهم بالتنكر للعروبة .

ولا شك أن فكرة القومية والعمل لها في مصر ظلت خافتة ومبهمه في نفوس الكثرة الكثيرة من الساسة المصريين في مطلع العشرينات من هذا القرن ، فلا عجب أن صدرت بعض الاقوال والآراء المرتجلة من

بعض الادباء والساسة . ولكن هذا الوعي قد تبدل بفضل اللقاءات والزيارات بين الاساتذة المصريين وبين اخوانهم من أبناء العروبة من عراقيين وسوريين ، ورأوا بأعينهم ولمسوا بأنفسهم ما كان يمكنه بنو عمومته من الحب والاحترام والتقدير لمصر والمصريين ، وانهم ينزئهم منزلة الرأس من الجسد ومنزلة الاخ الاكبر .

فكتب الدكتور طه حسين مقالاً بعنوان :

- بين العروبة والفرعونية - قال فيه :

« الشعب المصري يتكلم اللغة العربية منذ قرون طوال ، ويعيش على الحضارة العربية وعلى التراث العربي منذ قرون طوال أيضاً .. ويشارك في إحياء التراث العربي وتنميته ، شأنه في ذلك شأن الشعوب العربية في اقطار الارض على اختلافها ، من الخليج الى المحيط كما يقال اليوم . وليس من شك في ان حظ الشعب المصري في إحياء الحضارة العربية والتراث العربي ومن ترقية اللغة العربية أكثر وأوفر وأغزر من حظوظ الشعوب العربية الاخرى ، ولا سيما في هذا العصر الحديث . بل في عصور أخرى قديمة كانت الشعوب العربية فيها معرضة لضغط أجنبي يأتيتها من الشرق حيناً ويأتيتها من الغرب حيناً آخر . وكانت مصر وأهلها أقل البلاد العربية والشعوب العربية تأثراً بهذا الضغط الاجني . وليس من السهل أن ينكر مؤرخو الآداب فضل مصر في حماية هذا التراث على اختلاف ألوانه . بهذه الكتب الضخمة التي ألفها علماء مصر أثناء العصر الايوبي وعصر المماليك حتى في العصر العثماني حين أطبق الظلام على أكثر الشعوب العربية ، وفرض عليها الجهل فرضاً ، وقطعت الصلة بين الاقطار العربية نفسها . حتى في هذا العصر الذي هو أسوأ العصور في التاريخ الاسلامي ، كان الأزهر الشريف مصباحاً يضيء للعالم الاسلامي

ظريقه ، ويحفظ عليه تراثه العربي والاسلامي .

كذلك كان الشعب المصري منذ ازدهرت الحضارة الإسلامية حفيظاً على هذه الحضارة ، منمياً لها ، مضيفاً إليها ما كان يستطيع أن يضيفه بفضل جهوده الخصبة .

ثم يجادل الجادلون في أن الشعب المصري عربي ، ويزعّم الزاعمون أن المصريين يتأثرون بالتاريخ القديم أيام الفراعنة أشد مما يتأثرون بالتاريخ العربي . والغريب أن الناس جميعاً يعلمون أن مصر كانت تجمل التاريخ الفرعوني القديم ، ولا تعرف منه إلا ما كان مسطوراً في كتب التاريخ العربية من هذه الأخبار التي تروي من العصور الانسانية القديمة في غير تحقيق ولا تمحيص ، ولم تعرف مصر تأريخها الفرعوني إلا في هذا العصر حين استكشفت بعض الآثار الفرعونية ، وحين قرئت الكتابة المصرية القديمة . وكل هذا لم يكن إلا في القرن الماضي . فكان حظ مصر إذن من العلم بتاريخ الفراعنة كحظ غيرها من البلاد العربية الى أواسط القرن التاسع عشر . وكانت أثناء العصور الإسلامية للعروبة وللحضارة العربية والتراث العربي واللغة العربية .

أضف إلى ذلك أن القرن الماضي لم يشهد البدء في معرفة التاريخ الفرعوني وحده ، وإنما شهد البدء في معرفة التاريخ اليوناني في مصر . والتاريخ الروماني في مصر أيضاً . ومصر ، كغيرها من البلاد الحية المتحضرة ، لا تستطيع أن تترك علماء الغرب يستكشفون ما كان في أرضها من الآثار ، ويستخرجون من هذه الآثار تاريخ الوطن المصري في عصوره المختلفة قبل الاسلام دون أن يشارك في البحث عن هذه الآثار . وفي استخراج التاريخ منها ، بل في استخراج فروع الحضارة التي عاشت

في أرضها قروناً تعد بالعشرات ، بل ان استكشاف هذه الآثار يفرض عليها أن تحميها وتجدد في فهمها واستنباط العلم منها ، لأن مصر بطبيعتها مضطرة الى المشاركة في كل ما ينفع الناس من العلم والفن والأدب وسائر ألوان المعرفة على اختلافها .

فهل كان الذين يتهمون المصريين بهذه التهمة السخيفة ، تهمة الفرعونية ، والاغراق فيها ، والاعراض عن العروبة ، لا لشيء الا لأن مصر تجدد في حماية ما يستكشف في أرضها من الآثار وفي استخراج ما تدل عليه هذه الآثار من فنون المعرفة كأنهم يريدون أن تعتمد مصر الجهل بما في أرضها من كنوز ، وتحلّي بين علماء الامم المختلفة وبين هذه الكنوز يستكشفونها وينقلونها الى بلادهم ، ويستنبطون منها العلم ، ويدرسونه في جامعاتهم ، ويملأون بها متاحفهم ، وقطل هي غافلة لا تسمع ولا ترى ، جاهلة والناس من حولها يملأون صدورهم بالعلم وينشرون من حولهم في بلادهم وفي غير بلادهم ؟ أم هل كانوا يريدون أن تمنع مصر من البحث في هذه الآثار ، وتحظر استنباط العلم منها ، وتفرض على الانسانية وعلى نفسها الجهل بتاريخ أرضها وبالحضارات التي قامت فيها ؟

من أجل هذا لا أعرف أبلغ من السخف ولا أدنى الى هذيان المحمومين من هذا الكلام الذي تردده ألسنة الفتنة الباغية في سورية من أن مصر فرعونية حريصة على فرعونيتها ، معرضة عن العروبة متنكرة لها .

ومن يدري ؟ لعل هؤلاء السفهاء كانوا يريدون من مصر أن تدع كل ما يستكشف في أرضها من الآثار الفرعونية واليونانية والرومانية ، لتثبت عروبتها وتثبت حرصها على هذه العروبة ومشاركتها في إحياء التراث العربي وترقية اللغة العربية والأدب العربي وسائر ضروب العلم

التي عرفها العرب ، ونشروها في أقطار الأرض ، وأتاحوا لغيرهم من الأمم أن تنهض وتنحضر وتتفوق في الحضارة ، إذ كان هؤلاء الناس يؤثرون الجهل لأنهم خلقوا محبين للعلم مؤثرين للمشاركة في كل ما ينفع الناس ، ولأن وطنهم قد امتاز بحفظ الحضارة الانسانية وحمايتها منذ العصور القديمة .

حفظ حضارة اليونان التي تعيش الانسانية عليها الى الان ، وحفظ الحضارة العربية الاسلامية التي شاركت في إنهاض أوربا وحياتها ، وسيظل هذا الوطن كذلك وإن رغمت انوف ، سيظل هذا الوطن الذي نشأت فيه حضارة الانسانية الأولى ، وانتشرت منه ، وملأت الارض من حوله نوراً ، وسيظل هذا الوطن الذي حفظ الحضارة اليونانية وأتاح للباحثين والعلماء منهم كنوزاً لا تقدر ، وسيظل هذا الوطن الذي حفظ الحضارة العربية والتراث العربي ، وأتاح للعرب ولغير العرب أن ينتفعوا بهذا التراث وتلك الحضارة .

فلتردد ألسنة الفئة الباغية ما شاءت من هذا السخف وأمثاله ، فهي لن تضر مصر ولن تضر المصريين في شيء ، وهي لن تمس عروبة المصريين قليلاً أو كثيراً ، ولن تستطيع أن تنازع المصريين فضلهم في إحياء الحضارة العربية والتراث العربي ، باذلة في ذلك من الجهد والوقت والمال ما لم يبذله شعب آخر . ولتطمئن هذه الفئة الباغية فلن يتحول المصريون عن عروبتهم ، ولن يقصروا في حماية العروبة وفي إحياء التراث العربي ونشره ، لينتفع منه القريب والبعيد ، ولينتفع منه العربي وغير العربي .. لأن مصر لا تستطيع أن تغير طبيعتها ، وأن مصري ، على رغم الجاحدين والمعاندين ، الأرض التي أثمرت فيها الحضارة العربية والتراث العربي . كما لم يثمرا في غيرها من البلاد العربية ، ولا سيما هذا العصر الحديث . وأن تاريخ مصر قد فرض عليها واجباً تراه مقدساً ،

وتأبى أن تقصر فيه مهما تكن الظروف ، وهو أن تتعلم ما استطاعت الى التعلم سبيلاً ، وتنتشر العلم من حولها ما وجدت الى ذلك سبيلاً ، ولا عليها أن تجد فضلها في ذلك قلة قليلة من أعداء العروبة ومن أعداء الشعب السوري ، فئة لا هي في العير ولا هي في النفير ،^(١) .

من الجحود ، إي والله من الجحود ، أن نرمي مصر بالفرعونية لنزوات بعض الكتاب من أمثال سلامة موسن ولويس عوض وأضرابهما . وهي دعوة روجها الاستعمار وبعض من يطلع في ركابة من المأجورين وتكرار هذه النغمة من بعض كتاب العرب في سوريا أو العراق انسياقاً مع دعوة أعداء العروبة الذين يعملون لتمزيق وحدة العرب الفكرية والسياسية . وأرض الكنانة كانت ولا تزال تنزل أبناء العروبة منزلاً رحباً ، كانت أيام الاستبداد العثماني مهبطاً للمجاهدين من أبناء العروبة من أمثال الكواكبي وآل العظيم والشدياق وآل الرافعي وزيدان ومحمد كرد علي ومحمد رشيد رضا والكاظمي . وكانت موئلاً للمجاهدين من أحرار العرب من الخليج الى المحيط في حروبهم التحريرية من الاستعمار ، يلقون فيها البذل والعون والعطاء بسخاء وتنزلهم منزلة كريمة ، مثل الشعالبي والخطابي والبشير الابراهمي وأبو رقيبة والبرزاز والسامرائي والدره والصفواني ، وغيرهم كثيرون . تغدق عليهم بكرمها وتنزلهم منزلاً كريماً ولا تن على أحد . ورأينا مبادرتها لنصرة الجزائر وتونس وليبيا ولبنان وسوريا والعراق واليمن ، كما رأينا نصرتها للقطار العربية 'شرقاً وغرباً' ، وهي تتحمل اليوم العبء الأكبر في كفاحنا مع الصهيونية والاستعمار .

(١) انظر كتاب كلمات للدكتور طه حسين من ص ٢٦ - ٣١ منشورات دار الملايين ١٩٦٧ .

وهذه جامعاتها تفتح أبوابها لأبناء العروبة من مختلف شعوبها وأقطارها ،
ولا تقف بوجه طالب قصدها حق ولو تجاوز الوافدون العدد المحدود ،
وفد تتجاوز بذلك نصوص القوانين المبطنة على أبناءها المصريين .
والنهضة الحديثة في شق أقطار العروبة مدينة لمصر ولأساتذتها الذين
يعملون مخلصين في حقل التعليم الجامعي والثانوي ، فهل بعد كل هذه
التضحيات التي تقدمها مصر للعروبة مجال لتقولات المفرضين من أعداء
الأمة العربية ؟ وهل يصدق تخرصاتهم عربي في نفسه بقية من أنصاف ؟

الدكتور زكي مبارك يدافع عن العراق

على أثر ما أشاعه المفرضون ، ورددته ألسنة السوء ، وبعيد ما ديجته أقلام الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، كتب الدكتور زكي مبارك في ١٩٣٨/٦/٢٩ مقالاً بعنوان « فاجعة بغداد » نشرته جريدة الأهرام ، وأثبتته في كتابه « من وحي بغداد » ، ومما جاء فيه :

« أما بعد ! فقد تكون لهذه الفاجعة عقابيل ، ولكن واجبي نحو وطني أن أعلن جهرة ، أن هذه الفاجعة لا يجب أن تفسد ما بين مصر والعراق عن الصلات الثقافية ، فالطالب الجاني كان مريضاً ، وقد ضعفت أعصابه تحت تأثير المرض والقيظ ، فجنى ما جنى غير مسؤول ، ثم قتل نفسه بعد ذلك ... »

أشهد صادقاً أن مصر لها في قلوب أهل العراق أجمل مكان .

وأشهد صادقاً أنني لم أر من أهل العراق غير الجميل ...

وأشهد صادقاً أن حكومة العراق وجمهور أهل بغداد عزونا في هذه الفاجعة أجمل عزاء .

وأشهد صادقاً أن العراقيين إخوان أعزاء ، لا يضررون لنا غير الحب والعطف والوداد .

وقال : « ما لقيني إنسان بعد هذد الفاجعة في بغداد إلا قال : ما عسى أن يقول فينسا المصريون ؟ فكنت أجيئ : لن يقول المصريون فيكم شيئاً يا أهل العراق ، فتلك أقدار قضت بما قضت ، ولا يثور على الأقدار إلا غافل أو مخبول .

أيها العراقيون : إن همومكم من همومنا ، وأحزانكم من أحزاننا ، وقد شاء الله أن يجمع بيننا وبينكم رباط من الحزن والدمع وهو رباط وثيق ، وقد تفردت مصر بأن يكون لها في أرضكم شهيد ، فارعوا هذا العهد ، فهو أصدق العهود ..

أيها العراقيون : ثقوا تمام الثقة بأننا نحبكم ، ونعطف عليكم ، ونتمنى لكم الخير والعافية . ثقوا بأن مصر يسرها ويرضيها أن يقال إنها اتصلت بكم بسبب الدماء .

أيها العراقيون : هل تذكرون قول شاعركم المنفي :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً
فأفعاله اللاتي سررن ألوف

إن ذكرت هذا البيت ، فنحن نذكر أنكم إن كنتم أسأتم إلى أحد فقد أحسنتم إلى ألوف ، وما أسأتم إلى أحد منا ، وإنما أساء شاب مسكين بكينا عليه حين رأينا أهله يصرخون ويولولون ، إن من الجريمة أن تنسب هذه الجريمة إلى أهل العراق ، هي جريمة فردية يسأل عنها جانيها المسكين الذي قتل نفسه بلا ترفق ، هي سحابة صيف ، سيعقبها الصحو والصفاء .

أيها العراقيون : لقد ساءني أن تنزعج صحافتكم وأنديتكم على سمعتكم القومية ، فاسمحوا لي بأن أعذر عنكم وأن أصرح بأن الله حكمة في

مستور الغيب .

وقانا الله وإياكم شر الفتن ، وهدانا جميعاً إلى سواء السبيل^(١) .

وللدكتور زكي مبارك مواقف متعددة تنضح بالقومية ، وتلهج بأواصر
القربى ، وقف بالمرصاد لكل من كانت تسول له نفسه ببذر بذور الفتنة
بين مصر والعراق ، فكتب مقالاً بعنوان :

« مكانة مصر في العراق »

« ليت قومي يعلمون كيف يحبهم أهل العراق ؟

ليت قومي يعلمون كيف يفرح أهل العراق لفرحهم ، وكيف يحزنون
لحزنهم ؟

ليت قومي يعلمون كيف يسير أبناؤهم في بغداد والحلة والموصل
وكركوك والنجف وكربلاء والبصرة وما إلى هؤلاء من حواضر العراق ؟
ليت قومي يعلمون كيف تسود مجلاتهم ومؤلفاتهم وأناسيدهم في
مضارب العشائر ، وكيف تكون أغانيهم راح السامرين على شواطئ
دجلة والفرات ؟

إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فليعرفوا جيداً أننا نحبهم ، ونتمنى
لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم نظرة الأخوة الصادقة التي لا تضمر غير
العطف والصدق .

وستذكر مصر أن العراق رآها أهلاً للحمل الأمانة العلمية ، فكتبها من
غرس أصول الثقافة الحديثة في رحاب دجلة والفرات ..
وسيدكر العراق أن مصر كانت عند ظنه الجميل ، فلم ير من أبنائها
غير الصدق والاخلاص ، ويرحم الله من قال^(٢) :

(١) كتاب الهلاي : زكي مبارك في العراق ص ٢٠٧ - ٢١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٣ - ٢١٤ .

أذكرونا مثل ذكرانا لكم ربُّ ذكرى قربت من نزحنا
واذكروا صبأ إذا غنّى بكم شرب الدمع وعاف القدحا .

وكتب الدكتور زكي تقريراً إلى وزير المعارف ، وكان يومئذ المؤرخ
الأديب الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف « حياة محمد » وكتاب في « منزل
الوحي » وشفع تقريره بهذه الرسالة :

« أيها الأستاذ الجليل ،

سترى في هذا التقرير صفحات تشرح الحوادث التي كانت سبباً في
وقوع فاجعة بغداد ، فاقراً تلك الصفحات - غير مأمور - لترى أن
ما وقع لم يكن أثراً لعداوة موجهة إلى الأمة المصرية ، وإنما هو نتيجة
تصرفات أوقعت فيها المقادير بعض الناس لنعرف ما في أنفسنا من
الصلاحية للاستبسال في خدمة المقاصد العالية بمعاهد الشرق .

وكان في نيتي أن أطوي تلك الصفحات من هذا التقرير ، ولكن
دعاني إلى اثباتها ما عرفت من أن بعض المفسدين يريدون أن يجعلوا
تلك الفاجعة نهاية الصلات الودية بين مصر والعراق ..

وأرجو أن تعرفوا أنني لم أتلف في سرد تلك الأسباب ، ولم أضف
إليها شيئاً يلقيه الغرض في مراعاة مصر أو التحامل على العراق ، وإنما
وقفت موقف الرجل الأمين الذي يقدر المسؤولية أمام الله وأمام التاريخ .
وعند قراءة الفصول الخاصة بتلك الفاجعة ، سترون أن الله قدر ولطف ،
فلم تكن تلك الحوادث إلا سحابة صيف ، وقد تقشعت بفضل الله
الكبير المتعال .

وإنما أدعوك إلى النظر في الأسباب التي دونتها بنزاهة في هذا
التقرير ، لأن تلك الفاجعة عرضتني إلى شبهات أشد ظلاماً من حظوظ

الأحرار من الأدباء ، فقد أشاع المرجفون أن لي غرضاً في دفع مقالة
السوء عن العراق في هذه البلاد . وما اذاع هذه الفرية الأثيمة إلا أناس
حميت أعراضهم بقلمهم ولسانهم ..

يرجون عثرة جدتنا ولو انهم لا يدفعون بنا المكاره بادوا
وقال فيهما :

« لقد قلت ما قلت ، وكتبت ما كتبت في الدفاع عن العراق ، ومن
الله وحده أنتظر حسن الجزاء . فمن كان له هوى في أن يصدني عن قول
الحق ، فليمض في ضلاله كيف شاء ، فما أنتظر العطف من أحد ، وقد
أقمت حياتي الأدبية على قواعد من الحديد » .

تاريخ العراق المعاصر

في حياة الشبيبي

نفثة مصدور لما كان يلقاء الأحرار من الذين صرّفوا أمور العراق وفق مصالحهم الخاصة وما كان يرسم لهم .

قرأت في بريد مصر الأخير النبأ التالي : « وافقت مشيخة الأزهر الشريف على قرار يقضي بتعيين الاستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة مديراً لمجلة الأزهر براتب قدره ٢٠٠ جنيه » .

هذا ما روته صحف مصر في الايام الأخيرة ، وهو نبأ رأيت أن أقف عنده لحظة للعبرة ، وهذا الخبر لا يعنيني الا من حيث دلالة البالغة على ارتفاع قيم الادب ورواج بضاعته في بلاد ، وكسادها في اخرى .. نحن نعيش في بلد تطاول غيرها بالكلام الفارغ والدعوى الباطلة ، لا بالعمل . فما أبعد الشقة بيننا وبين هؤلاء الذين نطاوهم من هذه الناحية .

ان اختيار صاحب مجلة الرسالة لادارة مجلة الأزهر اختيار موفق فان صاحب الرسالة كاتب أو صحفي مصري ، عرف ببلاغته وترسله وبقالاته التي يدبجها في مجلته . ولا شك أن أمثاله غير كثيرين في

أقطار الشرق العربي . ولكن هذه الاقطار انجبت كتاباً وصحفيين وأدباء من طبقة الاستاذ المذكور . ما في ذلك من ريب . الا أن الفرق بين البلدين بعيد ، فهذا بلد يعيش اعلام الأدب والترسل والصحافة فيه معززين مرفهين مقبلين على شأنهم في الانتاج والتأليف ، وهذا بلد آخر تعاني هذه الطبقة فيه أنكد عيش يمنعها عن العمل والانتاج ، فيموتون وتموت معهم بنات أفكارهم بدون أن يحسب لهم حساب في كثير من الأحيان .

لماذا يفتت هؤلاء المبدعون من الأدباء - ناظمين وناثرين - حبات قلوبهم ؟ ولماذا يذيقون أدمغتهم ؟ أليس من أجل سنّ المناهج اللاحقة وتعميد الطرق الواضحة ، طرق الهداية والارشاد ، ليسلكها الناس الى الفضائل والمحامد ومكارم الأخلاق .

أجل ، هذه هي رسالة المبدعين من الأدباء ناظمين وناثرين ، وإلى ذلك مرد هذا الاكبار والاحلال لهم ، والحفاوة البالغة بهم لدى الشعوب الناهضة قديماً وحديثاً . وكثيراً ما رأينا في بعض البلدان المتأخرة ان الخول والزراية والاحتقار نصيب الأديب أو الكتائب المبدع .

لذلك نرى للادب دولة في عصور دون عصور . ولا يعرف الفضل إلا ذووه والناس أعداء ما جهلوا . وما أكثر عدد الأغبياء والجهال المنحطين بين المعنئين بشؤون الحكم والسياسة في هذه الأيام !

* * *

عقد مجمع اللغة العربية في القاهرة حفلاً تأبينياً للفقيد الشيخ محمد رضا الشبيبي ، كان المتكلم فيه زميله وصديقه فقيداً الزيات ، قال :

« رحم الله أخسانا الشبيبي .. كانت كرسية في مؤتمر الجمع متميز الوجود ، مرموق المكانة ، ظاهر الجلالة . وكان جهده العملي في المؤتمر واضح الأثر جاني الثمر خصب الانتاج ، وكان مكانه في العراق مكانة

القائد المتبع ، تحلقت من حوله النوازع الجديدة في النجف ، وتجمعت من ورائه المبادئ الحرة في بغداد ، فقاد حركة الإصلاح الديني في الجامع ، وجاهد في سبيل الإصلاح السياسي في الحزب ، وشارك في معركة التحرر من الانكليز في الشعبية . وكان تاريخه كله مثلاً في الشجاعة والحفاظ والاستعلاء والأنفة ... ومن جرائر هذه الحلال عليه انه لم يتول منصباً ، أو يتقلد وزارة الا استقال بعد قليل . أما الباعث فإمسا يرجع إلى وطنيته ، وإما إلى سبب يمت إلى كرامته .. استقال من وزارة المعارف مرتين ، مرة في سنة ١٩٢٥ لاختلافه مع رئيس الوزراء على اتفاقية النفط الأولى ، وأخرى سنة ١٩٣٥ ، لاختلافه يومئذ على سياسة التعليم واختيار المعلم ، واستقال من رئاسة المجمع العلمي العراقي وعضويته سنة ١٩٤٨ لعوائق من الأذى وضعها في طريقه خصيمه المبين نوري السعيد ، واستقال من مجلس النواب سنة ١٩٥٠ مع النواب المعارضين الخمسة والثلاثين ، لاستظالة بعض الأعضاء الحكوميين على حرم المعارضة ... ثم دعاه التصوّت والاحتشام إلى ضرب من العزلة الشاعرة ، ابتدأت في حوش من أحواش النجف ، وانتهت إلى قصر من قصور الكرادة ، فقليلاً ما كان يغشى مجلساً ، أو يشهد مجتمعاً ، أو يحضر منتدى . لم يكن كمعاصريه الرصافي والزهراوي حديث مجلس ، أو نديم ملهى ، أو سمير أنس أو شاعر حفل أو صاحب فيكاهة ، انما كان طريقة وحده في سمو الخلق وشرف الصحبة ونبل الغرض . ولذلك انحصرت شهرته بين طلاب الأدب الرفيع من الخاصة وأقطاب الرأي المعارض من الساسة .

كان وهو متربّع في حجراته المتواضعة في النجف على حشيتة الضيقة فوق حصيرته الواسعة ، وأوراقه منشرة أمامه ، وكُتبت به منشورة حوله يرقب طالع العهد الجديد من بلاط الملك الهاشمي في الرصافة ومن دار المعتمد البريطاني في الكرخ ، فيرى الإرادة العربية مكبلة بالقيود



الشيخ رضا الشبلي

الانكليزية ، لا تتحرك إلا بقدر ، ولا تتصرف إلا بإذن ، فيجيش صدره بالشعر المثير ، ويتحرك لسانه بالنثر الموقظ ، فتتناقل الأفواه هذه الصيحات على شواطئ الفرات من الكوفة والحلة إلى الناصرية والبصرة ، فتفعل فعلها الساحر في نفوس الشيعة الناقمين على الاحتلال والحكم والملك ، وعلماء النجف ومنهم الفقيد ، كانوا في عهد الغزو الانكليزي كما كان علماء الأزهر في عهد الغزو الفرنسي لمصر ، اليهم يرجع الأمر ، وعنهم يصدر التوجيه ، وعليهم يعتمد العامة .

كنت في مطلع العام الثلاثين من هذا القرن في بغداد أؤدي واجباً أدبياً في دار المعلمين العالية ، وكان الملك في أيدي العرب ، والحكم في أيدي الانكليز ، والمناصب أعلاها في يد هؤلاء ، وأدناها في يد أولئك ، فكانت الحال في ذلك الحين محنة ابتليت بها كفاية الملك ؛ فالانتداب البريطاني كان قبل الملكية يعمل في العلن ويحمل التبعة ، فأصبح بعدها يعمل في السر ولا تبعة عليه .. والحكومة العراقية ، كانت بادية البلى ممزقة الجوانب ، لا تستطيع بخروقتها أن تستر العرش ، فالملك بحكم الوضع كان يستر الانكليز ، ولكن الوزارة بحكم الضعف كانت تكشفه ، فكانت أوزار أولئك وأخطاء هؤلاء تحمل في رأي المعارضة والشعب على الملك

والشعب العراقي على اختلاف نوازه وعقائده وأجناسه ناقد متمرد ، طموح ، لا يصبر على مقت ولا يغفل عن خطأ . وكانت الشيعة أشد الناس ضيقاً بهذه الحال ، لأنهم كانوا على كثرة عددهم ووفرة ثرائهم ، قليلي الحظ من المناصب القيادية . ومرجع ذلك إلى أن الذين مالوا فيصلا في ثورة العرب على الترك في الحجاز وآزروه على تبوء العرش الأموي في الشام وهاجروا معه بعد ميسلون إلى حاضرة الملك العباسي في العراق .. كانوا من الضباط العراقيين السنتين الذين ربّتهم تركيا في

مدارسها ، وأعدتهم للحكم والحرب ، كجعفر العسكري وإسحاق الهاشمي ونوري السعيد ، فثبتوا أركان الدولة ، وتقلدوا مناصب الحكومة ..

والشيعة في العراق ، والمارونيون^(١) في لبنان ، كانوا في خلافة بني عثمان كالوالي في خلافة بني أمية . أبعدوا عن مناصب الدولة ، فاشتغلوا بالعلم ، وحيل بينهم وبين موارد الثقافة في عاصمة الخلافة ، فاعتمدوا في التعليم على أنفسهم^(٢) . وكان اعتماد الشيعة في التعليم على النجف . والنجف كانت كالأزهر لا تخرج إلا فقهاء في الدين وعلماء في اللغة . أما سائر الشعب فقد ظل تابعاً لهؤلاء ، يسير على هديهم ، وينزل على حكمهم ، ويجري أمور دينه وديناه على سنتهم . فلما كانت الملكية الفيصلية لم تجد في أكثرهم من يصلح للوظائف العامة ، فتولاها إخوتهم من أهل السنة . لذلك كان أول ما أثار عجيبي بعد قدومي إلى بغداد أنني وجدت وزير المعارف أمياً يختم ولا يوقع بقلم . فلما سألت عن السبب ، قيل لي : إن العرف جرى بأن يكون في الوزارة عضو شيعي ، وهذا الرجل ثريّ مسالم ، فوقع اختيارهم عليه .

ولا ضير أن يكون وزير المعارف أمياً ما دام الأمر كله بيد المستشار الانكليزي . وقد جربوا في الوزارة من جربوا من أئمة الشيعة فلم يحمدا التجربة ، لأن هؤلاء العلماء كانوا يستريحون بحاشية القصر ، ويستوحشون من دار الاعتماد ، فأرادوا أن يغلقوا أيديهم ويكفوا من ألسنتهم ، فمنعواهم وردّ الفرات ، والفرات نهر الشيعة تنزل على ضفافه الخصيبة القبائل البدوية ، ويفرض المجتهدون بقواه المادية والروحية ،

(١) لأن الشيعة في نظر العثمانيين موافق مع إيران ، وإن المارونيين ضلعمهم مع فرنسا .

(٢) المدارس لم تمنع عنهم ولكنهم هم أمتنعوا عنها ، لأن أكثريتهم اشتغلوا في التجارة ، وقليل منهم طلبوا الفقه وعلوم الدين لأنه مصدر للدنيا والآخرة .

وتقسمت الأهواء والآراء سياسة البلاد ، فحزب يؤيد الانتداب لأنه سند العرش وانتظام الحكومة ، ومصدر القوة ، ويتزعمه نوري السعيد . وحزب يناصر الشعب لأنه صاحب الأرض ومادة الجيش ومصدر الانتاج . ويتزعمه ياسين الهاشمي . وهوى الشيعة طبعاً مع هذا الفريق لبعض الأسباب التي ذكرت^(١) (كذا) ، وفقدنا الشيعي كان في بؤرتها من الاحداث ، يتجمع فيه شعاع الوطنية ثم ينتشر عن شعره ونثره هدى للقلوب وضياء في الاعين كان هواه مع المعارضة فاذا وزر ياسين أدناه ، وإذا وزر نوري أقصاه ، فتولى وزارة المعارف خمس مرات لم يلبث في كل مرة إلا بمقدار ما يصمد بحزبه من دسائس البلاد وسائوس الانتداب ، وقليل ما يصمد . فما الذي جعل من طالب العلم الديني في النجف الاشرف عالماً ذا كتاب ، وكاتباً ذا قلم ، ومحارباً ذا سيف ، وسياسياً ذا وزارة ، ومصلحاً ذا رسالة ، ومجمعياً ذا رأي ؟!

إن نسبه العريق في العلم ، وإن حياته الطويلة في العمل ، ليجيبان عن هذا السؤال أبلغ الجواب :

ولد محمد رضا بن محمد جواد بن شبيب بمدينة النجف سنة ١٨٨٨ في أسرة معروفة بالعلم ، موصوفة بالسيادة ، فقد كان جده شبيب الذي ينتسب اليه ، من اعلام الفقهاء المحدثين في عصره ، وقد ورث بنوه فيما ورثوا ، الميل الى علوم الدين وما يقيم عليها من وسائل ، فتهياً رضا لتلقي الأمانة بحفظ القرآن وتعلم الخط على مقرونة صالحة ، ثم طلب علوم اللسان والعقل على طائفة من خيرة علماء العرب والفرس ، ذكرهم في ترجمة حياته .. وكان ميله الغالب الى علوم المنطق والفلسفة والأدب ، فقرأ فيها أمهات الكتب ، وجمع منها نواذر المخطوطات ، وكان منهج

(١) العشائر وهم الكثرة مع الحاكم القائم ، ولا رأي لهم .

التعليم في النجف على النمط القديم ، يلزم الطالب أستاذاً بعينه ، حتى يخرج منه فيه ويحيزه به .

الا أن مجالس كانت تعقد في أروقة النجف يغشاها كثير من الطلاب ليستمعوا إلى محاضرات في الأصول والفقه يلقيها أئمة العصر ، كمجلس الأصول للملا كاظم الخراساني ، ومجلس الفقه لفتح الله الملقب بشيخ الشريعة . وكان من بين هؤلاء الطلاب فقيداً الشيخ الشبيبي .. فلما استجار شبابه واكتملت آلاته وبرزت شخصيته ، تحركت في نفسه نوازع القيادة الأصلية في بيوت العلم في النجف . وعلماء الشيعة في العراق وإيران ظلوا في جميع العمود قوامين على الناس ، لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإشارة من مجتهد أو مقالة من عالم . لأن وراثته الأئمة الاثني عشر كانت فيهم ، وجباية الصدقات كانت في أيديهم .. ومن هناك نشأت لهم في المجتمع الشيعي أurstقراطية طبقية وزعامة قومية ، كان لها في أقاليم الفرات الأثر الفعال في كل ثورة ..

والشبيبي كان واحداً من هؤلاء العلماء يرى في نفسه ، بحكم مرباه ، وطبيعة بيئته ، زعيماً بطبعه ، سياسياً بنشأته . فلم يكف فجر اليقظة العربية يسلوح في الأقطار العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ، ومنها العراق ، حتى ألتف من شباب النجف والكوفة وكربلا والحلة جماعة تدعو إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وجعل يذيع منهج هذا الإصلاح بشعره ونثره في المجلات المغربية والسورية والعراقية . ويقول مؤرخو الأدب العراقي الحديث إنه من أوائل من طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره من بين شعراء العراق ، وأولهم على الإطلاق بين شعراء النجف . ومنذ يومئذ أخذ ذكره يسير ، وشعره يروى ، وأمره يظهر ، حتى احتل الانكليز العراق ، وأقاموا حكومة من ضباط الجيش تستند إلى حاكم بريطاني عام ، لا إلى زعيم عربي مستقل . قرأى العراق أن

وعد مكماهون مكذوب ، وأن عهد الخلفاء منقوض ، وأن الغدر بالعرب مبييت ، فهب يطالب من المحتلين أن يكشفوا الغطاء عن بصره ليرى ، وأن يرفعوا الكرامة عن فمه لينطق ، وأب يعقدوا مؤتمراً يمثل الشعب العراقي ليقرر نظام الحكم ، ويختار رئيس الدولة . فأبى الانكليز عليه ذلك ونفوا من نفوا واعتقلوا من اعتقلوا . فثار العراقيون عليهم ثورة الأباة الأعزة بعد أن أفتاهم أغمتهم بالجهاد المسلح ، وغذاهم أدباؤهم بالشعر المثير ، وذلك قول الشبيبي :

بني يعرب لا تأمنوا للعدي مكرا
خذوا حذرکم فالقوم قد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة
ويبغون إن حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم ، وتذكروا
أضاليلهم في الهند ، والكذب في مصر
ومن مات دون الحق ، والحق واضح ،
إذا لم ينل فخراً ، فقد ربح العذرا

وكان من رأي الشبيبي في الاجتماع الذي عقده الحاكم الانكليزي في النجف أن تقوم في البلاد دولة عربية سيدة ، وحكومة دستورية مستقلة . فلم يكذ الحاكم العام يدرك ما قال حق قاطعه بضربة من يده على المنضدة . فثارت الحفيظة بالعربي الأبى ، فانتفض انتفاضة الغضب ، وولى ظهره الحاكم وخرج . وخرج معه أكثر القوم . ثم أخذ يورث النار على الغزاة بين قبائل الفرات ، مرة بالدين ، ومرة بالشعر . حتى رأى هو ورفاقه أن يصلوا أسبابهم برجال الثورة الغربية في الحجاز وسوريا ليوجدوا ألوية الجهاد في مختلف البلاد ، فيجمع الحقائق ، وحرر الوثائق ، وسافر مندوباً

عن العراقيين في أواخر سنة ١٩١٩ إلى مكة عن طريق البادية ليقابل الحسين ، ثم إلى دمشق ليلقى فيصل ، فكانت وثائقه التي حملها ، وحقايقه التي رواها ، قوة من الحق والواقع تجّهز بها فيصل أمام الحلفاء في مؤتمر الصلح . ثم قرّر قراره في دمشق سنة كاملة شارك في حوادثها وجرى في مجاريها ، واجتهد لياسين وصحبه بالمشورة ، وتحرى للملك وحاشيته وجوه النصيحة ، حتى قررت عصبة الأمم أن الأقطار التي انفصلت عن تركيا لم تبلغ الرشد ، فلا بد أن تقوم عليهما وصاية من الدول الكبرى ، فانتدبت انكلترا لفلسطين والعراق ، واختيرت فرنسا للبنان وسوريا . فخرج العرب بذلك القرار من ظلم معلوم إلى ظلام مجهول ، ومن استبداد الفوضى إلى استبداء منظم ، ومن سلطان دولة ضعيفة إلى سيطرة دول قوية .. هنالك عصفت النخوة في نفوس الأدباء ورؤوس القادة ، فقطرت الأقلام سماً في هجاء الحلفاء ، وسالت النفوس دماً في وقعة ميسلون ، ولكن قدر الله غالب ، والمعتمد على غير الله مغلوب ، فانتقم الصليبيون من العرب ، وانتصر القائد غورو على الملك فيصل ، وتبددت فكرة الجامعة العربية كما يتبدد الحلم الجميل في حقيقة اليقظة ..

رأى الشيباني ذلك كله بعينه . رأى العرش العربي وهو ينشل في دمشق ، والملك الهاشمي وهو يفرّ من فلسطين ، فلم يجد بداً من النجاة بنفسه على ظهور الإبل إلى العراق .

وفي النجف رأى ثورة الفرات وقد تركها شراراً يتطاير هنا وهناك وقد أصبحت أواراً يرعى العدو رعي الهشيم ، فشايع الثوار ، وشيخ النار حتى رأى الانكليز أن الثورة جدّ ، وأن مقاومتها هزيمة ، فأذعنوا كعادتهم لسلطان القوة ، واستجابوا على رغبتهم لمطالب الأمة ، ووطأوا عرش الرشيد للملك فيصل ، فاعتلاه في أوغسطس عام ١٩٢١ . وذكر رجال العهد الجديد للكرام الفقيه مواقفه الجلستى من قضية الاحتلال

وتورة الاستقلال ، فكان الملك يستزيه ويستشير ، ثم أسند اليه منصب الوزارة خمس مرات ، أولاها في وزارة الهاشمي سنة ١٩٢٤ وآخرها في وزارة الصدر سنة ١٩٤٨ . واختير عضواً في مجلس الأعيان فرئيساً له سنة ١٩٣٧ ، ثم انتخب عضواً في مجلس النواب فرئيساً له سنة ١٩٤٣ . وكان كما قلت ، لا يلبث في كل منصب تولاه إلا ريثما يبدأ عمله المستقل ويبيدي رأيه المعارض ، والاستقلال والمعارضة بأبهما العرش القائم على كواهل الانكليز^(١) .. والانكليز كانوا الفاعل المستتر في جميع أعمال الدولة ، وهم لا ينسون أن الشبيبي حاربهم مع الأتراك في القرن ، وقاتلهم مع العرب في الثورة ، فمن الطبيعي أن يسلطوا عليه جلادهم نوري السعيد^(٢) . فوضع في طريقه العوائق ، وراح يدس من حوله الدسائس حتى يعيده يائساً إلى عزلته في الكرادة ، يبحث ويؤلف ، ويحقق ويحاضر ، ويمد الجامعات العلمية في بغداد ودمشق والقاهرة بثمرات فكره ، وحصيلته اطلاعه . وإن جمع اللغة العربية ليشهد أن فقيده الكريم لم يتخلف عن شهود مؤتمر من مؤتمرات منذ انتخب عضواً فيه سنة ١٩٤٨ إلا مرة واحدة ، ولم يحضر دورة من دوراته إلا مزوداً بطائفة من البحوث القيمة والملاحظات الصائبة والاقتراحات السديدة ، كان يلقيها علينا في تواضع فيه عزة ، وتؤدة فيها ثورة ، وثقة فيها يقين ، جاءه من سعة علمه وصحة تثبته .. ذلك إلى سمو في خلقه ، ونبل في هواه ، وبروز في ذاته ، جعلته طوال عضويته في المجمع عميداً لأعضائه الشرقيين بحكم الواقع .. يتكلم عنهم يوم افتتاح المؤتمر ويوم اختتامه . ولجهاده الطويل المثمر في

(١) كان الانكليز يتهمون الملك فبصل بأنه يشجع المعارضة ويوحي اليها بالرأي المطالبة ليحصل الوطن بعض حقوقه من يد الاستشارة الانكليزية ويستخاص القليل من المعتمد المتصلب .
(٢) كان الشبيبي قد شارك انقلاب بكر صديقي بقبوله منصب رئاسة الأعيان ، ونوري يحقد على كل من أسهم في الانقلاب أو قبل عملاً مهماً في حكمته ، ولا ننسى أن الشبيبي من جهة الهاشمي في المعارضة ومن أصحاب المدغمي ..

سبيل العرب والعربية ، كرمته جامعة القاهرة حتى منحته درجة الدكتوراه الفقهية في الأدب والتاريخ ، واحتفت به أندية الأدب ومعاهد العلم في عواصم العروبة ، تقديراً لجهوده للعلم والسياسة . ثم كان من آثاره على الوحدة أن دعا إلى عقد مؤتمر المجمع في بغداد توثيقاً للرابطة وتوحيداً للوجهة ، فانعقد هناك استجابة لدعوته وتحقيقاً لرغبته ، ولكن صاحب الدعوة وأسفاه لم يحضر الدعوة ، كان يشهد الاحتفال بليلة الإسراء في القدس في جمع من علماء المسلمين ، فلم يكذب يدرك المؤتمر حتى أدركته الوفاة وخلا مكانه ، وذهب هذا الفضل كله ، وهذا العلم كله في فجأة من فجآت القدر ، وخلجة من خلجات المذون ، فلم يغن عنه طب الطبيب ، ولا حب الحبيب ، ولا أمس الحاجة إليه .

كان الشيخ محمد رضا الشبيبي من العلماء المكثرين والشعراء المقلين ، فله في العلم عشرات المؤلفات والمقالات . وأما الشعر فله ديوان مفرد ، ذلك لأنه كان يبذل العلم للناس ، ولكنه كان يقول الشعر لنفسه .. ونفسه كانت لا تكلفه الشعر إلا لحاطرة تجيش في ذهنه ، أو عاطفة تندس في حياته ، أو واقعة تنطبع في حسه . فلم يفرض الشعر عن طلب ولم يقرضه لمناسبة . وقد سأله بعضهم أن ينظم في معنى معين ، فقال له : لا ينبغي لأحد أن يقول للشاعر : إنظم في كيت وكيت ، إنما الشعر شعور يجيش في النفس فيجري على اللسان ..

وشعره ، على قلته من بحكم الشعر وجيده . نحا في معانيه منحى المعري في النقد والحكمة ، ونهج في أسلوبه نهج الحماداني في الجزالة والعدوبة ، فمن معرياته قوله :

يا للرزية ! كم يفرق بيننا
جادت علينا عصبية روحية
ذلوا بحبهم المعاش وبرهنوا
ذهبوا بدعوى فى الصلاح عريضة
يتناقضون ويجهنون عن العلى
لا يحسدون على المعالي أمة
إن الزعامة سلمت لزعانف
أنظر إلى الأعجاز كيف تصدرت
شر العصور، وفي العصور تفاوت،
وتضلتنا الأضغسان والأحقاد !
شقيت بها الأرواح والأجساد
أن ليس من بعد المعاش معاد
إن الصلاح من الشيوخ فساد
ليقال إن شيوخنا زهاد
وهم عالى علامتهم حساد
في الشرق قادوا أهله فانقادوا
وعنائهم السادات كيف تساد
عصر به تتقدم الأوغاد

ومن حمدانياته قوله في مدينة صيدا ، وقد زارها في رحلته السياسية
سنة ١٩٢٠ :

رحلت اليها بالصباية انها
عمدت الى كأس السلو فذقتها
لقد أطلقت صيداء طائر أيككة
غريباً من الأطيار فيها توافرت
وأزعجني من بلدي مزعج القطا
نعم لم يزل يعتاد قلبي اضطرابه
مدام فنى مثلي صباياته كثر
وكأس الجوى طعمان أحلاما المر
ببغداد أعياء وأرهقه الأسر
خوافيه واشتدت قوادمه العشر
فهل أنت يا صيداء - لابلدي - وكر
كما اضطربت ضمن الشباك القطا الكدر

أنسى زمان الكرخ والكرخ معرس
وتذهب عن ذكرى الرصافة والجسر ؟
هو البحث أقصاني ومالي جانب
- أبى الله - عن زوراء دجلة مزور
أناسى زمان الكرخ والكرخ معرس
وتذهب عن ذكرى الرصافة والجسر ؟
هو البحث أقصاني ومالي جانب
- أبى الله - عن زوراء دجلة مزور

ومما انفرد به عن أبي العلاء وأبي فراس وطنياته التي توثب النفوس

على المستعمر ، وتشجيع الوثام بين الأخوة ، وتدعو العرب إلى الوحدة :

كوّنوا الوحدة لا تقسمها نزعات الرأي والمعتقد
أنا بايعت على أن لا أرى 'فرقة' ، هاكم على هذا يدي

ثم اجتماعياته التي تصور العيوب ، وتظهر النقص باللسان العفّ الذي
يتميز به ، والبيان الحق الذي ينطبق عليه ، وذلك كقوله :

فتنة الناس ، وقينا الفتنة !
ربّ جهم حولاه قمرا
أبها المصلح من أخلاقنا
كلنا يطلب ما ليس له
ربما تعجبنا مخضرة
لم تزل - ويحك - يا عصر أفق
حكم الناس على الناس بما
فاستحالت ، وأثامن بعضهم ،
إننا نجني على أنفسنا
بلغ الناس الاماني حقة
أخطأ الحقّ فريق بائس
خسرت صفقتكم من معشر
أرخصوه ولو اعتاضوا به
يا عبيد المال ، خير منكم
إنني ذاك العراقيّ الذي
إنني أعتد (نجداً) روضتي
باطل الحمد ومكذوب الثنا
وقبيح صيّراه حسنا
أبها المصلح ، الداء هنا
كلنا يطلب ذا حتى أنا
أربّع بالأمس كانت دمنا
عصر ألقاب كبار وكسنى
سمعوا عنهم وغضوا الأعينا
أذني عينا وعيني أذنا
حين نجني ثم ندعو: من جنى؟
وبلغناها ، ولكن بالمني
لم يلومونا ولاموا الزمنا
شَرّوا العار وباعوا الوطننا
هذه الدنيا لقلّت ثمنا
جهلاء يعبدون الوثنا
ذكر الشام وناجى اليمنا
وأرى جنة عدن (عدنا)

أما أحاديث نفسه ومطامح هواه ، فقد عبر عنها باللفظ المونق ،
والاسلوب البكر ، والخيال القصد بين العقل والقلب . ومن يسمع عنه

شيئا لا يجد في أذنيه صدى يتجاوب لشاعر سابق ، ولا نغمة تتردد من لحن قديم ، ولو كان المقام مقام تفصيل وتحليل لذكرت الأدلة ، وسردت الأمثلة ، ولكن حسبي في مقام الأسى أن أذكر أبياتاً تدل بمناها وبمعناها على أن الشاعر الفقيده كان إذا تخلص من كساد التقليد ، وأخفت في مسمعه أصوات الماضي ، عاد إلى طبعه الأصيل وفكره الحر ، فيأتي بالمعنى الطريف في الأسلوب البديع . كقوله في واقعة ، حال تردد في عزمه بين العقل والهوى :

قلبي يريد بلا غبّ زيارتكم والقلب ينهائى إلا بعد إغباب
قضية بقياس الروح موجبة والنفس جنبتنا سلب وإحباب
ما أنت ممن يريد الحب فلسفة - يا قلب - ذات براهين واسباب
تنبيه القلب للسلوى يحركني فنبهت حركات الشوق أعصابي
ما زال في الصلوات الخمس ذكركم نجوى مصلاي أو تسبيح محرابي
لم أدر ما أتهجى ، غير أنكم في اللحن لحنى ، وفي الإعراب إعرابي
قد يحجز الدهر ما بيني وبينكم مذ ساعة فأراها منذ أحقاب
وطالما حرت في وجهه ولم أرني الا وقد علقت يميني بالباب^(١)

وكان للشبيبي رضوان الله عليه ، تجديد في عمود الشعر ، ولكنه تجديد المحافظ لا تجديد المضيع . جدّد في المعاني والأغراض ، وحافظ في الأوزان والقوافي ، فهو يقول على نحو ما قال أبو نواس ، بالامس من قبل :

الى الآن لا يستملح الشعر إن علا ولا يستجد القول إن لم يلفق
قريض طول دارسات وأربيع وشعر جمال سائرات وأينق

(١) الابيات اشبه بشعر الزهاوي ، وفلسفته الباردة ، بل هي من غزل الفقهاء .

مقيّدة أبوابه وفنونه وأدهى دواهي الشعر تقييد مطلق
إذا لم يحنك الشعر عفواً تحامه^(١) وان لم يسمعك الخلق لا تتخلق^(٢)

وهو بعد ذلك كله يؤلف مع الرصافي والزهاري والكاظمي والنجفي
الأوتار الخمسة لقيثارة الشعر العراقي في الثلث الأول من هذا القرن .
على تفاوت بينهم في الجمهرة والهمس والغلظة والركة والضحولة والعمق .
وكان هو من بينهما النوتر الحساس الذي ولا يئله سمع لا يمجّه ذوق ولا
ينكره فن .

أما نثره فهو نثر العالم ، لا نثر الاديب ، لأن النبوغ في الصناعتين
قلما يتفق لأحد .

وميزة الأسلوب العلمي أن يكون لفظه قدراً لعنايه ، وطريقه قصداً
لغاياته ، كقوله مثلاً : « نحن الآن في عصر الشك كما يقول فربق من
أهل الغرب ومن ذلك أن شكنا الآن يتناول حتى أسس الثقافة التي
يربدها معظم الغربيين للشرقيين ، ومن بين هذه الأسس غمز الشرقيين ،
والتنديد تصريحاً أو تلويحاً بقيمة أثرهم في الحياة حتى ضعفت ثقة شباب
الشرق بأنفسهم وببطولة أسلافهم ، وتلاشت في بعض الجهات وحل محلها
الثقة المطلقة بتفوق الغربيين إلى أن نشبت الحرب العالمية الأخيرة وأسفرت
بعد أن ظهرت أسبابها ونتائجها للعيان عن حركة فكرية عامة تجتّاح
الآن أفكار البشر بدون تمييز . ويتوقع أن يكون من هذه الحركة الفكرية
رجوع القوم عن الشطط في أحكامهم على الشرق والشرقيين ، ونسبذ
دعوة التفوق الغربي الموهوم والتسليم بتكافؤ المواهب والكفايات في أصل
فكرة الجنس البشري . فليس في الدنيا من هذه الناحية شرق ولا
غرب ، بل بشر يتداولون التفوق والغلبة وفق أحكام سنة الكائنات

(١) حذف فاء جواب الشرط من تحامه ولم يجرم ، ومن «لا تخلق» : وهي ضرورة لا تجوز .

العامّة .. ولا شيء أفضل في تجديد شباب الشرق ، واستئناف قواه للعمل في سبيل حضارته من رسوخ هذه العقيدة فيه .

وما كتبه في أواخر أيامه قوله لمقدمة كتابه « أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية » : « من أهل زماننا قوم شغفوا بالجديد ، لأنه جديد ، وذهبوا إلى استبعاد القديم من تراثنا في الأدب والفنون لأنه قديم ، والحق يقال إن العبرة في الشعر ليست في حداثة عهده على ما يراه قوم ، ولا في قديم عصره كما يذهب إليه آخرون بل العبرة في هذا الباب بلطف المعنى ، وسلامة المبنى ، وبلاغة العبارة ، وصدق العاطفة ، وجمال الشعور والتصوير . وان من الشعر لما يهز النفس ويرضي الوجدان ، وان من الشعر لما يلهم الصواب ويهدي إلى الحكمة .. فإذا توافرت في الشعر القديم هذه الخصائص ، فهو شعر جديد . وإذا خلا منها الشعر الحديث ، فهو شعر رث عتيق ، هذا ولا أبالغ إذا قلت إنني عاهدت نفسي واخواني الدارسين ألا يجدوا في هذا البحث إلا كل شيء جديد ، جديد في الجوهر والروح ، قديم في الشكل والصورة . وهذا هو أسلم المقاييس في حكمنا على القديم والجديد » . فأنتم ترون - أيها السادة - من هذين النموذجين أن أسلوبه سلس وواضح مقرب لا تغريه تصاوير البيان ، ولا تحليه تحاسين البديع ، لأن التلاؤم والموسيقية والأناقة وغيرها من صفات النثر الفني ، لا تقتضيها أحوال العلوم . والموضوعات التي كان يعالجها فقيدنا الباحث كانت أدخل في باب العلم ، فسبيلها الاقتناع ، لا الاصناع^(١) ، ودليلها المنطق لا الخطابة فمن مؤلفاته : تأريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى اليوم ، وأدب النظر في المناظرة ، وتذكرة فيما عثر عليه من الكتب والآثار

(١) لعلها : الاصطناع .

النادرة ، وفلاسفة اليهود في الإسلام . لخص فيه فلسفة ابن كمونة وابن ملكا ، والمأنوس من لغة القاموس ، ومؤرخ العراق ابن الفوطي ، والمسألة العراقية ، وتاريخ النجف ، وأدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية ، ثم «تراثنا الفلسفي» وهو آخر كتاب طبع للفقيد . ومن بحوثه التي ألقاها في مؤتمر الجمع : النهضة الأدبية في العراق ، والألفاظ الايوبية في كتاب تقويم النديم ، وبين الفصحى ولهجاتها ، وفي فقهه الاساليب ، ومصادر الشك في كتاب العين ، وسنة التطور في اللغة ، وفي تاريخ اللهجة المصرية ، وبلبل اللهجات وأصول اللهجة العراقية ، وابن خلكان وفن الترجمة ، ولهجات الجنوب ، وتراثنا القديم في المصطلحات ، وثقافتنا اللغوية في عصر المغول ، وبين مصر والعراق في ميدان العلاقات الثقافية . وقد سردت هذه العناوين سرداً لأقول إن طبيعتها هي التي فرضت هذا الأسلوب العلمي ، فأبنت بين صيغ الفن في شعره ونثره ..

أما بعد أيها السادة ، فهذا موجز لحياة رجل عظيم ، أقل مفاخرها موضوع كتاب ، وجملة مآثرها تأريخ خطبة ، والرجولة والعظمة صفتان يجمعهما ما أوتي من مناقب ، مصدرها خلقه ، ومواهب مصدرها علمه . كان رجلاً بالمعنى الرفيع الذي يفهمه المذهب من لفظ الرجل ، وكان عظيماً بالمعنى البديع الذي يدركه المثقف من كلمة العظيم ... ولو ذهبت لأحلل حياته إلى عواملها الأولية لوجدتها من الحلال : الصدق ، والصراحة والاباء ، والشجاعة . وهذه هي الرجولة ، وفي الاعمال : العمق ، والشعور ، والاتقان ، والتفرد . وهذه هي العظمة . وفقد رجل كهذا الرجل ، حياته تأريخ ، وعمله رسالة ، وخلق قذوة ، وكفايته ثروة ، خسارة انسانية لا خسارة قومية ، ومصاب أمة لا مصاب أسرة ، وفجعية منفعة لا فجعية عاطفة ..

وكان ، لا ينساق ، ولا يمالق ، ولا يدهي (١) ولا
يداجي ، ولا يقول إلا ما يصح في رأيه ، وهذه الصفات قد تجعل
المصلح عظيمًا ، ولكنها لا تجعله زعيمًا .. ولا أقصد الزعامة السياسية ،
فإن السياسي في أمم الشرق كان إذا تجهز لها بالضمير والمنطق والصراحة
والصدق ، هاجمه خصمه بالأباطيل الفاشية فيظهر عليه . ووقف منه
جمهوره على الحقيقة العارية فينفّر منه . لذلك عجز الشبيبي آخر الأمر
عن التوفيق بين هواه والعامّة ، وبين خلقه والسياسة ، وبين ضميره
والحكم ، فارتد إلى العلم والأدب يؤدي عن طريقهما واجبه ، ويشغل
بطالبهما وجوده ، وفي هذين الميدانين جاهد فأبلى ، وقاد فانتصر ،
وأصلح فزعم . رحم الله ذلك العربي الحر ، والوطني الصادق ، والمجاهد
المخلص ، والوزير النزيه ، والعالم الحجة ، والمجمعي الباحث ، والشاعر
المجيد ، والناقد البصير ، والاديب المطلع . وألهمنا على فقده جميل
الصبر ، وعوضنا من بعده خير العوض ..

(١) لعلها : يداهن .

بين الزيات والراوي

كان استاذنا الجليل طه الراوي كثير الاهتمام بالأساتذة العرب الذين يفدون إلى بغداد ، زائرين ، أو تستقدمهم وزارة المعارف . ويهش لرفقتهم ويفتح صدره وبنته لهم ، يكرمهم ويولم لهم ، ويتعهد مصالحهم ، ويصفي لهم المودة . ولا سيما الأدباء منهم ، والذين يقومون بتدريس العربية . وقد جرى استقدام أكثرهم بدلالته واستشارته ، فله رحمه الله صداقات ومودات مع أحمد أمين والعبادي وإبراهيم مصطفى وعبد الوهاب عزام وعبد الرحمن عزام وزير مصر في العراق وزكي مبارك ومبروك نافع وهاشم عطية وبدوي طبانة ، ومنهم الزيات . وهذه رسالة من الزيات تفصح عن هذه الرابطة :

من الزيات الى صديقه الراوي

القاهرة في ٧ - ٣ - ١٩٣٨

صديقي الاستاذ الجليل السيد طه الراوي .

لا أحب أن أتحدث في هذه الرسالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثر ، وأكن لك في نفسي من عظيم التجلّة ، فان معرض ذلك في خطاب يشبه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي .

فلأترك ذلك اذن الآن ، ولأتحدث اليك حديث رجل يخدم الثقافة لرجل يهيمن عليها في قطر من أقطار العروبة . الرسالة يا سيدي الأستاذ هي المجلة الوحيدة الروحية والثقافية . وتكاد اليوم تكون لساناً للأدب العربي في جميع أقطاره . وهي كذلك تساعد المدرسة على أخذ الناشئة بالأخلاق العربية والأساليب الأدبية ، وفي سبيل ذلك تضحي بالوسائل الصحفية التي تجلب المادة وتكسب النفوذ . فهي لا تتعلق شهوات الجمهور ، ولا تستجيب لرغبات الحكومات ، ولا تعتمد على الاعلان ، ولا تستغل فضائح الناس . عرفت ذلك الحكومة المصرية ، فساعدتها بالاشتراك فيها لجميع مدارسها ومكاتبها بألف نسخة ، وكنت أرجو أن تعطف عليها وزارة المعارف العراقية بعض العطف فتزيد في اشتراكها بعض الزيادة . وقوى في نفسي هذا الرجاء منذ أسندت ادارة المعارف إلى كفايتكم وخبرتكم ، فانكم أعلم الناس بالخدمة التي تؤدي بها الرسالة إلى الطلبة ، لذلك أكتب اليكم هذه الكلمة أسألكم بها النظر في أمر الاشتراك في الرسالة والرواية لعلكم تجدون الفرصة مواتية لإرضاء ضميركم من هذه الناحية ، وإني أقدم إلى الأخ الفاضل خالص تحياتي وموفور شكري .

الخلاص

احمد حسن الزيات

رسالة الاستاذ الراوي الجوابية

أخي الاستاذ الفاضل السيد أحمد حسن الزيات المحترم

تحية مشفوعة بالاحترام : أما بعد ، فاني تناولت كتابكم الكريم بيد الاجلال والابتهاج ، واني لأشكر لكم ما قدفق به شعوركم النبيل



الاديب طه الراوي

تجاه أن يحمل لكم في أعماق نفسه من الود المقرون بالاكبار والاعزاز ما لا قبل للقلم بتصويره . واني لمعجب جد الاعجاب بما تسديه رسالتك للعلم وأهله من خدمات ، وما تجديه عليهم من يانع الثمار مع البعد عن ضوضاء التهويل والتهارش ، ومع المشايعة للحق والمنافعة عن الصدق في أي المواقف كنا ، هذا وقد أشرنا على الدائرة ذات الاختصاص في وزارة المعارف أن تضاعف عدد ما اشتركت به منها ابتداء من أول نيسان^(١) ١٩٣٨ ، وقبل الختام أرجو قبول خالص الاحترام .

المخلص

طه الراوي

الدكتور عاتكة الخزرجي تضمن أدب الزيات :

ليس أندى على قلب المرء ، وأطرب لنفس الأديب والشاعر ، من كلمة طيبة منصفة يقولها ناقد ، أو يكتبها كاتب يقدر بها أدبه ويضمن بها أسلوبه ، وقد أدبنا الله باري النسم وخالق الطبائع بقوله الكريم : «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة : أصلها ثابت وفرعها في السماء»

(١) اشتركت وزارة المعارف بمجلة الرسالة للـمدارس الثانوية والمتوسطة ودور المعلمين والكتليات والمعاهد وبأعداد لاقسامها الادارية والمكتبة العامة . وكانت الرسالة المجلة المتميزة من دون بقية المجلات ، مصرية أو لبنانية أو غيرها . تحظى بإقبال المتعلمين والاساتذة والموظفين . فكان يصرف منها بضعة آلاف اسبوعياً ، وكانت عاملاً مهماً في اشاعة مفاهيم الادب العربي وانتشار الوعي القومي والعلمي معاً ، وكانت سبباً من أسباب ارتقاء النشر الفني وشيوع الاسلوب الفصيح على أقلام الكتاب ، ولا شك ان في اختفاء الرسالة خسارة كبرى للقاريء العربي وللبلغة العربية ، تلام عليه وزارة الثقافة والارشاد في مصر الشقيقة .

والشجرة الطيبة تؤتي أكلها بأذن ربها ، فتنفع الناس والحيوان ، يأكلون من ثمارها ويتفقيئون ظلها ويتنسمون أرواحها ، وكذلك الكلمة الطيبة يقولها المرء لأخيه ، فتدخل إلى نفسه البسمة والرضى ، وتشيع في نفسه البشر والبهجة ، وتمده بالعون ، فيمضي على الطريقة المثلى ، وتشد من عزيمته وتشجعه على صالح الأعمال ، وتنير له الطريق .

والكلمة الخبيثة « كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يبس جذعها ، وتساقطت أوراقها ، وجفت أغصانها ، فلا تصلح إلا للوقود . والكلمة الخبيثة الحاسدة تثبط العزيمة ، وتدخل إلى النفس الظلام ، وتشيع السخط ، وتوهي وشائج الصداقة ، وتوهن الهمة ، وتنشر في القلب الهمّ والغمّ .

وبعد فآداب الزيات جدير بالتقدير ، واسلوبه الرصين قمين بالتمثين . وحق الأكفاء أمثال الزيات أن يقدر أدبهم الأكفاء من أمثال الدكتور الخزرجي . فما زال أدبه يبشر بالفكرة الرصينة ، ويتنوع بالأدب الأصيل ، لا يرضيه إلا الحق والجمال والخير ، ويبشر بالمثل العليا ، ويهدف إلى أحياء وعي عربي سليم . والزيات في رسالته لم يقصد إلى النجاح واجتذاب الجمهور بتملك الرسائل الرخيصة التي يتوسل بها بعض الكتاب في إثارة الجنس واستهواء القراء بالقصص الغرامية ، لاقتناص الربح بأرخص المغريات ، والإسفاف بأسلوب إلى مستوى العمامة . وإنما كان من دأبه أن يرفع الجمهور إلى المستوى الذي يتذوقون به الأدب القويم والأسلوب الفصيح ، ظلت رسالته حلقة تمثل في الأدب المذهب السديد الذي يزاوج بين القديم والجديد ، وتحرص على الرفعة والجدة ، وتؤدي ثقافة سليمة بأسلوب عربي مبين . وقد ثمنت الدكتورة

الفاضلة أدب الزيات بأسلوبها الرصين قبل أن تعرفه شخصياً ، وقبل أن يكتب مقدمة ديوانها ، فكانت بحق كلمة رائعة جاءت تقدير الكفاء للكفاء ، وتضمن الناقد المنصف للاديب الأريب . والدكتورة عاتكة لها ملكتها الفنية وتربيتها الأدبية وحسها المرهف الشاعر ، وقد أوتيت الأداة الصالحة والتميز الصادق لهذا التقويم القويم .

واني لمغتبط أن أضم هذه الباقة العريقة من حديث صاحبة (أنفاس السحر) و (لأل القمر) إلى كتابي .



السلوب الزيات

للدكتور عاتكة الخزرجي

استاذة الأدب بجامعة بغداد

الأستاذ أحمد حسن الزيات أديب كبير من أدباء العرب المعاصرين ، وإمام تَبَت ثقة من أئمة البيان ، في لغة القرآن . وإن الفكر ليحار ، وإن اللسان ليعجز إن أراد أن يحصي بعض ما للرجل من أيادٍ غُرّ على العربية وأهلها في ميادين الأدب والعلم والسياسة . ومآثره في هذه الميادين جميعاً كثر ، ليس إلى حصرها من سبيل .

فالرجل في الأدب إمام من أئمة النثر الفني ، وهو ذو أسلوب أيسر ما يوصف به أنه السهل الممتنع والقريب المحال والمطمع المعجز . ونأهيك بأسلوب هذه سماته وتلك مميزاته .

وإني لأرجو ألا أكون بجانبه للحق إن قلت لك إن الزيات أوضح من الرافعي ، وأسمح من العقاد ، وأوجز من طه حسين . على أن أسلوب الرجل يضم محاسن هؤلاء الثلاثة جميعاً ، أعني متانة الرافعي وعمق العقاد ودמانة طه حسين ، مضافاً إليها سمته هو . وسمت الزيات في أسلوبه شيء فوق الاحاطة ، لأنه فوق الوصف وفوق البيان .

وإننا لنرجو هنا - وحديثنا عن الأديب مرهون بدقائق^(١) - ألا نخفق في محاولتنا وصف أسلوبه ، هذا الأسلوب الذي حسبه من فخر أن يقال فيه إنه أسلوب الزيات ، وكفى .

من حقلك أن تسألني بعد ذلك : ما يكون هذا الأسلوب الذي وصفته لك أول ما وصفت بالسهل الممتنع والقريب المحال والمطمع المعجز ، والذي رفعته فوق الرافعي والعقاد وطه ، أساطين النثر في أدبنا المعاصر ؟ .

الحق أن أسلوب الزيات الأدبي أسلوب فرد ، يتميز بطابعه الخاص الذي يرتفع به عن سواه من أساليب الأدباء قدامى وحديثين ، وهو عندنا أسلوب جامع لأخص خصائص الشعر والنثر معاً ، فله من الشعر خياله الجنج وعواطفه الحادة ووشيه المنعم ، وجرسه العذب ، فهو في جوهره ووشيه شعر لولا أنه غير موزون ، وهو في سمته وهيكله نثر منتظم بارع في نظامه واتساقه ، باهر في فنه وانسجامه ، وهو نثر فني بليغ ، فيه أدق سمات الفن وأجلّ خصائص البلاغة ، وأول ما يسترعي النظر فيه إنما هو إعجازه الواضح ووضوحه المعجز من عمق مركز وتركيز عميق ، وهو بحق أعلى مثل وأرفع صورة للسهل الممتنع القريب المتعذر .. إن هذا الأسلوب إنما جاء ليحقق لنا في البلاغة قول ابن المقفع المأثور :

« البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها فإذا حاول عجز » .

وأسلوب الزيات بالغ الأثر مبنئ ومعنى . فكما كان لجرسه في مسمعيك صدى كذلك كان لمعانيه في نفسك أصداء .. ولا عجب « فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، منزهاً عن الاختلال ،

(١) احسب ان الحديث اذيع اولاً ثم نشر ضمن احاديث الدكتوراة التي كانت تلقى من اذاعة بغداد ..

مصوناً عن التكلف ، صنع في القلب صنع الغيث في التربة الكريمة ، على نحو ما يقول لنا الجاحظ .

والزيات من هيئت له الاجادة بأسبابها ، واتفق له الاحسان بدواعيه ، فواته طبعه وحسه ، وأسمعه علمه وفكره ، وطاوعه بيانه وفنه ، فأخرج لنا هذا الأدب الملهم الملهم ، وهذا النغم المسكر المطرب ، وهذا الفن المؤنق المعجب ، حتى إنه ليحق لنا أن نقول فيه ما قال ابن الأثير بالبحثري ، من أنه : أراد أن يشعر فغنى .

إنك لا تدري وأنت تقرأ الزيات من أين تؤخذ ، أهي براعة الكاتب في انتقاء ألفاظه ومواءمتها وموسيقيتها حتى لكأنه يعالج منها فناً عالياً في الجرس وحسن الإيقاع ؟ أم هي عبقرية في تصيد حساس المعاني وشوارد الأخيلة ودقائق الأفكار وعرضها في هذا الثوب الرائع في الحلي المنعم والوشي الجميل ؟ أم هو فنه المغلق الخفي الذي تبهرك آية وتخفى عليك كوامنه وأسراره ؟ أم هو مزيج بين هذا وتلك وذاك ؟ أسكر الحس وأطرب النفس ، وأعجب الأذن ؟ ونحن إذا آمنا بقول الزيات نفسه من أن « الاسلوب إنما هو خلق مستمر : خلق الالفاظ بواسطة المعاني وخلق المعنى بواسطة الالفاظ » ، وأن الاسلوب إنما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمدّها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ، تكشف لنا بعد ذلك سر تجويد أديبنا الكبير في أسلوبه وانفراده به بين أئمة النثر الفني في أدبنا العربي على توالي العصور . إذ أن قدرة الزيات على الموازنة بين الالفاظ والمعاني ، والتفنن فيها جميعاً قدرة لا يختلف فيها اثنان . هذا إلى توقد في ذهنه ، ورهافة في نفسه ، ورفعة في ذوقه ، قلما تواتي أحداً أو تتفق لأديب .

واني أضيف إلى هذا كله أن السر الأكبر الذي يمكن وراء إعجاز

الزيات في أسلوبه إنما هو أصالته . فالزيات يستقي من نبع ثر وورد صفو ، وماء عذب ، فيه ري للشاربين . لانه يصدر عن ذات أعلى ما يميزها الصدق ، وأعلى ما تزدان به الإيمان ، فليس الزيات الا أصيلاً في أدبه ، مؤمناً برسالته ، صادقاً في تأديتها على الصورة المثلى التي يجب أن تؤدي بها الرسائل العليا . ولا تسئل بعد ذلك عن أدب معينه الطبع لا التطبع ، وقوامه الصدق لا التصنع . وأنا أقول في أسلوب الزيات ما قال ابراهيم بن العباس الصولي الكاتب في شعر العباس بن الاحنف :

« ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة ، ولا أبلغ في إيجاز ، من شعر العباس ... »

وان سألتني بعد ذلك عن أشبه الزيات في أسلوبه بين الادباء ، فأقول لك انه أعجزني أن أجد له الشبه بين الناثرين جميعاً قدامى ومحدثين ، وما أراني أخطأته بين الشعراء ..

ولا تعجبين لهذا القول بعد أن ذكرت لك أول الحديث أن أسلوب الزيات في جوهره ووشيه شعر لولا أنه غير موزون ، ولك أن تسألني من بعد عن هذا الشاعر : من يكون ؟ وأراني أسرع لأقول لك إنه صاحب « سلاسل الذهب الوليد في حلب .. انه الشاعر الذي أراد أن يشعر فغننى » ، صفى المتوكل على الله ، ونجى علوة الحلبية : أبو عبادة الوليد بن عبيد البحرى ، فكللا الرجلين ساحر الأسلوب : يعنى بالجرس ، ويحفل بالموسيقى . وكلاهما يشف عن طبع صاف وفن أصيل ، وكلاهما احتفى باللفظ وما أهمل المعنى ، وورق الخيال وما أبعد عن الحقيقة ، وصدر عن الطبع وما جافى الفن ، وأشد ما يلتقى عنده الأديبان .. احتفاء كل منهما حفاوة بالغة بلون واحد من ألوان البيان .. أريد به الطباق المرسل والمقابلة المستملحة ، واحسانها في ذلك احساناً ما بعده مستزيد زيادة .. احساناً يدفعك إلى الدهش والحيرة ، فما تدري أهى



الاستاذ محمد بهجة الاثري والاستاذ احمد حسن الزيات وعزيز
اباضه وعضوان من
اعضاء جمع اللغة العربية شباط ١٩٧٠

الصنعة التي ما بعدها صنعة ، أم هو الطبع المواثي الذي ما بعده طبع .

وليس أحب إلى نفسي من أن أختار لك من أدب الرجلين الشاعر والنائر ما يوقفك على هذا التشابه الذي ذهبت اليه ، والتوافق الذي أريد لك أن تقرتي عليه . هالك البحري واستمع اليه مستمتعاً بمنعمة وشبه ورقة جرسه وطرب موسيقاه واعجاز مقابلاته المعجبة المونقة .. اسمعه بنفسه ثم يعتب :

يهون عليها أن أبيت متيماً أعالج أمراً في الضمير مكتماً
وقد جاوزت أرض العراق وأصبحت حمى وصلها مذ جاورت أبرق الحمى
بككت حرقه عند الفراق وأردفت سلوا نهى الاحشاء أن تتضرما
فلم يبق من معروفها غير طائف يلم بنا وهنا إذا الركب هوّما
يكاد وميض البرق عند اعتراضه يضيء خيالاً جاء منها مسلماً
ولم انسها عند الوداع ونثرها سوابق دمع اعجلت أن تنظماً
خليلي كفتا اللوم في فيض عبدة أبى الوجد الا أن تقيض وتسجماً
ولا تعجبا من فجعة البين إنني وجدت الهوى طعمين شهدا وعلقما
وأصيد إن نازعته اللحظ رده كليلاً ، وإن راجعته القول جمجماً
ثناه العدا مني فأصبح معرضاً وأوهه الواشون حتى توهمما
وقد كان سهلاً واضحاً فتوعرت رباه ، وطلقاً ضاحكاً ، فتجهما
أمتخذ عندي الاساءة بحسن ومنتمم مني امرؤ كان منما
ومكتسب في الملامة ماجد يرى الحمد غنماً والملامة مغرماً
أعنيك أن أخشاك في غير حادث تبين أو جرم اليك تقدماً
ألست المواثي فيك نظم قصائد هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً
ولو أنني وقترت شعري وقاره وأجلت مدحي فيك أن يتمضماً
لأكبرت أن أومي اليك باصبع تضرع أو أدنى لمذرة فما
ولكنني أعلي محلك أن أرى مدلاً وأستحييك أن أعظمما

وليكن مسك حديثي اليك عن الزيات حديث الزيات نفسه اليك ..
هاكه في قصته عن «نورا» يسمعك البطلة تروي مأساة قلبها .. أستمع
اليها واليه ، وقابل بعد ذلك بين ما قدمنا لك من أبيات أبي عبادة
وبين ما سفلتوه عليك من نثر الزيات .. أستمع اليه يقول على لسان
البطلة :

« وبعد .. فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوهج
ولم تمس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والحال كما ترى تشتد
ولا تخف ، وتستحكم ولا تنفرج ، فهل عندك لقصتي مساع ولازمي فرج؟
والزيات يقول في موضع آخر من القصة نفسها :

« وانقسمت الاسرة بحكم الطباع والغرائز إلى فريقين بيني وبين القنصل ،
فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى
وفريق الحس ، فالبنات وأمنه فريق ، والبنوت وأبوهم فريق ، ففي
غرفتي تجتمع نورا وأختاهما ومعهن الكتاب والبراءة ، وفي غرفة السيد
بكيير يجتمع الياس وأخواه ومعهم الشراب والريبة . »

ويقول الاديب الكبير في صدر فصل من كتابه « الدفاع عن البلاغة »
ما نصه

« آفة الفن الكتابي أن يتعاطاه من لم يتهيأ له بطبعه ، ولم يستعن
عليه بأداته . وأكثر المزاويلن اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها ، أغرام
بها رخص المداد ، رسمولة النشر وإغضاء النقد ، فأقبلوا يتملقون بها
الشهرة ، أو يزجون بها الفراغ ، أو يطلبون من وراءها العيش ، وكل
جهازهم لها ثقافة ضحلة ، وقريحة محلة ، ومحاكاة رقيمة . ومن هنا شاع
المبتذل ، ونذر الحر ، ونفق الرخيص ، وكسد العالي ، وكثر الكتاب ،
وقلت الكتابة . »

ألا بورك بالاديب الكبير وبورك لنا بالمديد في عمره ، ونفعنا الله
بالمزيد من غرره .

الدكتورة عاتكة الخزرجي

كلية التربية ، جامعة بغداد

لألاء القمر :

الدكتورة عاتكة الخزرجي الاستاذة في كلية الآداب ، أديبة ناثرة
وناقدة بارعة وباحثة ناجحة ، وهي إلى ذلك شاعرة رقيقة العواطف
مشجوبة الاحاسيس أنيقة الاسلوب ، وفي قصائدها أقباس من الوجد ،
وأنفاس محترقة من الحب الإلهي في لفظ منمق ، ونغم مونق وشي هو
السحر الحلال . نشأتها دراسة متصلة تدرجت بها وقطعت مراحلها بتفوق
حتى تسنمت قممتها ، وتسلمت شهادتها العليا من السوربون . وخرجتها
ممارسة في النظم والنثر ومعاونة في الدرس والاطلاع على محصول الإنسانية
للأدب الحديث والقديم . طبع أسلوها الرشيق على الطريقة المثلى في فن
القول . أخرجت ديوانها (أنفاس السحر) فقدم له الشاعر الكبير عزيز
أبازطة ، وطبعت ديوانها الثاني (لألاء القمر) فقدم له الاستاذ الزيات .
والدكتورة عاتكة كثيرة الاعجاب بأدب الزيات ، كتبت عنه وهو حي ،
وأبنته بعد وفاته ، وثمنت أدبه ، وقدرت أثره وخدمته للغة العربية
وآدابها . والمقدمة صفحة رائعة من انشاء الزيات الممتع الرشيق ، رأيت
أن أثبت نصها لصلتها بموضوع الكتاب ، فهي جانب من جوانب أدبه
في العراق :

« هذا الديوان الثاني من شعر الدكتورة « عاتكة الخزرجي » أستاذة
الأدب بكلية الآداب من جامعة بغداد ، صدر منذ أسابيع في القاهرة

وقد قدم له الاستاذ رئيس التحرير بهذه المقدمة^(١) :

« في الكرخ نشأت ، وفي الكرخ تعيش . والكرخ منذ تعطر جوه الصافي بأنفاس الملائكة يسبحون بالجمال ويهتفون بالحب على السنة المصطفين الأخيار من المتصوفين والزهاد ، الذين اجتباهم الله ليكونوا حقيقة لشريعته ، وشريعة لحيه ، لا يزال مبعثاً للحب الإلهي المجرد ، وصرحاً للجمال الروحي المطلق ، ومشاراً لذكريات « الجنيد » و « الحلاج » و « معروف » وأضرابهم ممن يتمثلون جمال الله في خلقه ، ويعبرون عن حبهم إياه ، وفنائهم بالرمز الموحى ، والغزل المثير ، فينشئ بباطنه الزاهد ، ويلتقي بظاهره الماجن ، والقصور إنما هو في اللغة المحدودة التي لا تستطيع أن تعبر عن معاني الروح إلا بالفاظ الحسن ، ولا أن تتصور مداخل النفس إلا بمخارج الحروف .

فبينما كانت الشياطين في الرصافة تنزل بالغزل الجسدي الشموان ، على القيان والمجان ، فيجدون الألفاظ الطيبة والتراكيب السمجة ، كانت الملائكة في الكرخ تنزل بالماجد الروحية والاحاسيس العلوية على العباد والزهاد ، فلا يجدون الكلمة المواتية ، ولا الجملة الدالة ، فيصطنعون لغة بشتار وعباس وأبي نواس ، فينعمتون المرأة ، ويصفون الخمر ، ويذكرون السكر والعشق والشوق والغناء ، يرمزون بذلك كله للمعبود الأزلي الأبدى الذي لا يحيط به علم ، ولا يتعلق به وهم ، ولا تعبر عنه لغة ..

فاذا جمعت الى ذلك أن « عاتكة » صريحة النسب في العروبة ، فأبوها خزرجي وأمها عبيدية ، وانها عريقة النزعة في الصوفية ، فجدها

كان يقرض الشعر الصوفي ، وأبوها كان يكثر من المحفوظ منه ، وأنها قوية الفطرة بحسبكم الطبع والوراثة والبيئة على استقبال مواحي الحب واستكناه أسرار الجمال ، أدركت سر هذا التفتح الذهني الباكر في التلميذة عاتكة . وهي على صبوات الذكر في مغاني الكرخ ، وشدوات الطير في أعالي النخل ، وصفقات الماء على غوارب دجلة . كان شعرها في هذا الطور إرهاف شاعر ، ودندنة قيثارة ، وسقسقة بلبل ؛ ثم لم يلبث أن صار بقوة السليقة وسخاء القريحة وفيض الجاطر وعمق التأمل واكتمال الاداء ، أغاريد صباية ، وأناشيد حماسة ، وتراويل أرغن ، وتسابيح صلاة . إن الينابيع الصافية الثرة التي ارتوى على فيضها واغتدى على جناها شعر الدكتور عاتكة ، هي : الله والطبيعة والنفس والينبوع القدسي ، هو أُندي على كبدها وأروى لشعورها من الينبوع النفسي والينبوع الطبيعي ، لأنها حين تصف النفس أو تصور الطبيعة يتمثل فيها بديع السموات والارض الذي أحسن كل شيء خلقه ، ومنح كل جميل جماله .

بالذي رقرق الصباية في القلب ووشى بالحب اثناء نفسي
والذي أبرأ الحنايا وأصفاها صفاء الأنداء في ضوء شمس
أنت عندي معنى به أجد الله حياي في الصبح أو حين أمسي^(١)

وإذا تقسم دواها خواطر النفس ، وظواهر الحس ، فقالت في النخل والنهر ، ونوّهت بالوطن والانسان ، وغنت بالحب والحبيب ، فذلك لأن الحب من طبيعة قلبها ، يصدر عنها كما يصدر العبير عن الزهر أو النور عن السراج ، لا يقصد به سمعاً بعينه ، ولا بصراً بذاته ، إنما هو الحب للحب ، والعبق للعبق ، والفناء في الوجود واللذة في الأم . وكثيراً ما يضيق جسدها المشفوف بقلبها المشفوف كما يضيق الغلاف البلوري الشف بوهج المصباح المحرق ، فتقول :

(١) ديوان انقاس السحر .

أنا أهواك يا دنياي أم ذلك قلبي شأنه العيش، ولا عيش له من دون حب
 انه يحيا... وان كان بحياه عذابي سادراً نشوان يحسو المحرم من كرم شباب
 إنه ريان لا يعنيه من يشكو الأواما آه لو عظمت، حتى ولو كنت الخطاماً

إن الشبابة من قصب ، ولكن اللحن من نار ، فكلمها نفخت فيها
 من روحها ذاب قلبها في حبها ، فتئن أو تحن أو تشكو أو ترجو أو
 تثور بألفاظ منسقة كالنغم ، موزقة كالزهر ، منمقة كالوشي . تسري
 فيها المعاني الشاعرة سريان النشوة في الرحيق ، أو الفوحة في الطيب .
 فأسلوبها نسق مطرد من الفكر والخيال والعاطفة ، يصقله طبع وذوق ،
 ويقومه درس واطلاع ، فلا تجد فيه ما تجد في أكثر الشعر النسوي
 من قلق في لفظ ، أو نبو في قافية ، أو غموض في معنى ، أو تجوّر
 في قياس ، أو شدوذ في غرض . ولقد وقاها كل ذلك تذبذبة عربية
 قوية ، ودراسة أدبية عميقة ، ومراعاة فنية طويلة ، وحسيلة متخيرة
 من روائع الشعر الخالد ، طبعتها على الأسلوب الصحيح ، وهدتها إلى
 الطريق الواضح ، وعصمتها من الزيغ الذي أصاب نفرأ من الشعراء
 والشواعر ، فسموا العجز فناً والنثر شعراً والقوضى طريقة . فهي تتصرف
 في المضمون الشعري تصرف الفنان المتطور الحر الذي يواكب ركب
 الحضارة ، ويتعمق أسرار الطبيعة ، ويتقصى أطراف المجتمع ، ويدفع
 المتخلف بفكره إلى امام ، ويرفع المتدلي بشعره الى فوق . ولكنها تقف
 في الشكل الأدبي عند الخصائص التي تميز أدباً من أدب ، وتفصل جنساً
 من جنس . فهي تعدد في الأوزان ، وتنوع في القوافي في حدود الأوتار
 الستة عشر التي تتألف منها قيثارة الشعر العربي .

وما كان لابنة بغداد ، وفتاة العروبة ، ومريدة العلاج ، وصاحبة ابن
 الأحنف ، وربية المعلمين ، وخريجة السربون ، وأستاذة الأدب ، أن

تتذكر لأدبنا ، وتمرد على شعرنا طمعاً في اقتحام الأدب من الباب الخلفى ، واكتساب الشهرة بالرأى المخالف ، فإن موهبتها الأدبية ومنزلتها الاجتماعية وثقافتها الجامعية ونتائجها المتصلة لترباً بها عن التحلي بالعطل ، والتفرد بالشذوذ .

تهيات لي الفرصة مرتين أو ثلاثاً للقاء صاحبة « أنفاس السحر » و « لآلاء القمر » بالقاهرة .

وكانت اللقيا الاولى وهي على وشك الرجوع إلى بغداد فلم يكن بين السلام والوداع إلا بعض ساعة ، تبادلنا فيها التحايا ، وتهاديننا الكتب وتذاكرنا الادب بالقدر الذي يشير ولا يعرف . ثم عادت الى الكرخ وفي نفسها أن تزيدني معرفة بها ، وعلماً بأدبها ، فكانت ترسل الى ما تجيد من شعر ، وما تصدر من بحث ، فأنشره في الرسالة ، ومن طريق هذا الاتصال الادبي المتجدد استطعت أن أعرف أي كاتبة كانت ، وأي شاعرة تكون .

فأما الشاعرة فلعلك تستخرج رأبي في شعرها من جملة هذه الكلمة ، وأما الكاتبة فالامر بينهما وبين الشاعرة جسد مختلف . الكاتبة تستمد موضوعها من الحقيقة التي يشبها العلم ، ويؤيدها المنطق ، ويصقلها الطبع ، فالتعبير عنها واضح لا مبهم ، مفصل لا مجمل ، مقيد لا مطلق ، مجسد لا مجرد ، كما تراها في كتابها القيم عن العباس بن الاحنف . والشاعرة تستنبط شعرها في الغالب من وعيها الباطن لا من حسها الظاهر . فهي تعبر عن حب لا صورة له ، وعن معنى لا ذات فيه ، وأحياناً يدق الخيال ويرهف الحس ويصدق الحدس ، فيجتمع في غزلها وضوح الصورة ودقة العبارة وقوة التأثير . فيقول الناقد الذي لا يؤمن بصوفيته : إنها تدخل في الغزل باعتباره باباً من أبواب الشعر لا مجرى من مجاري الشعور ، فهي تعبر بالفن لا بالوحي ، وتؤثر بالصنعة لا بالطبيعة ، ومهما

يكن الاختلاف في عاتكة بين الكاتبة والشاعرة ، فإنه لا يتطرق إلى .
بلاغتها في الحالتين وبراعتها في الصناعتين ، وقدعياً قالوا إن إجادة النثر
والشعر قلما تتفق لاحد ، وصاحبة الانفاس من هذه القلة .

أما اللقيا الثانية فكانت منذ أيام في فندق البرج على النيل ، وكان
قد مضى على اللقيا الاولى قرابة عام ، توثقت فيما بيننا صلة الادب بما
تحدثت عني في الرسالة والإذاعة ، وبما قرأت لها من المقطعات والمقالات .
فلما التقينا ، التقينا على ألفة ، وجرى بيننا الحديث كأنه صلة حديث انقطع لا
بداية لحديث نشأ .

ثم أخرجت من حقيبتها مخطوطة ديوانها الجديد «لألاء القمر» ،
وأخذت تنشدني بعض مقطعاته ، وأقول (تنشدني) لأن إلقاءها المطرب
المعجب ، بصوتها الرخيم وجرسها الواضح ، ونبرها المجهور ولهجتها المعبرة ،
كان أشبه باللحن الموسيقي في حسن تنويعه ، فاذا أضفت إلى ما تسمع
بعض ما ترى من أناقة في الشكل ولباقة في الدل وسحر في الجاذبية ،
تذكرت أو تصورت « ممي » ، وهي تحدثك حديثها الشهي الذي يمتزج
بالقلب والروح ويتصل بالعقل والعلم ، وتيقنت أن الله جل شأنه لن
يخلي دنيا العروبة من (ممي) ما دام في الارض حياة ، وفي الناس حي .

من ذكريات بغداد

نشر الاستاذ الزيات ثلاث مقالات بمجلة العربي الكويتية في الاجزاء ٤١ و ٤٢ و ٤٣ من سنة ١٩٦٢ ، اشتملت على ناحية خاصة من حياته التي قضاها في بيت أسرة مسيحية معروفة ، دله عليها صديقه رفائيل بطي صاحب جريدة البلاد ويونس بحري صاحب جريدة العقاب ، وحبذا له العيش في هذا المنزل القريب من وسط العاصمة ، لا يبعد كثيراً عن مدرسته إلا مسافة يقطعها ماشياً بدقائق ، والسكنى مع هذه العائلة توفر عليه كثيراً من النفقات التي يتطلبها الفندق ، وتوفر له الهدوء وراحة البال وتبعده عن ضجة الفنادق وإفلاق الزوار . والكاتب والمدرس المغترب يحتاج إلى كل ذلك ولا سيما وهو يعيش مفرداً لم يصطحب زوجته . والأسرة التي أقام عندها الزيات أسرة مريحة مفتوحة خدومة . ولا حاجة بي لشرح أحوالها وقد أغناني عن سرد خافيتها وبادها قلم الزيات ، فلأترك له الكلام :

* * *

« في سنة ١٩٣٢ ، وهي السنة الأخيرة من سني الثلاث في بغداد كنت أعيش في أسرة مسيحية تؤث في دارها الوسيعة غرفتين أو ثلاثاً لينزل فيها من تصطفهم من نزلاء العاصمة .

كانت هذه الدار كسائر دور بغداد تتألف من طابقين يدوران على

فناء سماوي رحب ، يشتمل الأسفل على ردهة يسميها العراقيون « طارمة » وسرداب أصمّ تلوذ به الأسرة في الصيف من وقد الحر ، ومرافق الدار من حمام وسقاية ومطبخ . ويشتمل الأعلى على بهو فسيح الأركان فخّم الأثاث ، تغطي أرضه مجموعة متخيرة من سجاجيد ايران ، وتزين جدرانہ ونوافذه طنائفس الحرير وستائر الخمل ، ويتصدره « بيان » عريض نضدوا عليه تحفًا من تمائيل المرمز وبراويز الأبنوس ، ونثروا على الكراسي القريبة منه آلات الموسيقى من عود وكمنجة ودف وناي . ويتوسطه منضدة دقيقة الصنع أنيقة المنظر ، قد وضعوا عليها ما يحتاجه لاعبو « البردج » و « البوكر » ، ثم يشتمل بعد ذلك على ثاني غرف لنوم الأسرة والنزلاء ، تتلاصق وتتناسق في صف واحد على مشى دائري يطل على الفناء ، وقد صفوا على حواشيه مقاعد طويلة أو قصيرة لمن يريد أن يتصل بالسما ، أو يتمتع بالهواء ، على نحو ما تجد على ظهر الباخرة (١) .

أما الاسرة فكانت تتألف من زوجين كهلين ومن ثلاث بنات وثلاثة بنين . وكان سر الوراثة الذي يجعل من الزوجين الاسودين من الكلاب الطليقة ستة جراء فيها الاسود والابيض والأبقع والاصهب والاغبر والاشهب والاشقر ، قد جعل من هؤلاء الأولاد الستة تشكيلة عجيبة من الصور والألوان والطباع ، لا يشترك في شيء منها أخ وأخ ، ولا أخت وأخت ، ولكنهم يشغفون جميعاً في الأولاع بالموسيقى والنبوغ في العزف على آلاتها المختلفة .

(١) هذه البيوت المقورة المكشوفة الفناء كانت هي الشائعة في بغداد القديمة . أما اليوم فقد شاع الطراز الغربي ، واختفى السرداب والحوش المكشوف واستعيز عنها بوسائل التبريد الحديثة .

فيوسف الاخ الاكبر ، هدف للرابعة والعشرين من عمره ، أزهر اللون أشقر الشعر ، بمشوق القامة ، فسيح الوجه ، ينظر فيكسر من عيظه ، ويبتسم فيضم من شفتيه ، ويتكلم فيغيض من صوته . فلولاً أن الشعر قد أخذ ينبت على عارضيه وشاربه لقلت إنه فتاة في رونق الشباب وميعة الانوثة . يعلم الموسيقى في المدارس والبيوت ، ويعزف الالحان في السوامر والاندية .

وكان « ألفريد » طريده في العمر ، قمحي اللون تشوبه صفرة الخمر ، مالح القسبات ، تشيع فيها جاذبية قوية ، أسود الشعر ، تجتمع منه خصلة على جبينه المصقول قد فرّقا عند فوده الایسر ، في قده طول ، وفي صوته غنة ، وفي حركاته مرح ، وفي هندامه أناقة . وهو لا يزال طالباً في إحدى المدارس الثانوية الفرنسية . بينما « ألبير » أصغر الاخوة ، وضيء الطلعة شاحب اللون دقيق البدن ، يسيل شعره الاصفر المغدودن من وراء أذنيه على قذاله ، هادئ الطبع خفيف الظل شاعري العواطف ، يقعد ، على الرغم من صغر سنه ، مع أخيه الاوسط في فصل دراسي واحد .

أما البنات فكانت عند نزولي على الاسرة اثنتين ، « مرجريت » وهي فتاة في ربيعها السابع عشر ، مسنونة الوجه ، مرسله الشعر ، طويله العنق ، مسحاء الثدي ، تميل إلى الطول ، وتقف وسطاً بين النحيفة والبدنية ، ولعل محيّاها المظموس لا يوحى اليك شيئاً من ذكاء ، أو أثراً من عنديسة ، ولكنك إذا جالسيتها أو لابستها لا تعدم أن تسمع منها حديثاً يتمتع ، وأن ترى فيها خلة تعجب .

وثانيتها « جورجيت » صغرى الاخوات ، صبية لا تزال في عمر البدر ، مطهمة الوجه ، بضة البشرة ، ممتلئة البدن ، في جفניה انتفاخ ،

وفي شفتيها غلظ . ولكنها على قلة حظها من الجمال ، لطيفة الروح ،
فكهة الحديث ، مرحة الطبع ، تتكلم ولا تستحي ، وتمزح ولا تعف .
وهي مع أختها الوسطى بمدرسة امريكية للبنات في حي « باب الشيخ » .

تلك هي الصفات البارزة المميزة في أولاد هذه الاسرة ، رسمتها
خطوطاً مجردة من غير تظليل ولا تلوين ، لتبين على التقريب الفروق الخلقية
بين بعضهم وبعض . وإذا كان شكل الجسم من الحسن والقبح ، ومن اللطف
والغلظ ، ينم عن طبيعة الروح من الخير والشر ومن الطيبة والخبث ،
فان هؤلاء الاولاد من بنين وبنات ، يختلفون اختلافاً بيناً في الخلق
والطبع والسلوك والنزعة . فمنهم المخادع الحصيف الذي يسعى المال من كل
طريق ، والمماجن الظريف يطلب اللذة من أي نوع ، والفنان الرقيق
الذي يعشق الجمال في أي صورة ، ومنهم الساذجة السهلة التي تصدق كل
خبر ، وتفشي كل سر ، وتلي كل طلب ، ولا يهمها أن تخرج مع سيد
أو خدام ، والطائشة الوقحة التي جعلت همها اللعب والحلوى ،
ودأبها العبث والضحك . ولا يختلف عندها أن تنال ما تريد بالحق
أو بالباطل .

لا يمكن أن تنشأ في هؤلاء الأولاد هذه الفروق الظاهرة والباطنة
من فعل الوراثة القريبة المباشرة ، فإن الوالدين يعقوب وماري لم يجعما
في أخلاقها الشيء ونقيضه ولا المعنى وضده ..

فالزوج من رجال الاعمال المجددين ، يتصرف لعياله في التجارة ،
يتقلب من صنف إلى صنف ، ويضطرب من أرض إلى أرض ، لا يدخر
جهداً ولا يضيع فرصة ، يصدر الجلود والتمور ، ويستورد الآلات
والسلع . لا يتقيد بصنف واحد ولا ببلد معين . وإنما يتقيد بحاسته
التجارية التي تهديه إلى سلعة اليوم وحاجة المستهلك . له مخزن للحفاظ

وليس له متجر للعرض . وسبيله في البيع أن يستعين بالوصولية والميكافلية على إقناع ذوي النفوذ في الوزارات والشركات أن يشتروا بضاعته جملة . وهو من مخلفات العهد التركي في العراق ، يتكلم التركية ، ويلبس الطربوش ، ويحسن إحناء الظهر عند السلام ، ويتقن إذابة الماتى في الكلام ، ويعرف كيف يدخل إلى هواك ورضاك من الباب الذي يؤدي . والزوجة من ربات البيوت الصالحات ، يظهر عليها كلال السنين الخمسين ، وعناء الحياة العاملة . وهبت نفسها لخدمة زوجها وبنيها ، لا تكاد تخرج من البيت ولا من المطبخ . على أن كثرة عمالها وطول همها لم يحميا جسمها من الشحم ، فتراكب لحمها واسترخى ، ثم اعتراها على الكبر صمم خفيف ، فزهدت في الاجتماع بالناس ، واكتفت من نعيم دنياها برؤية أولادها وزوارها ، يمثلون على عينيها الجانب البهيج المرح من الحياة . كانت لا تشارك في الحديث لأنها لا تسمع أكثر مما يقال ، ولا تدخل في اللهو لأنها لا تعرف أكثر مما يلعب ، إنما كان دورها في حفلات الدار أن تعد الحلوى ، وتهيئ المزة ، وتقدم الشراب ، وتعنى براحة السامرين والسامرات ، فلا يشوب صفوهم كدر ، ولا يدرك لهُم نقص .

كانت «ماري» طيبة القلب ، ولا تذكره حتى العدو ، وكانت سمجة القياد فلا تعارض حتى في الضرر ، وكانت ضيقة الثقافة فلا تنظر حتى في الصحيفة . كان مصدرها الوحيد الذي تستقي منه العلم والخبر والرأي هو زوجها يعقوب حين يخلو أحدهما إلى الآخر في غرفة الطعام بعد انصراف الأولاد كلٌّ إلى شأنه .

كانت هذه الدار بعد ضجة الصباح وخروج الوالد وأولاده إلى العمل أو إلى العلم ، تسكن سكون الدبر ، وتوحش وحشة الطلل فلا تكاد تسمع صوتاً ولا حركة .

كانت السيدة والطاهي يعملان في صمت ، وكانت الخادمة والخادم ينظفان في سكون ، وكنت أنا في الغرفة أو في الشمس أقرأ أو أكتب أو أنام . ثم تعود الحياة فتلتعش وقت الغداء ، ولا تلبث أن تهمد . فإذا أقبل الليل أمست الدار ، ردهتها أو سردابها أو بهوها على حسب الفصول ، مقصفاً لا يشبع من القصف ، ومقصفاً لا يفتر من العزف ، ونادياً لا يكف عن اللعب . يوسف يدق بأنامله العشر على معزف البيان ، وألفريد يغمز بريشته المرهفة على مضرب العود ، وألبير ير بقوسه المشدود على أوتار الكمنجة ، ومرجريت وصواحبها من حسان الجيران والأقارب يراقصن الزائرين والمدعوين . فلا تخرج إحداهن من ذراع شاب إلا لتدخل في ذراع كهل . وفي الأركان المختلفة من الصالون يجلس هنا بعض أصحاب النفوذ في الوزارات أو الشركات ، يقارعهم يعقوب الكأس ، ويفاوضهم في صفقة ذات وجهين من صفقاته العظيمة : وجه لهم ووجه له ، ويجتمع هناك بعض أرباب اللهو من الشباب : يعايشون الفتيات ، ويتسابقون إلى قلوبهم بالنظرات المعبرة والكلمات المغرية ، وبين هنا وهناك تجلس مع الأم امرأتان أو ثلاث ممن ودعن الصبا والغزل ، يثرثن في أخبار النساء وأسرار البيوت ، ويقبل عليّ رجلان أو ثلاثة ممن قصد بهم الحياء على هامش الحفلة يخوضون في حديث الأدب والسياسة .

فإذا انقضى الهزيع الثاني من الليل ، وقضت النفوس حاجتها من اللهو العازف والراقص ، انصرفت طائفة ، وتحلقت طائفة أخرى حول موائد الحظ يلعبون « البوكر » ، ويتبادلون السعد والنحس ، ويتقارضون الرضا والسخط . والمتفرجون من الرجال والنساء ينظرون « الفيشات » تتجمع وتتفرق أمام اللاعبين كأنها كئبان الرمل في يوم عاصف تنقلها رياح الصحراء من هنا فتكومها هناك ، فيبتج قوم ويكتئب آخرون ،

الا الزوجين يعقوب وماري ، فقد كان ابتهاجها لا ينقطع ، لا في الربح ولا في الخسارة ، لان حصّة المائدة من القهار (الوار) كانت تضاف إلى حصيلتها في كل دور على أي حال ..

وهكذا كان صاحب الدار ، بفضل بنيه وبناته ، يستفيد من طائفة الزائرين جملة من الوعود يروج بها سوقه ، ومن طائفة المقامرین حفنة من النقود يصلح بها أمره .

ثم عرج الزيات على وصف قنصل لدولة من الدول الإسلامية كان يسكن في الجهة الجنوبية من الطابق الاعلى . من غرفة نائية كانت تحمر في أكثر الليالي ، لم يجد الزيات من نفسه دافعاً إلى أن يصل ما بينه وبين ذلك القنصل بسبب المودة ، وربما كان منشأ ذلك النفور سلوك ذلك التنصل المبثلي بالشذوذ والقدارة ، وليس له علاقة بالقصة أو بالاسرة ، لذلك لا أجد داعياً لفضح أمره وان كان الاستاذ الزيات لم يتحرج من كشف حاله ، ثم قال الزيات :



حسبك ما ذكرت من التعريف بالدار والاسرة ، ولعلك قد تهيأت الآن إلى أن تسمع القصة :

في فترة القيلولة وهي فترة يخشع فيها الصوت والحركة عادة في جميع البيوت ، ولكني لم أكد أجتاز الدهليز الطويل المظلم حتى رأيت الردهة المهجورة قد أخذت زخرفها من الوجوه الحسان من الجنسين ، والضحكات الرقاق والغلاظ يتجاوبن فيطردن الوحشة عن صحن الدار ، والام وأولادها يخطرون في زينتهم بين المقاعد ، يؤهلون ويرحبون بالزوار . فألقيت على الحضور نظرة عابرة ، ثم أومأت بالتحية الخاطفة إلى من

وقع بصري عليهم من أعرف ، وأخذت طريقي إلى غرفتي الخاصة . وبعد قليل أقبلت الخادمة على عادتها تحمل إليّ دورقاً من الماء المثلوج ، فسألته عن سبب هذا الحفل في هذه الساعة ، فقالت : إنّ الأنسة «نورا» قد عادت من دمشق منذ ساعتين ، وقد قدمت معها عمتها وبناتها ، وهؤلاء هم مستقبلوهم من الأقربين والمحبين والمعجبين ، وعددهم يزداد من لحظة إلى لحظة .

«نورا» آه ، لشدة ما لهجت ألسن الأسرة بهذا الاسم ، ولطالما تحدث الزوجان بإسهاب وإعجاب عن صاحبة هذا الاسم . لقد عرفت عن «نورا» بالسمع ، مثل ما أعرف عن مركريت وجورجيت بالعيان .. عرفت أنها البنت الثالثة الكبرى ، وأنها تطلب العلم منذ أربع سنوات في مدرسة ثانوية للراهبات في دمشق ، وأنها تقيم مع عمتها بباب توما ، ولم تعد إلى بغداد زائرة منذ عامين ، وأنها على حظ عظيم من الجمال والذكاء والعقل والحساسية والانوثة ، قلما تؤاها فتاة في سن العشرين ، وأنها مخطوبة بالوعد لشاب من موظفي البنك العثماني عرفته فيمن يكثر من التردد على مجلس هذه الدار ..

لم أجد في نفسي الرغبة الملحة في أن أنزل لأهني الأسرة بقدميها وأشارك القوم في الاحتفال بها ، فقرأت قليلاً ، ثم نمت . وفي المساء عاد الحفل فانتظم في البهو الواسع ، فدخلته فيمن دخل ، وقسّم إليّ الأب يعقوب ابنته «نورا» ومن قدم من معها من قريباته ، فسلمت الفتاة في استحياء ، وغضّت من بصرها وهي تتمم بالعبارات المألوفة عند السلام والتعارف .

لم تبدأ هذه الليلة كسائر الليالي بالرقص والنحر ، لتنتهي كالعادة بالوجوم والقمر ، وإنما بدأت وانتهت بالأنس الخالص واللهو البريء .

تشاجن فيها الحديث عن موضوعات شتى في العادات واللاهجات بين سوريا والعراق ومصر ، وكان جلّ الحديث واقعاً على العمة اللبقة التي تدير فندقاً كبيراً في سرة دمشق ، وعلى تاجر فككه يكثر التصرف والتقلب في أقطار العروبة .

وكانت «نورا» كالمروس على المنصة : تسمع في صمت ، وتنظر في خفر ، وتتكلم في وقار ، وكنت أنا مثبت العينين مفتوحهما في وجه «نورا» لا أكاد أطرف ، مصيخ الأذنين مرهفهما إلى حديث المتحدثين ولا أكاد أعي . كان وجه «نورا» جملة من القسما الحلوة ، والملامح المعبرة في صورة من الفن الإلهي المبدع ، لا يقع مثلها في الإمكاني لإزميل مثقال ، أو ريشة مصور ، أو قلم شاعر . ولا تظن فيما قلت مبالغة من زخرف الحديث ، فان كل من رآها يعترف بأنه لم يجد لها مثيلاً فيما رأى أو سمع ، وليس لإقبال الشباب أو الكهول على الاحتفال بها والارتياح لها سرّ ، إلا جمالها الفائق وجاذبيتها الطاغية .

ربما لا يجد المتحذلقون من خبراء الجمال جسمها منطبقاً على مقاييس الفن إذا أخذوه عضواً عضواً ، ولكن الروح التي تنبث فيه ، والفتنة التي تنبعث منه ، والعذوبة التي تهيم عليه ، شيء يسمو على المقاييس ، ويخرج من دائرة الفن . لم أكن أنا وحسدي الذي انعقد نظره بوجه «نورا» واشتغل قلبه بحسنها ، وإنما كان أكثر الجالسين يُنقلون أبصارهم عند الضرورة من شخص الى شخص ومن شيء إلى شيء ، ثم يعودون فيضعونها على محيّا «نورا» . أما الأم فقد كان يظهر من نظراتها وبسماتها أنها تقيه على النساء بأنها ولدت هذا الحسن . وأما الأب فقد كان يبدو ، من هيئته ولهجته ، أنه يفخر على الرجال بأنه أوجد هذه الفتنة . وأما الخطيب فقد كان يلوح ، من حركاته وكلماته ، أنه يزهي على الشباب بأنه استأثر بهذه التحفة .

ولندع بعد ذلك الحوادث تتوالد وتتوالى في الأيام التي ستعاقب على هذه الليلة .

أصبحت « نورا » مركز الجاذبية في الدار ، فحيثما تكن يتهافت عليها الناس من العشيبة والجيرة ، وكانت لهذا التهافت في الأيام الأولى أسباب تختلف باختلاف السن والطبيع والحالة .

فالاختان وأترابها كنّ يتطلعن إلى أن يعرفن منها ما استحدثت من ضروب الزي والزينة في سورية ولبنان ، والأخوة ورفاقهم كانوا يتوقون إلى أن يسمعوا شيئاً من صيوات الشباب وخنوات الهوى في دمشق وبيروت ، والوالدان وأقرباؤهما كانوا يحاولون أن يكشفوا سرّ هذا التغير الذي طرأ على نفس « نورا » فهي لا تدرج حديث ، ولا تهش لزائر ، ولا تنبسط للهوى ؛ وكان عهدهم بها أن لسانها الخلو لا يكف عن الدعابة ، وأن وجهها الطلق لا يفتر عن الضحك ، وأن روحها اللطيف لا ينقبض عن الأنس ..

وكنّت لاحظت ، وأنا بعيد ، أن الصلات الواهنة بين أعضاء هذه الاسرة قد عادت إلى طبيعتها من الإحكام والوثوق منذ عادت هذه الفتاة . كان أفراد هذه العائلة أشبه بنزلاء الفندق ، يضمهم بناء واحد ، وتجمعهم مائدة واحدة ، ولكن لكل منهم عمله وبيئته وخطته ووجهته وغرضه . فلما عادت « نورا » كانت كالحيط الذي ينظم العقد المنثور ، والروح الذي يمسك الجسد المنحل . ولعل السر في ذلك أن انزع بطبعه يحب في غيره ما ليس فيه . فالجبان يحب الشجاع ، والقبيح يحب الحسن ، والهيوب يحب الجريء ، والعبي يحب الفصيح . ولهذا كان الابطال محبوبون الابطال والآلهة . والله قد كمل « نورا » بما نقص أهلها من جمال الجسم والروح ، فهم يحبونها جميعاً ، ويرون فيها الجزء المتمم لكل منهم ،

والحب سر التجاذب ، والتضام في الكون كله ، هو الذي يجعل من حبات الرمل جبلاً ومن قطرات الماء بحراً ومن أفراد الناس أمة .

لم أر «نورا» قبل اليوم حتى أدرك ما أدركوا من الفروق بين ما كانت عليه وما صارت اليه ، الا أن ما رأيت منها كان يختلف كل الاختلاف عما سمعت عنها ، كانوا يقولون إنها بهجة الدار ، وزينة البهو ، وروح الحديث ، ولحن البيان ومرح الرقص . ولكني أراها منذ قدمت ساهمة الوجه تطيل السكوت ، مضطربة البسال تطلب الهدوء ، ضيقة الصدر تؤثر العزلة . وعبثاً حاول أهلها أن يوقظوا فيها رواقد اللهو ، وأن يشعروها أن يجانبها خطيبها برّح به الشوق ، وثقل عليه الانتظار . فمن حقه أن يجاس اليها وأن يخرج معها . وأقام أبوها حفلة ساهرة في الطابق الاسفل من الدار . وكانوا قد أنزلوا اليه الفرش والاثاث من الطابق الأعلى في أواخر مارس حين يبدأ الصيف في بغداد . وينقلب البيت فرناً من غير وقود ، والهواء لهباً من غير دخان ، ففصت الردهة والفناء والسرداب بالمدعويين من رجال المال والاعمال واللهو ، تصحبهم نساؤهم وبناتهم في بزاتهن الجميلة وزينتهن الرائعة . وكان الخواجة يعقوب قد أراد باقامة هذه السهرة الراقصة أن يحتفل بأخته السيدة (صوفي) ويرجو من وراء ذلك أن يدخل الانس على قلب «نورا» وأن يخرج إلى النور بعض السلع التي طال عليها الرقاد في ظلام الخزن . وكانت منية النفس لكل حاضر أن يظفر من «نورا» بكلمة أو جلسة أو عزفة أو رقصة . ولكنها الأمر ما أعرضت عن الاركان الصاخبة في الحفلة ، وأقبلت على عجائز أمها فجلست اليهن قليلا ، ثم انتقلت إلى الركن الهادي الذي أجلس فيه مع الاستاذ رفائيل بطي عميد الصحافة العراقية وبعض المتأدبين من الشباب ، وأخذت مجلسها يجاني .

وكان الاستاذ رفائيل (عليه الرحمة) واسع العلم بأحوال البلاد العربية

ورجالها ، فلا يغيب عن ذهنه خبر ولا أثر من أي كاتب أو شاعر أو أديب في مصر ولبنان وسورية . فكان الحديث بيننا شجوناً من النوادر والطرف ، أخرجنا من جو الحفلة . فلما انضمت الينا «نورا» ، اتجهت نحونا الانظار ، فשמعنا ثانية بأننسا أفراد من هذا الجمع المضطرب في اللهو والانس ، فلا بد أن نرجع إليه ونشارك فيه ، ولكن «نورا» آثرت أن نخوض فيما كنا فيه من الحديث عن مصر ، فان أحب الاحاديث إلى قلبها ، كما تقول ، ما اتصل بها وبأهلها ، وانها لتعرف عن أخبارها وأسرارها أكثر مما تعرفه عن أي بلد آخر . وأخذت هذه الفتاة المنقبضة الصوت تبسط أسارير وجهها بالضحك ، وتحل عقدة لسانها بالكلام ، وتروي الخبر بعد الخبر ، وتورد النكتة بلهجة مصرية لا يشوبها إلا نبرات يسيرة من لهجة دمشق . فقلت لها ، وأنا لا أملك نفسي من الدهشة : هل زرت مصر كثيراً ، وعشت في القاهرة طويلاً ؟ فقالت في نبرة تنم على الاسى والاسف : « لم يكتب لي الله هذه السعادة بعد » . قلت لها : إذن كيف تهيأ لك أن تعلمي هذا العلم ، وأن تتكلمي هذه اللغة ؟ فتشأغلت عن سؤالني بغمغمة خافتة ، ولم ترد أن تجيب .

وكان كلامها وضحكها قد ظهر أثرهما على بعض الوجوه ، فعجبوا أن تستوحش في مكان فيه الخطيب والقريب ، وتستأنس في مكان فيه البعيد والغريب . وكانت الام ماري وصواحبها قد أقبلن على العمة يسألنها عن سر هذا الاكتئاب الذي أصاب «نورا» فأمات فيها الشعور بمتاع الحياة ، فقالت العمة ، وهي تخافت من صوتها : « أما السر فلا يعلمه إلا الله ، ولقد اعترتها هذه الحال منذ اكثوبر الماضي فعرضتها على الطبيب ، فقال : إنها مريضة بالقلق النفسي من الإرهاق أو الهم ، وتفيدها الراحة والتسلية والنقطة . ووصف لها أنواعاً من العقاقير ساءت على تعاطيها

الحال ، واشتدت العلة ، فكانت تنفر من المخالطة ، وتطمئن الى الخلوة ، وتكثر من الصلاة ، وتواظب على القداس . ونضارتها ، في خلال ذلك تذوى وبشاشتها تزول ، فرأيت أن أجرب النقلة ، فرحلت بها الى بيروت في عطلة عيد الميلاد ، فتسكنت بعض التسلي وتحسنت بعض التحسن ، ولكنها لم تلبث أن عادت الى حالها الأولى بعد أن عدنا الى دمشق . وكانت معلماتها من الراهبات قد لاحظن عليها أعراض هذا المرض النفسي ، فعالجنها مرة بالدعاء ومرة بالدواء ، فما نفع الدين ولا أفاد الطب . وأخيراً جاءت عطلة عيد الفصح فرأيت أن أعود بها الى بغداد ، عسى أن نجد في الوطن الذي نشأت به ، وفي العش الذي درجت فيه ، ما يدفع عن جسمها هذا الذبول ، ويذهب عن نفسها هذا القلق . وكان في الحفل أربع أعين لا يدخلهن شعاع السرور ، ولا يقرهن متاع القبضة . عينان في وجه الخطيب ، وعينان في وجه أمه . كانت عينا « جاك » تحضلان بالدمع كلما رأى خطيبته لا تحفل به ولا تنظر اليه . وكانت عينا أمه تشعان بالسخط كلما رأتا « نورا » تقبل علينا ولا تقبل عليه . وعلى فجأة من هو اللاهين ولمب اللاعبين سقط « جاك » من فوق كرسيه ، فاقد الوعي ، متخشب الجسد ، مختلج الأطراف ، مصطك الأسنان ، مزبد الفم . فصرخت أمه ، وفزع الحضور ، وخفوا اليه بالمسعفات حتى أفاق ، وكانت « نورا » من أسرع الى المصروع بالمنبهات ، فخصها بالشكر . واضطجع على الكنبه ريثما استراح ثم تحامل على بعض أصدقائه وخرج .

وغام على أثر ذلك الحادث جو الحفلة ، فتكدر الصفو ، وانقطع اللهم ، وانصرف المدعوون .

وفي بكرة اليوم التالي ، وكنت يوم أحد ، دخلت عليّ السيدة « ماري » ، وفي يدها صينية صغيرة عليها قدحان ، فحيتني تحية طيبة ، ثم

قالت وهي تضع الصينية على المائدة : « عدت من الكنيسة قبل الأولاد لأصطحبك معك بقدرح من الشاي وأبوح لك بأن «نورا» منذ رأيتك ، تظهر الأهتمام بك وتكثر السؤال عنك . وقد رأيتها في الحفلة تقبل عليك وترتاح بأنسها اليك . ومن الممكن إذا توثقت صلتها بك أن تكشف لك عما يكن صدرها من لواعج الحزن والهم ، فقد عجزت عمته وعجزنا عن كشفه . ثم روت لي ما قالته السيدة (صوفي) عن مرضها وكيف تطور حتى خيف أن ينتهي الى انهيار عصبي لا يرجى برؤه . وعقبت عليه بأنها شديدة القلق على مستقبل البنت ، فقد رفضت أن تعود الى الدراسة بدمشق ، وكرهت أن تظل مخطوبة الى جاك . وقد رأيت ما حدث ليلة البارحة من جراء صدودها عنه ، وهو من أكثر الشبان مالا ، ومن أرفعهم وظيفة . إن «نورا» كما ترى معبودة الأسرة ، وإنا لنبذل في سبيل سعادتها أنفس ما نملك . وليس جمالها وحده هو الذي أحلها من قلوبنا هذا المحل . فان لها غير الجمال البارع والذكاء اللامع مزايا أخر ، أخصها صفاء النفس ونقاء الضمير وخلوص الدين ، والدين على أقوالها وأفعالها الساطان القاهر منذ الطفولة ، فهي لا تقول لنفسها ما تخشى أن تقوله للناس ، ولا تفعل في سرها ما تكره أن تفعله في العلن ، ولا تجري في أمورها إلا على سنن القديسين والرسل . فإذا أصابها مكروه في صحتها أو في سعادتها ، أصاب الأسرة في صميم حياتها ، فلا تنتفع بعدها بالعيش . فالرجاء في الله وفيك أن تعالج مشكلتها بالعلاج الذي تختاره ، وسأرسلها اليك متى عادت من القداس » .

من النفاق المحض أن أقول إن شعوري بهذا التكليف كانت شعور الخالي المحايد . الحق إنه كان شعور العالم الذي صور له عقله الباطن ما كبت من الرغائب والشهوات في صور زاهية من الوقائع والذات . ثم تيقظ فإذا به يرى الحلم حقيقة واقعة ، يصرها بعينه ويلبسها بيديه . كنت في خلال الأسبوع الذي مضى على هذا الانقلاب في الدار ، أتابع

هذا الحسن الرائع بحواسي الخمس ، وهو يجيء في المشى أو يذهب ويدخل الغرف أو يخرج ، ويتكلم في البهو أو يصمت ، فيمنعني الحياء أن أدور في فلكه وأب أدخل في شعاعه ، ثم أصبح فاذا بي أسمع أنه يسأل عني ويفكر فيّ ، وإذا بي أرى أن القائمة على أمره تنبئني بي وتكلمه إليّ !!

فهل تصدق اللفظ الذي أعطاه أهل الدار مفتاح الكرار إذا زعم أنه تسلم هذا المفتاح وقلبه فارغ ، ورأسه بارد ، ونفسه عزوف ؟

قد يكون هذا اللفظ صواماً قواماً ، يجمل من هذا الكرار صومعة لنسكه ، ومحراباً لسلاته ، ولكن إخفاء حقيقة شعوره وطبيعته سروره رياء صريح .

سمعت نغرتين خفيفتين على باب غرفتي ، ففتحته ، فاذا « نورا » في ثياب الأحد وطلعة الملاك ، تبتسم وتقول : « أخبرتني أمي أن للمسيد حاجة إليّ » ، فقلت وأنا أهنيئ لها الكرسي لتقعدي : « إن حاجتي إليك حاجة الغريب إلى الأُنس ، والضيف إلى الأكرام » فقالت : « لست غريباً وأنت في دارك ، ولا ضيفاً وأنت بين أهلِكَ ، وإن العائلة كلها ، كما سمعت ، تحبك وتحترمك » . فقلت لها : إن غربة الروح أشد من غربة الجسد ، وربما ظل الرجل طول عمره ضيفاً بين أهله إذا لم يوافقوه على هوى ، ولم يشاركوه في شعور . ولهذا شعرت من إشعاع نفسك عليّ من بعيد ، أن بيني وبينك ألفة من الروح ، لو كان لها تجاوب في شعورك لوجد القلب بجانبه قلباً يتفتح له ويتصل به ويسكن إليه ، ولعلي أدركت سرّ انقباضك عن الناس . إنهم لا يشبهونك في خلق ولا طبع ، ولا يفهمونك في إحساس ولا فكر . فهل أدركت الصواب ، أو على الأقل واجهت الحقيقة ؟

وكانت الفتاة قد حدثت ببصرها اليّ ، وأقبات بسمعها عليّ وقالت :

« إن ما قلته عن نفسك وعني لم يتجاوز الحق ، وإن ما أدركته أنت من سر انقباضي هو ما أدركته أنا من سر انقباضك . وقد كنت علي وشك الاتصال بك لو لم تأمرني بلقائك أمي . وما كنت جلوسي اليك البارحة في الصالون إلا تهيداً لذلك . أما لماذا اخترتك من غير معرفة ، وألفتك من غير صلة ، فعلم ذلك من مكنونات النفس . فلا تعرف له باعثاً ولا علة . وكل ما أعرفه من ظواهر الأسباب أنك مصري وقايي معمر بحسب مصر ، وأني مريضة ، ومرضي يحتاج بطبيعته الي مؤاس من نوع خاص ، ولم يكذبني قلبي ، فقد علمت من بوادر كلامك هذا أنك تنطق عن نفسي وتكشف عن ضميري .. »

لم أرَ في الجلسة الأولى أن أدخل في صميم الموضوع ، ولا أن أسألها عن سرحها لمصر الذي تكنه ، ولا عن كنه مرضها الذي تعانیه ، وإنما اكتفيت بأن قلت لها : أراك تفتقدن الأنديس المؤاسي ، وأنا أعلم أنك مخطوبة الي السيد جاك ، والخطيب صفي القلب ، ونجى النفس وشريكك المستقبل . وهو كما ينم عليه حاله ، يواك أشد الهوى ويرعاك أصدق الرعاية ، فلو أنك بادلت الحب وشغلت به دنياك لما أحسست معه بالفراغ . ولكن أمك تقول علي أثر ما أصابه الليلة إنك لا تبالين به إذا حضر ، ولا تسألين عنه إذا غاب ، ولا تردين عليه إذا كتب ، فهل هذا عرض من ذلك المرض ؟

فسكتت « نورا » قليلا ، ثم قالت في شيء من البطء كأنما تعد كلماتها عدداً : « يجوز أن يكون للأزمة النفسية التي أكابدها منذ ستة أشهر بعض الأثر في فساد الحال بيني وبين جاك ، وإنما جاء أكثر الأثر من الاختلاف في مزاج ومزاج ، والتباين بين خلق وخلق : أنا خيالية

وهو واقعي ، وأنا روحانية وهو عادي ، وأنا مؤمنة وهو طبيعي ، وأنا أفهم الحياة على انها (آلة موسيقية) وأنغام ، وهو يفهمها على أنها آلة كائنة وأرقام . فأنا لا أصلح له وهو لا يصلح لي ، وما كانت خطبتنا إلا عدة وعدها أبي إياه لنباهته في دنيا المال والعمل .

وكان باب الغرفة قد ظل مفتوحاً ، فدخلت مرجريت وجورجيت ، فعماد الحديث الى مجراه العام ، ونزلنا بعد قليل الى السرداب لنجد العمدة ومن حولها سائر الاسرة يتحدثون في اهتمام وجد . فلما رأونا ندخل وعلى وجوهنا دلائل البشر ، تهللوا جميعاً ، ولقونا لقاءهم للعائدين من مفاوضة ناجحة ، أو للعاقدين لصفقة رابحة . ثم انصرف بعضهم الى البيان ، وبعضهم الى الكونكان ، وجلست انا ونورا مع المتحدثين .

ولاحظ الثلاثة الكبار ، يعقوب وزوجته وأخته أن ابنتهم مشروحة الصدر للجلسة ، ومفتوحة النفس للحديث . فقال الأب موجهاً كلامه اليّ والى « نورا » :

« كنا نتحدث هنا فيما كنتم تتحدثان فيه هناك ، ومن الخير أن نتابع الحديث لنبصر وجه الرأي في خطبة جاك ودراسة « نورا » من قبل أن تعود « صوفي » الى دمشق ..

وكانوا يعلمون فيما بينهم أن الجواب عن هاتين المسألتين عندنا لا عندهم ، فقلت : ان من رأيي أن تتركوا عقدة هذه الخطبة للزمن يحلها على مهل ، فان قطع العقدة ، وإن كان أبسر من حلها ، يؤذي النفس ، ويخرج الكرامة ، وسيروض السيد جاك نفسه بالصبر والسلوان على احتمال الواقع ..

وقالت « نورا » : وإن من رأيي أن أبقى معكم الى الخريف ، فان

البعد عن منشأ الداء وإن كان سيحرمني أداء الامتحان ، سيساعد فيما أرجو على استئناف النشاط واسترداد الصحة .

أصبحت غرفتي منذ اليوم قطعة من الروض وقاعة من التحف ، نقلت اليها « نورا » أجل ما في الدار من زهريات ولوحات وتماثيل وتحف ، ثم كانت تتمدها كل صباح بنفسها ، فتنسق الزهر وتنظم الاثاث وترتب الكتب . وانقسمت الأسرة بحكم الطباع والغرائز الى فريقين : بيني وبين القنصل ، فريق الخير وفريق الشر ، أو فريق النور وفريق النار ، أو فريق المعنى وفريق الحس . فالبنات وأمنه فريق ، والبنون وأبوهم فريق . ففي غرفتي تجتمع « نورا » وأختها ومعهم الكتاب والبراءة ، وفي غرفة السيد « بكير » يجتمع يوسف وأخواه ومعهم الشراب والريبة .

وتمكنت الألفة بيني وبين « نورا » فلم تعد تصطحب أختها في الجيء اليّ ، فاذا أقبلتا تريدان لهو الحديث صرفتهما الى المذاكرة ، وبقيت هي جالسة على كرسي طويل ظهرها مسند إلى صدره وسائر جسمها ممدود على طوله ، وفي يدها مجلة تنظر فيها . ولكنها لا تلبث أن تذهل عنها وتستغرق وهي يقضى في حلم عميق . فاذا كنت أكتب تركتها حتى أفرغ ، وان كنت أقرأ أطبقت الكتاب واستغرقت أنا أيضاً في وجه كل معنى وجسم كله فتنة ووضع كله سر .

وكانت عطلة عيد الفصح قد انقضت ، فعادت العمرة الى دمشق ، وعاد الأولاد الى المدرسة ، وخلت الدار إلا من الممرض والمريضة ، أو من المصور والمثال ، فوجدت الفرصة مواتية لأستبطن دخيلة أمرها ، وأستخرج دفيئة صدرها ، فقلت لها ذات يوم : أريد أن أعالجك بالتحليل ، كما يفعل الطبيب المحلل ، أو بالاعتراف ، كما يفعل القسيس المعترف ، فبوحى لي بكل ما في نفسك ، عسى أن أجد لك فرجاً من

هذا لهم ، وأعدك أنت يظل الأمر فيما بيني وبينك سر مهنة أو سر اعتراف .

فقلت : وأنا أريد هذا أيضاً ، فاني منذ فارقت « الأب إلياس » أشعر بالكرب يخنق صدري ، وبالقلق يلوع ضميري . وقد كنت أستريح اليه بالاعتراف كل أسبوع كما يستريح المحزون بالبكاء أو المهوم بالشكوى . وأنت أقرب الى قلبي منه لأنك تشعر بانسباط الربيع ، وهو يشعر بانقباض الخريف ، وأنت تعيش في موجود الدنيا ، وهو يعيش في موعود الآخرة . ولا أريد أن أمضي في المقارنة بينك وبينه . فقلت لها ، وأنا أنشر البركة عليها من يدي : إذن ضمنت لك الشفاء بهذه الثقة . ثم جلست على كرسي الاعتراف ، وأخذت تعترف لي وتقول .

أخذت « نورا » تعترف اليّ بالفرنسية ، لأنها تستسلمها ، لا لأنها تفضلها ، قالت :

« كان ذلك في تموز من عام ١٩٣١ ، وكان من عاداتي في العطلة الصيفية إذا لم أعد الى بغداد أن أضمر يدي الى يد عمي في إدارة الفندق ، فأدعها تصرف أموره العامة فتعطين المطبخ وتهيء الموائد وتجهز الغرف وتتعهد الأثاث وتراقب الخدم . وأجلس أنا الى المكتب في المدخل : أستقبل النازلين وأرصد ما لهم ، وأودع الراحلين واقبض ما عليهم . وأجيب عن كل سؤال وأستمع الى كل شكوى . ولم أكن أدري أي شيء فوّى يجذب النزلاء اليّ ، ويرميهم بأثقاليهم عليّ ، فكل داخل وكل خارج كان يتلمس الدواعي أو يختلقها ليقف أمام المكتب ، يسأل من غير موجب ، ويتكلم من غير موضوع ، ويشفع الكلام الذي لا معنى له بالنظرة التي تقول ، والبسمة التي تدل ، فأجيب عن السؤال بالنفي أو الإيجاب ، وأرد على الكلام بالصمت أو الإيجاز ، وأغض

عيني عن النظرات والبسمات فلا تجد طريقةا الى نفسي . ولكني بعد أيام ضقت ذرعاً بهذا الفضول ، فتخلّيت عن صدر المكتب للكاتب ، وانتجيت ناحية منه ، وأخذت أراقب الأمور من بعيد ، فلا أ تدخل فيما يتصل بالادارة العليا للفندق . وكنت مع ذلك أنظر خلسة إلى من يدخل أو يخرج أو يجلس أو يقف . فأرى صوراً من الناس وأنماطاً من اللباس واخلاطاً من اللثغى تجعل كل نهاري وبعض ليالي حفلة مستمرة في سينا . وكان يستوقف نظري من هذا الخليط المتغير المتجدد الجميل والأنيق والمهذب ، وهؤلاء يغلب عليهم التصون والتعالي فلا يتبدلون بالفضول ولا يتلهون بالعبث . وكان من بينهم شاب رشيق القامة حسن الهندام حلو التقاطيع . لم أستطع أن أتبين منه خلال النظرات الحذرة العجلى الا ظاهرتين على وجهه في دخوله وخروجه . وكان متزايلاً لا يدور في مدار الفندق ولا يشعر بجاذبية أهله ، إنما كان يدور كما علمت من بعد ، حول شمس غير منظورة ، لم يبقَ منها في دنياه إلا شعاعة تضيء عينه بقدر ما يعيش .

كان يجلس وحده في البهو ويأكل وحده على المائدة ، فإذا كتب لا يكتب إلا رسالة ، وإذا قرأ لا يقرأ إلا صحيفة . والصحف التي كان يقرأها مصرية يأتيه بها الخادم كل صباح ، فهل هو مصري ؟ لو سمعته لعرفته من لهجته ولو عرفت اسمه لكشفت عن بطاقته ، ولكنه لم يكن يمر بالمكتب إلا ليدودع للكاتب مفتاح غرفته أو ليسترده . وكنت وأنا في ركني المنعزل ألح عليه بالنظر المتتابع كلما وقف على المكتب أو جلس في الردهة ، لعله يلقي عليّ نظرة أو يوجه اليّ كلمة ، فما كان وجهه يتعمد وجه الكاتب ولا عينه تفارق صفحة الكتاب ، إلى أن اضطرب الكاتب يوماً أن يغيب واضطرت أنا الى أن أجلس على كرسيه . وأقبل هو في الضحى الأكبر يودع مفتاحه ليخرج ، فحيا في احتشام

وأدب ، وألقى بفتحاحه في رقة ولطف . ولما رأى بين يدي كومة من بريد الفندق ، كنت أفرزها لأوزعها على الغرف ، وجهته اليّ من تحت أهدابه الوُظف نظرة حبيبة وقال : هل لي في هذا البريد بريد ؟ فسألته عن اسمه ، فقال : « نبيل طاهر » ، فعدت أقرأ العناوين في شيء من البطء لا أدري لماذا ، حتى استخرجت له من بينها خمس رسائل صادرة من القاهرة ، فأخذها شاكرأ وخرج .

عرفت في هذه اللحظة العابرة المباشرة اسمه وقليلًا من خلقه وكثيراً من صفاته ، وانصبّ في شعوري عن طريق نظراته وكلمته وبسمته دفق من حاذبيته الروحية ، شغل بالي به ، وصرف همي اليه . كان مثال ما ارتسم في ذهني من صورة المصري الصميم : وجهه ناعم أسمر مشرب بالخمره كأنما وردته نشوة الخمر ، وشعر ناعم أثيث متموج قد انفرق على فوده ، أشرفت منه جمّة على ناصيته ، وعينان كحلاوان تشع منها الطيبة وتشيع فيهما البراءة ، وفم رقيق حلو يفتر افترار الطفل ، وهذه الصفات الطاغية التي تبرز لعينيك أول ما تراه فتشغلك عن صفاته الأخرى .

كنت أغنى كلما دخل أو خرج أن يمرّ بي فيسألني شيئاً أو يكلفني أمراً ، ولكنه كان كما قلت ، محصوراً في حياته الخاصة ، لا يخرج منها أبداً ، ولا يستقبل فيها أحداً . ملكتني رغبة قوية في أن أطرق عليه باب دنياه طرقة ، فلملي أكشف ما وراء هذا الباب من سر يسبب هذا الانقباض ، وبوجب هذه العزلة ، ففرزت يوماً بريده بنفسي وحجزته ، ولما علمت أنه جالس في البهو يقرأ صحيفة ، ذهبت اليه في شيء من الحرج ، وقلت له : هذه رسائلك من بريد اليوم ، جعلت من حملها اليك فرصة أسألك فيها عن مقامك في الفندق . فنهض الشاب واقفاً ، وتسلم الرسائل ، ثم تلمظ فدعاني الى الجلوس ، فجلست ، وخيل اليّ أن علامة

من علائم الرضا قد تراءت على وجهه ، فقلت له : أراض عن غرفتك ومائدتك وخدمتك ؟ أعندك ما تشكوه أم لك ما ترجوه ؟ فقال وهو يحاول أن يخفي ربكة بدت عليه ، شكراً يا آنسة ، كل شيء مريح ، وكل أمر يسر . فقلت له : دع هذا التحفظ ، واجعلني هنا بمثابة أختك ، واسترح اليّ بما عسى أن يكرب صدرك من هموم الغربة ، فاني مثلك أشعر بما يعترى الغريب من الوحشة ويعتاده من الشوق . فقال في لهجة مصرية وصوت خفيض : يسمعني ويزهوني أن ترفعيني في نظرك الى منزلة الأخ ، ولقد قلت إنك غريبة ، وكان بعض الشك يخالجي في أنك سورية لاختلاف اللهجة والحلية والملامح ، فهل انت عراقية ؟ فقلت : نعم أنا بغدادية ، أطلب العلم في دمشق ، وصاحبة هذا الفندق عمي ، فأنا أساعدها في إدارته شهرّي العطلة ، وجاء عامل التلفون يدعوني الى مكالمة ، فاستأذنت منه وقت .

أنس اليّ يومئذ « نبيل » . فكان يجلس في الردهة لا في البهو ، ويوجه كلامه اليّ لا الى الكاتب ، ويفضل أن يبقى في الفندق على أن يخرج . ولكن الحياء منه ، والاباء مني ، كانا يقفان بنا عند هذا الحد من النظر المردد ، والكلام العابر . ففكرت في حيلة تدني المجلس وتطيل الحديث ، فأخذت أقرأ الصحف المصرية كل صباح لألتبس فيها المناسبات التي يصح أن تكون موضوعاً لسؤال أو موضوعات لحديث ، ثم أدنو منه في الوقت الذي ينصرف فيه الزلاء ، ليخشع الصوت وتسكن الحركة ، فألقي اليه الخبر أو اورد عليه السؤال ، فينطلق وجهه بالبشر ، ويتفتح ذهنه بالكلام . فأقول ويقول ، وأجول في كل معنى ويحول . يروي لي عن مصر وأروي له عن العراق ، ويحدثني عن سعد واحده عن السعدون ^(١) ثم تجدد بعد ذلك

(١) عبد الحسن السعدون كان يومئذ رئيس الوزارة العراقية ، ثم انتحر لأسباب سياسية فكان انتحاره الحزن حديث الناس في كل مكان .

لمجلس وتكرار الحديث ، حتى توثقت بيننا الألفة ، وكادت أن تزول الكلفة .

سألته ذات يوم عما زار من آثار دمشق ، وعما رأى من مفاصل الطبيعة في الغوطتين وبلودان والزبداني . فقال بلمجة الأسف : إنه قضى في دمشق نصف شهر دون أن يجد في نفسه رغبة في نزهة ، أو حاجة الى رحلة ، وكل ما كان يصنعه في هذه الايام أن يتجول في أفكاره في شارع ، أو ينفرد مع همومه في قهوة . فقلت له وقد وجدت الفرصة لاكتشف عن سره وأمره : يؤمني أن أسمع منك كلمة الهمة ، وأنت في السن التي لا تبالي التبعة ولا يهمها من الدنيا إلا جوانبها اللاهية المرحية ، فهل تشكو علة أو تكابد أزمة ؟ وهل تتيح لاختك الحانية عليك المتعلقة بك أن تحمل شيئاً من عبئك الذي حرمك من لهُو العيش وشغلك عن بهجة الحياة ؟ فقال : لشد ما يسعدني ذلك ، فان كتم الألم في الصدر ككتم البخار في القدر ، لا يزال يثور ويضطرب حتى يجد متنفساً من الضيق فيهدأ ويستقر ، وان الآهة ينفضها المريض ، او الشكاية يبعثها الحزين ، لهُي الراحة من ألمه او الفرجة من كربه . ولقد وجدت فيك منذ رأيتك وسمعتك ، علاجاً من دائي الذي أشكوه ، وتسليية عن همي الذي أفايسه . وغداً الاحد وهو يوم عطلتك فتعالى إذا سمحت تخرج الى ظاهر المدينة ، فأشركك في أمري ، وأفضي اليك بذات صدري ، وأتمنى في الوقت نفسه بعض منازله الشام في صحبتك .

لم أجد في الاستجابة إلى دعوته مشقة كبيرة ، لاني مسيحية لا تقيدني تقاليد البيئة ، ولاني مراهقة تستهويني تجربة الخروج الاول مع شاب ، ولاني مشوقة منذ أيام الى حديث طويل مع (نبيل) . وتواعدنا على اللقاء في مكان قريب من الفندق ، وقلت لعمتي بعد أن شهدنا قداس الاحد : إن إحدى صديقاتي من الطالبات دعتنى الى الغداء والسينما ، فلا تقلقي علي إذا تأخرت . وانطلقت بي وبنبيل السيارة الى « دمر »

وكانت الغوطة الغربية قد تألفت في زينتها الطبيعية ، فجعلت من أدواحها الباسقة جنة للقلب الشاعر ، ومن أمواها الدافقة بهجة للعزاج المكتئب ، ومن مروجها الخضر سكينه للحس المضطرب . وكان مقهى (دمر) قد امتدت موائده على ضفتي الجدول الهادر ، وقد ازدانت بمن جلس اليها من بنات يوم الاحد وأبنائه . واخترنا مائدتنا في ركن منعزل من طرف المكان ، وجلسنا اليها متقابلين ، وجهاً لوجه وعيناً في عين وفقاً إلى اذن . وكان نبيل لا يزال مأخوذاً بروعة الغوطة وما يكتنف مدخل دمشق من الروابي الخالية في صدر الجبل ، والانهار الشادية في حضن الوادي ، والمنازل الفارقة في زهر الروض . فقال : ما رأيت أبعد من هذا المنظر ولا أنفذ من هذا السحر ، ولولا أن أتاحت لي الله لظلمت محروماً من هذا الجمال ، مشغولاً عن هذه المنعة . فقلت له : إن بالشام أماكن غير هذا المكان تجلو رؤويتها صدأ القلوب ، وتبسط زورتها انقباض الشاعر ، وسنورها معاً بعد أن أصفي نفسك من أكدار الهم ، وأخلي بالك من شواغل الحزن . فافتح لي صدرك ، واسترح اليّ بما تكن فيه ، فقال : لا يا نورا ليس الامر سراً أكتمه ولا ألماً أكتنه ، إنما هو صدمة عاطفية زلزلت حياتي وحطمت وجودي ، وكان لها في الناس من أقرباء وأصدقاء أثر شديد وصدى بعيد .

أحببت ابنة عمي حباً غلب علي عقلي وشعوري ، وكان الذي حببها اليّ جمالها الفائق وخلقها العذب وروحها اللطيف ، وعشرة طويلة متصلة تأصل فيها حبنا ونما نمو النبتة الغضة في الثرى الخصب والجو الملائم ، فاستوت على ساقها ، وتفرعت عن أصلها ، ثم أوردت ، ثم ازدهرت ، ثم رفقت علينا بالندى والظل ، ونفحتنا بالنعيم والعطر ، ثم آن لنا أن نتخذ منها العش الذي نسكن اليه ونطمئن فيه ، فأخذ أبي وعمي يهدان للبناء ويستعدان للعرس . وعلى فجأة نعب على عشنا غراب ، ودوت على

قالت امرأة عمي لامي ، وبوادر دمعتها تقطر على خدها الشاحب :
إن نبيلًا واحسرتاه أخو عقيلة ابنتي ، تذكرت أنني أرضعت نبيلًا مراراً
وانت مريضة ، فإذا نصنع يا اختي لنخفف وقع هذه الصدمة على
نبيل وعقيلة ؟

شكّنت أُمي أول الامر في سلفتها وأساءت بها الظن ، فلعلمها وجدت
لابنتها عريساً آخر فزعمت ما زعمت . ولكن الحزن الشديد الذي بدأ
عليها ، والالم المعض الذي نال منها ، والحب المحض الذي تكنه لي منذ
الطفولة ، والسرور الطاغى الذي كانت تبديه منذ أعلنت الخطبة ، كل
اولئك كان يبدد كل شك وينفي كل ريبة . شاع الخبر المشؤوم في بيتنا
شيوع النار ، فشوى أكباداً وكوى أفئدة . وكان الخبر بالنسبة الى مؤيساً
لا نور للامل فيه ، ولا سبيل إلى الصبر عليه ، فضاقت بي الارض ، وثقلت
علي الحياة ، فذاب جسمي ووهن عظمي ولزمت السرير أياماً لا يأخذني
نوم ولا يهنأني طعام ، حتى خاف عليّ أهلي فقلّبوا عليّ جسمي ونفسي
صنوفاً من العلاج ، فلم ينجع فيها شيء . وأخذ أبواي يسرّيات عني
بالامل في أن يجدا شهادة فكذب الرضاع ، أو فتوى تجيز الزواج ،
ومنعوا عقيلة من لقائي لعل بعدها يساعد على سكوت الالم واندمال
الجرح ، ثم رأوا أن أبعد عن وهيج النار ومثار الشجن . فقرروا أن
أرحل إلى لبنان وسورية . وما أنذا بعد شهرين قضيتها في ضهور
الشوير ودمشق لا أزال كما ترين ، مطبق الجفنين على صورتها ، مطوي
الجوانح على حبها ، أرسل اليها كل مساء رسالة وأتلقى منها كل صباح
رسالة ، ولم يمل قلبي اليك الا لأن فيك مشابه كثيرة منها ، فأنا أراها
في وجهك ، وأسمعها من فمك ، وأتمثلها في روحك العذب وطبعك المذهب .
ثم أقبل الخادم بلألوان الطعام ، فسكنت هو ، واستمررت أنا أصفي

الى أصداء هذا الحديث تتوارد على خيالي وتتردد في نفسي ، فتعتريني الشفقة عليه ، وتساورني الغيرة منها ، الغيرة ؟ نعم يا سيدي شعرت بالغيرة ولا أدري مبعثاً لهذا الشعور ، ولا معنى لهذه الكلمة .

أصبح من هي منذ ذلك اليوم أن أطيل الجلوس اليه في الفندق ، وأكثر الخروج معه الى الحدائق ، ولم تعوزني الوسائل التي كنت أنذرع بها الى عمقي لتعطيل الجلوس أو الخروج . وكانت أحاديثنا سقاطاً من أفنان شتى ، منها النجوى والشكوى ، ومنها الطبيعة والناس . فإذا أفضى بنا الحديث الى ذكر عقيلة عطفته برفق الى موضوع آخر ، حتى لا يذكرها فتعاوده لوعة البين وحرقة الذكرى . ولا أكذبك فقد كان في نفسي باعث آخر يحملني على طي الحديث عنها ، ذلك هو الغيرة الحاقدة من أي فتاة تستولي على قلبه ، وتستأثر بحبه . لقد أحبيته منذ رأيته ، ثم أخذ هذا الحب منذ عرفته ينمو على مرور الساعات والدقائق ، بانسكاب روحه الروي في روجي الظمآن . عن طريق النظر والحديث والحلوة ، وكان في أقوى العوامل التي أوقدت صدري بهذا الحب أنه مشغول عني وأني يائسة منه . هو مشغول القلب منذ صباه بابتنة عمه . ومن الصعب خلو القلب من هوى دخيل شغله على فراغ وتمكّتن به عن أصالة . وأنا مقطوعة الرجاء من ثمرة هذا الحب ، لأن الهوى بيني وبينه غير متكافئ ولا متبادل . هو يحب في عقيلة لأني صورتها في عينه ، وأنا أحب فيه وجودي لأنه حقيقته في نفسي ، وهو مع ذلك قاهري وأنا بغدادية ، ومسلم وأنا مسيحية ، فاقتراني بسه موقوف على موافقة الظروف وموافقة الأهل . ولو كانت إقامته في دمشق ستطول لسكان من الممكن أن يحمله اليأس من عقيلة على التفكير في غيرها ، ولما كان من الجائز أن تكون هذه الغير هي أنا ، وإذا وقع في حبي كما وقعت في حبه سهل الحب كل صعب ، وأدنى كل بعيد ، ولكن بقاءه بيننا

موقوت . مهما بطل ، وخروج عقيلة من حياته بطيء مهما يكن ، وليس للعقل على الهوى سلطان حتى أحسكم في حاضر أمري ومستقبله الى المنطق ، فلم يبقَ إلا أن أفوض أمري الى الله ، وأترك زمسامي في يد القدر .

أخذت أعب من هوى نبيل عباً متتابعاً لا أتنفس خلاله ولا أكتفي منه ، كنت أحبه بأذني وعيني وقلبي ، في كل كلمة وفي كل نظرة وفي كل خفقة ، في جلوات « الزبداني » ، وخلوات « بلودان » ، ومسارب « الحميدية » ، ومسارح « الغوطة » ، لأني كلما فكرت في أن يوم الرحيل آت لا ريب فيه ، عشت غلوة حتى امتلأ وجودي كله بالهواء ، فلا أفكر إلا فيه ، ولا أحلم إلا به ، ولا أعيش إلا معه ..

غبتنا معاً ثلاثة أسابيع في نشوة متصلة من رحيق الحب ، لم نفق منها إلا على برقية هبطت من القاهرة تدعو نبيلاً الى العودة . فكان وقعها عليه وقعاً مبهماً ، لا هو سار ولا يحزن ، كان مشوباً بالأسى على فراقى ، وبالفرح للقاء أهله . أما وقعها عليّ ، بالرغم من توقعي لها ، فقد كان أشدّ من وقع خبر الرضاع على عقيلة ، ذلك لأن عقيلة ستراه بحكم الجوار والقربة . أما نورا فلن تراه حتى يرى الأعمى النور ، والميت النشور ، والعمالم الحقيقة . قضينا ليلة الفراق ساهدين في الفندق ، يتحدث هو عما سيلاقيه من الكرب إذا لم يجد في القاهرة ما يواسيه ويسلميه ، وأتحدث أنا عما سأعانيه من الفراغ الذي سيمرّكه في حياتي بعد تناثريه وتناسيه ، ثم تمّنى وتمنيت أن تتاح لي الوسيلة لأزور مصر ، فنمضي معاً في طريق هذا الهوى العذري الى الغاية التي كتبها علينا القضاء فيه .

وفي الصباح صحبته الى ميناء بيروت ، وهناك على ستلم الباخرة جمعنا ما تفرق من عواطفنا وذكرياتنا وأمانينا ، وضغطنا وحفظنا في

قبلة قوية كانت هي الأولى والأخيرة . ثم عدت الى دمشق من غير نور ولا أنس ولا أمل . عدت كالثكلي شيعت وحيدها الى المقبرة ؛ ورجعت لترى أثره في كل غرفة ، وتجد ريحه في كل لعبة ، فهي تفر من البيت الذي يذكرها به الى البيت الذي ترجو أن يسليتها عنه ، وكذلك فعلت ، فررت من الفندق الى المنزل ، ومن المكتب الى السرير . ثم اعتراني من الهم والسقم والانقباض ما قصت بعضه عليكم عمي .

وبعد فقد سمعت الصدى ولم تسمع الصوت ، وأحسست الوهيج ولم تمس النار ، وعرفت الجملة ولم تعرف التفصيل ، والحال كما ترى تشتد ولا تخف ، وتسحتكم ولا تنفرج ، فهل عندك لقصتي مساع ، ولأزمعي فرج ؟

فقلت لها وقد نفست باعترافها عن صدرها المكروب فاستراحت الى أن تتقبل الخلاص من الكاهن : إن أمرك يا نورا مع نبيل وذاك لهو الأمر الذي وصفه الشاعر بقوله :

جننا بليلي ، وهي جنّت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وسأحاول أن أعالجك بما عالجت أنت به نبيل ، فلعلني أصيب من النجاح فيك أكثر مما أصبت أنت من النجاح فيه .

لا علاج للعاشق إلا السلوان . والسلوان شراب كان الأعراب يتخذونه من صتيب المطر على خرزة تسمى السلوانة ، ثم يسقونه العاشق ليسلو . ولم يعد في الامكان اليوم العثور على هذه الخرزة السحرية ، فحل محلها النسيان ، والنسيان بمعونة الزمان والصبر والشغل ، يمحو الصورة من الذاكرة ، ويطمس الماضي في الذهن ، لذلك كان هي الأول ألا أدع وقتاً فارغاً تجتر فيه ما اختزنه في صدرها من رقيق العواطف ، وجميل المواقف مع نبيل .

فجارلت أن أنسخ عاطفة بماطفة ، وأستبدل موقفاً بموقف ، وكانت هي قد وجدت في قولي جزءاً من عشاها الذاهب ، وأملها الخائب ، للتأمل الذي بيني وبين حبيبها في الجنس والسحنة واللهاجة ، فجملت وقتها كله لي ، وأردت أن يكون فراغي كله لها ، فنحن في البيت نقرأ ونحدث ونلعب الورق ، وفي الخارج نجلس على (رأس جسر مود) في قهوة ضحيانة ، نترقد على صدر دجلة النابض ، وتستغرق في الضوء والسكون ، فنجعل ظهرينا إلى أحلاس القهوة ، ووجهينا إلى صفحة النهر ، وعينينا إلى ضفة الكرخ ، فنجتلي هذا المشهد الرائع قليلاً ، ثم نترقد إلى أنفسنا فننتذكر كل حديث إلا حديث دمشق ، وكثيراً ما يلهمنا الحديث المشفق عن مائدة البيت ، فنأكل « الأبيض والبيض والغنبا » من البائع الجوال ، ثم نواصل النجوى والحديث إلى المساء . وفي بعض الأصائل من أيام القيظ ، كنا نفر من وقدة البيت إلى « جزيرة دجلة » ، فنجلس حيث يتنفس علينا الماء بالطرازة ، ثم نأكل السمك المسقوف ، ونفكه بالبطيخ المبرد ، ثم نقضي العشيّة في زورق مهدتنا ساعة أو ساعتين على ظهر النهر الخالد الذي تراقص عليه « العُقاب » و « الدافين » بالخليفة الأمين ، وحسانه وقيانه ونداماه .

وفي أيام الجمع والآحاد كنا نخرج من بغداد منفردين إلى منازره العراق ومغانبه وآثاره ، فيوماً في مجالي الرسمية على نهر ديالى نستمتع بالخلوة والسكون ونستغرق في الهوى والشجون ، ويوماً في بساتين بعقوبة ، ذات الظلال والثمر ، نتخذ تحت أشجار التفاح والبرتقال مضاجع على العشب ، أو مقاعد على الجدول ، أو ممشي تحت الكروم ، ثم نتبادل الحديث والنظر ، فتارة نقول وأنظر ، وتارة تنظر وأقول . والقول كان أفانين من شعر الماطفة ، والنظر كان أشعة من نور القلب . ويوماً بالكاظمية أو كربلاء أو النجف ، نزور أضرحتها المقدسة ، ذوات القباب

المذهبة ، ونروح بعبيرها المبارك على النفس العانية ، والكبد القريحة ،
ويوماً بايوان كسرى أو أطلال بابل أو آثار نينوي ، نجعل منها دروساً
في تأريخ الجبارين من بني الانسان ، نستخدم فيها لغة العقل لا لغة القلب ،
ونستخرج منها ملحمة الماضي لا مأساة الحاضر .

كانت كل هذه الخلوات والرحلات وما تحملها من فتون وفنون أحجار
اللحد الحب أخذ يموت ، وأعواد المهد الحب أخذ يولد . كان قلبها لا
يزال مذبذباً بين جاذبية الحب الذي غراه على بردى ، وجاذبية الحب
الذي اعتراه على دجلة . وكان قلبي لا يزال نخدوعاً بأنه يمثل عواطف هذا
الحب ومواقفه وأعراضه لينقذ الفتاة من بلاء وقعت فيه ، ولكن الذبذبة
لم تلبث أن اطمانت الى قرار ، والخذاع لم يلبث أن تكشف عن
حقيقة . واستعجل هذه النهاية أن الفتاة المراهقة أو أي فتاة لا تستطيع
أن تعيش طويلاً على ذكرى حب ، تعيش عليها لأنها تكره الخلو ، فإذا
شغل قلبها حب جديد تركت الأثر وتعلقت بالعين ، وخرجت من الخيال
لتعيش في الواقع .

وهكذا أصبحنا محبين محبوبين ، لا نتحدث عن ثالث ولا نفكر في أحد ،
وكان من أمري معها ما كان من أمرها مع نبيل ، حاولت أن تسليته عن
« عقيلة » ف وقعت في حبه ، وحاولت أن أسليها عن « نبيل » ف وقعت
في حبه . ولم يكن الحب الذي بدأ بينها وبين نبيل ثم عاد بينها وبينني
إلا حباً صوفياً ، ليس له عرض ولا غرض إلا حديث القلب للقلب ،
وأنس الروح للروح في الخلوة العفّة والنزهة النزيهة . ليس لهذا الحب
مدى من الطبيعة أو الحس حتى يفتر إذا بلغه ، إنما هو كالمشق الآلهي
في عمقه واتساعه وشموله وذهوله وسكرته ، لأنه اتحاد وجود في وجود
وفناء ذات في ذات !

مرت الأيام على هذا الحال مرور الحلم اللذيذ في النوم الهادي ، لا
يزعجنا كابوس من هم ولا نُبوء من قلق . وكانت «نورا» في تملك المدة
قد عاد اليها صفاء نفسها ونضارة صباها ، فتفتح جسمها الغض في حرارة
الحب كما يتفتح الورد الجوري في دفء الربيع ، فهي تمرح وتلهو
وتقابل وتشارك . فاغتنبت الأسرة بهذا التغيير ، وتوسعت في اللهو ،
ونشطت في الأنس ، وعاد البهو الرحيب سبرته الأولى من اللعب والرقص
والموسيقى ، وقضينا في هذه الذشوة الصوفية أحد عشر شهراً ، لا يسأل
القدر المقدور متى نفيق منها ، ولا كيف ننصرف عنها ، ولماذا نسأل ؟
أنا أعلم أنها موقوتة ببقائي في بغداد ، وبقائي في بغداد لن يتجاوز أول
هذا الصيف ^(١) ، وهي قد عودت نفسها ألا تفكر في الغد ما دامت مشغولة
الفكر باليوم ..

ولكن الزمن ينقضي والعمل ينتهي ، واليوم الذي سأغادر فيه بغداد
يتحدد . ولا بد أن أبْلِغها الخبر ، وسأبْلِغها إياه في أسلوب سائع من

(١) ارتأت سياسة التعليم يومذاك بحجة ضيق الميزانية واشتداد الازمة النقدية ، لما طرأ
على الزراعة من كساد ، أن تغلق دار المعلمين المالية سنة ١٩٣٢ ، وقضى الأستاذ الزيات
بقية السنة الدراسية يدرس طلاب الصف المنتهي من دار المعلمين الابتدائية وهم على مستويات
ضعيفة ، وما يدرس فيها من المواد العربية لا تتلاءم مع مستوى درس الزيات العالي .

كان الزيات في السنة الأولى يصطحب زوجته ، وسكن داراً يجرار دار يسن الهاشمي
القديمة على مقربة من الثانوية المركزية ، وكانت حبة بغداد قد استمرأت جسد الزوجية
المصون ، فعلمت علامتها في مواضع من جسمها . وكانت من حسن حظها انها
قد نجبت وجهها فلم تشه جماله ، وكانت قد عقلت سنوات طويلة فأفادت الرحلة الاخصاب ،
فحملت حملها بولدها (رجاه) . وكان طلابه المقربون اليه يحاسنونه في بعض مقاهي بغداد ،
فبشرهم بالمولود الجديد الذي وصله نبأه على جناح البرق ، فاغتنبوا واغتنبطوا ، وسألهم ماذا
يقترحون له من الاسماء . أمما هو فاقترح اسم عاطف ، فلم يوافقوه لأن لمعنى عاطف دلالة
خاصة في العراق ، واقترح ناجي معروف اسم رجاه ، فوافق على التسمية وأبرق لزوجته به .

الكذب . والكذب الأبيض الذي ينفع ربما كان خيراً من الصدق الأسود الذي يضر ، فقلت لها ذات يوم ونحن نتقي بالنوافذ المغلقة والستائر المسدلة ، عاصفة التراب التي تثور على العراق من حين الى حين ، فترد نهاره ليلاً ، وسماه أرضاً ، وصفاه كدورة . إن العطلة الصيفية ستبدأ عما قريب ، وسأقضيها في القاهرة بين أهلي ، وسأعود إن شاء الله مع الحريف .

وجئت أول الامر للخبر المنتظر ، ثم تماكنت نفسها وقالت في لهجة المستسلم وهيبة الحزون : لقد شفيتني من داء بداء ، وسأفتقدك في أشهر العطلة الثلاثة ، وأخشى أن يهاجني الهم وأنا وحدي فأنتكس ، وأرى أن أقترح على أبوي أن أصطحبك الى دمشق ، فأقضي الصيف مع عمي ، حتى إذا حانت عودتك الى بغداد مررت بي فأعود معك ...

وفي صباح الغد خرجت فاشترت لي ديوان الشرقيات للامرتين ، و « ألبوماً » فاخراً ضمته على بعض صورها في أسنان وأوضاع مختلفة ، ثم خاتماً ذهبياً من صنع « الصبة » نقش عليه اسمي بالميناء ، ولا يزال بعد تسع وعشرين سنة في إصبعي ، واتخذنا الالهة للسفر ، وقطعنا بادية الشام على سيارة من سيارات « نيرن » في ليلة من ليالي الصحراء ، تطلق دجاها النجوم الزهر ، حتى باتت كيوم الدجن . وكنت نورا قد قضت الهزيع الاول من الليل تتكلم عن السماء والنجوم وحياة الاعراب وقصص الحب حتى قرسها البرد فأستدفأت ببطانيتها ، ومالت على كتفي ونامت . وفي تباشير الصباح المشرق المطل ، بلغنا فندق العمة صوفي ، فتركنا نورا تستنشي نسائم الذكرى وتتعلق بأسباب الامل ، وواصلت السفر الى بيروت .

ومن الفضول الذي لا يزيد في علمك أن أصف لك موقف الوداع فإنه موقف عرفته الخليفة كما عرفت غشية الموت . ذاقته كما ذقت حر

الحريق . والذي يملك أن تعرف أنني لم أكد أستجم من عناء السفر الطويل في السيارة والباخرة والقطار حتى زرت « نبيلاً » في داره بالمعادي ، وكنت قد عرفت عنوانه منها - فقدمت نفسي إليه ، وقصصت خبرها عليه ، وروى لي عفة نفسها ، ورقة قلبها ، وحسن حديثها أكثر مما رويت ، وشكا اليّ من لوعة البين عنها ، وحرقة اليأس منها ، وحرارة الشوق اليها أكثر مما شكوت ، واجتمع هواي وهواه فالتحدا في صداقة وثيقة ومودة خالصة ، وعشنا معاً ولا نزال نعيش في ذكرى هذه النفس الطيبة التي ظهرت في حياته وحياتي ظهور الامل الباسم في قطوب اليأس ، والروح المؤانسة في وحشة الغربة . ثم غابت في الافق البعيد كما تغيب الرؤيا السماوية في حجاب الغيب ثم لا يبقى منها في القلب إلا جلالها ، ولا في العين إلا سناها (١) ..

(١) تزوجت من شاب من ذوي معارف ابيها ، وسعدت بزواجها وانجبت ، وهي ما زالت حية تعيش منعمة مع افراد اسرتها ، ولم يبق من تلك الذكوبات إلا رئيس كرسيين الحلم الجميل او النعمة الحلوة لقصة قرأتها .

تأريخ

حياة الف ليلة وليلة

هذا البحث القيم والتحقيق الدقيق لكتاب ألف ليلة وليلة ، ألقاه الأستاذ الزيات ببغداد في قاعدة الثانوية المركزية ، في محاضرتين اثنتين أحدهما في مساء الخميس الاول من سنة ١٩٣٢ والاخرى في مساء الخميس الذي يليه . وقد حضرت المحاضرتين ، واستمتعت - كما استمتع عدد كبير من الاساتذة والمتأدبين - بحلو الحديث وجمال الصوت وسحر الإلقاء . وكانت القاعة ، على سعتها ، تزدهم بالمستمعين ، ولما كان التحقيق الذي أجراه الزيات في المحاضرتين ممتعاً ، ويعد أول تحقيق شامل في العربية لتطور هذا الكتاب الشعبي ، ويمثل أدب الزيات وإنتاجه في العراق ، حرصت أن أفرد له حيزاً في الكتاب ، وأطبعه بنصه كاملاً ضمن ملاحقه فضلاً عن كتابه في أصول الادب . قال :

يخطو الدهر دائباً في وناء وكهرياء وصمت ، فيعفي الاثر ، ويفري الحجر ، ويبرى الحديد ، وتثال يده العابثة كل شيء في حياة المراء بالتنميز والنقص ، إلا شيئاً واحداً منه يلوذ بسواد القلب فيستقر في قراره ، ويمكن كمن السر في دخيلته . أريد به ذكريات الصبي وأحلام الحداثة ، فهي باقية والجسم يتخونه البلى ، ثابتة والعيش تزعزع

الاحداث ، ناضرة والمنى يصوّحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من
الهم ظلام وسحب . فمن منكم يا سادة لا يذكر أول بيت أبصر فيه
الوجود ؟ وأول ملعب عرف فيه الرفيق ؟ وأول مكتب رأى فيه العلم ؟
وأول موعد لاقى فيه الحبيب ؟ ومن منكم لا يذكر ساعات السحر
اللذيذة الهادئة في غرفة النوم الوثيرة الدافئة حيث كان أطفال الأسرة
يتجمعون حول الجدة الحنون أو الأم الرؤوم أو الظنر الحانية ؟ فينصتون
في سكون وشوق الى ما تقصه عليهم من روائع الأسفار وبدائع القصص ،
وهم من طلاوة الحديث ، وجاذبية الحادث ، وبشاشة المحدث ، في حال
لا يصف الشعور بها غير شاعر . ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب أن
يخدر الاعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى وتسمع بقية
الحديث الشهي في الحلم . هذه الاقاصيص الشائقة التي كانت لعمولنا سحراً ،
ولعواطفنا المشبوهة سكرأ ، ولقلوبنا الغضة فتنة ، هي نوع من الاحلام
والاماني ، تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن
القديم ، وتنقلت من عهد الى عهد ، ومن مهد الى مهد ، ومن بلد الى
بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الأزمن
البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لأنها ظاهرة طبيعية من
ظواهره ، كالغناء والشعر والرقص ، فلا تعرف لها أولية ، ولا تجد في
الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الاساطير يزعمون أنها نشأت في
الهند ، وهاجرت منها الى بلاد الفرس ، ثم رحلت الى بلاد العرب ، ثم
استقر بها النوى في أقطار الغرب ! وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت
تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتسم بسماط العقيدة .
وما أبطالها الذين وجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال
التأريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ،
وشهرة بملازمة الاسفار وملابسة الغير ، فتحدث الناس أولاً بما فعلوا ،

ثم سرجوا حول اسمائهم وأنبيائهم الأكاذيب والأعاجيب حتى أصبحوا
أعلاماً على شخصيات متميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم ،
كدعد وليلي في الشعر ، وأبي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الأبطال فمن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً للمثل الأعلى
أو القدر العايب ، أو الجد العائر أو السلطان الجائر ، أو الهوى المتسلط
أو الأمل الآسي أو الحظ السعيد . وعلى ذكر الطفلة ومناغيات الأمومة
أراكم ولا ريب تركتموني أتكملم ، وعدتم بالذاكرة الى تلك العهود الحبيبة
تتخيلون سحرها وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون الى ذلك الصوت الخنون
ينبعث خافتاً من أعماق الماضي القريب أو البعيد ، مردداً أسماء أولئك
الأبطال الذين طالما اكتبتم لاكتبتم ، وتألتم لمصاهيم ، وشاركتهم
بالعطف في نعماء الحب وبأساء الحرب ولأواء الخطب ، من أمثال حسن
البصري ونور الدين المصري ، والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، إلى آخر
ما سجلته الذاكرة .

أنا كذلك ، يا سادتي ، ذكرت حين كتبت هذه السطور ، هاتيك
القبور التي ضمت هواي ، ورفقة صباي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص
لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة البلى منبعه ... ثم ذكرت شيئاً آخر :
ذكرت مجلي من مجالي الأنس في القاهرة كان جمعة القلوب وألفسة النفوس
ومستجماً الخواطر ، فعصفت به ريح المدنية الحديثة ، ذلك منظر
المحدث أو القصاص أو المسامر أو الشاعر في مقهى الحي ، وهو في
حلته الشرقية المفوَّفة الضافية ، فوق صُففته الخشبية البالية العالية .
وقد تجمع بين يديه وعن يمينه وعن شماله أوزاع العامة وشيوخ المحلة ،
يستجمعون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية وتدخين النرجيلة
العجمية ، وتبادل العواطف الاخوية ، ثم الاصغاء المشترك الى (أبي درويش)
وهو يقص بصوته الممتد وجرسه الهادي المتزن ، حروب (عذرة) أو

وقائع (أبي زيد) أو مخاطر (ابن ذي زن) ، فينقلهم بقوة تمثيله أو بحسن ترتيبه ، على جناح الخيال الى عصور هؤلاء الابطال ، فيشهدهم مجد البطولة وسُلطان الحب وفنك السحر وبطش المردة . ثم يرى الحبيث أن فورة الحماسة أو الشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أمر أو شدة ، فيسكت ليجمع « النقوط » من السَّمار والنظَّار ، فلا يحذ هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو الى اطلاق البطل من إساره ، وانقاذ الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره .

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون القهوة ذات الضوء الشاحب والصمت الحالم والمنظر الكئيب ، قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت في جوها الثريات ، وتلألأت في سماءها المصابيح ، وأخذت زخرفها بالسامرين . وقد جلسوا متقابلين على الدكاك العالية ، يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قد خرج الى القوم يتهادى في عتمته المكوّرة وجبهته المعصفرة وقفطانة الأنيق الأصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري ذلال تدوس على بطنه المنتفخ الضخم ، فإذا استوى على عرشه المنجد توهج البخور من جانب ، وتضوعت العطور من جانب ، ثم خشعت الاصوات ورنت اليه العيون ، وأنشأ يحدث ، فإذا بدا لأحد الجالسين أن يسأل عن سبب هذا المهرجان عجب أولاً من أنه لا يعرفه ، ثم أجابه بلهجة الفخور الزهّو : هذه ليلة زفاف « عبلة » الى عنزة ...

فإذا كانت القصة قصة بني هلال ، وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال الى عصبية شنيعة ، ورأيتم إخوان الامس قد أصبحوا أعداء اليوم ، فطائفة تتمعصب لبني هلال ، وطائفة تتمعصب لبني زنّانة ، وهؤلاء يريدون الشاعر على أن يقص واقعة ، وأولئك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر

لا يجيب إلا لمن يحزل له العطاء ، فإذا رجعت كفة وشالت كفة ، أخذ يروي من ذاكرته وغيبه على هوى الفتنة الغالبة ما لم يسجله تأريخ ولم يدونه كتاب ، فيزور الغرائب ، ويختلق الوقائع ، ويقمش مما خزنه في حافظته في مختلف الأسفار ورقائق الأشعار ليحجوك منها للبطل حلة تهز المعجب في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فاما نفحة أخرى تميل به الى الجهة الثانية ، وأما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويحلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ ، هو الأثر التأريخي والنموذج الحقيقي لذلك القصاص البارع الذي خلف لنا كتابنا الغالي الخالد (الف ليلة وليلة) ..

يرجع تاريخ هذا القصاص يا سادة إلى صدر الاسلام ، والفضل في وجوده كان أيضا للقرآن الكريم ، فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها من أسلم من أهل الكتاب ، كنميم الداري ووهب بن منبه وكعب الاحبار وعبد الله بن سلام . فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون الى الناس في المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الانبياء ، ويسرفون في تهويل هذه الانباء ، ابتغاء للعبرة والتماساً للموعظة . ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس ، فازداد إقبال الناس عليه ، وكبر إفك المقصاص فيه حتى طردهم أمير المؤمنين علي من المساجد ما خلا الحسن البصري .

ولكن دهاء السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول ، وقوة أثره

في توجيه الميول ، فاتخذوه لساناً للدعاية وسبيلاً لافتماع الحديث واختلاق الأفاصيص في الاغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية ، فولى رجلاً على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحزبه . وكان هو إذا انقفل من صلاة الفجر جلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه . وكان ولاته وقواده يقدمون القصص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة (٧٧) ان عتّاب بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة يحضهم على القتال ويقص عليهم . ثم قال : أين القصص ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : أين من يروي شعر عنقرة ؟ فلم يجبه أحد ..

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنباً الى جنب ، يشبهان على الناس وجوه الرشد ، ويوهان على العقول صور الباطل . والقصص كانوا في ذلك أشد وطأة على الحق ، لأنهم ينسبون ما يفترون الى التاريخ أو إلى الدين . فلما هدأت ثائرة الاحزاب ، وسكنت طائفة الفتن ، ونضجت العقول ، عاد القصص الى المسجد ، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قد فطن الى كذبه وبهتانه ، والخليفة قد استغنى عنه بروايته وندمانه ، فانقلب الى العامة بسامرهم في أملاهم وأعراسهم بما أثر من أيام العرب ، ونقل من أساطير المعجم ، وروي من أخبار الفتوح .. وانتشر القصص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر اجتماعها وحاجة من حاجات عامتها ورعاها ، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الاسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عنف المتسلطين من السلاجقة . وعسف المنغوليين من المغول وغزو المتعصبين من الفرنك فطلبهم العامة تفريخاً للكرب ، والخاصة



الاستاذ احمد حسن الزيت والامستاذ محمد بهجة الاثري
في شهر شباط - سنة ١٩٦٨

تشجيعاً على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أبرع صناعة وأنفق بضاعة وأرفع مكانة ، لان طبيعة إقليمها ونظام اجتماعها وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي مالموم الرقمة متصل العمارة يجود بالخير الكثير على الجهد القليل فكان . لذلك أهله قليلي الاسفار ، يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة ، يميلون الى اللهو والسمر ، وكانوا لا ينفكون بين يسر متدفق طلق ، إذا عم الفيضان وعدل السلطان واقتصد الموت . وعسر متجمم إذا فحش الغلاء وأبحّ الربا وبغى الحاكم . وعلى الحالين كان السامر والمسامر عنصرين من عناصر الحياة ينظّران بهجة الحياة في الرخاء ، ويسرّبان كربة النفس في الشدة . وكان أول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنتره التجيبي سنة ٣٨ هـ : تولاه مع القضاء ثم أفرد به ، ثم تعاقبت القصاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض ، فكانوا أصداء للعقيدة وأبواقاً للسياسة ، تسمعون عنهم في كل عهد لهجة ، ولكل دولة سنداً وحجة وتروى ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان يعقوب بن كلس وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص في جذب القلوب لأهل البيت . وكان مقتل الإمام (علي) ومأساة الإمام (الحسين) موضوع المناظر والسوامر في شهر رمضان والمحرم

وقيل إن ربيعة حدثت في قصر « العزيز بالله » فتناقلتها الافواه ، ورزقتها الأندية ، فطلب الى شيخ القصاص يومئذ يوسف بن اسماعيل ^(١) أن يلهمي الناس عنهما بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنتره تباعاً في

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزري ، ومن قال بهذا الرأي الاستاذ كوسان دي بريسغال الذي طبع لهذه السيرة مائخداً في باريس .

اثنين وسبعين جزءاً ، سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين الى اليوم .
وهي إلباذا العرب ، لا ينازعها هذا الشرف الى الآن عمل في آخر .

وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغداد
والقاهرة . ففي عهدي المقتدر بالله العباسي ، والعزیز بالله الفاطمي ، كان
القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الاخبار ، ويتنافسون
في جمع الاسهار من الوراقين والرحالين والمامة .

ولكن القصص في العواق كان من عمل الكتاب ، بصورون فيه أنبل
عواطف الناس ، وأجل مواقف الحياة ، ويلقونه زهوراً وعطوراً في
مجالس الخلفاء وسوامر الملوك . فكانت بلاغة المتحدث وجمالة السامع
ونبالة الموضوع ، تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والفصر ، وتنزع
بها الى السليقة العربية المجدولة على الإيجاز والقصد في الشر والخطب
والرسائل والقصص . فما جمعه ووضعه (الجهمشيارى) و (ابن دلان) و (ابن
الطار) في القرن الرابع من الاقاصيص فى الحب الطروب والترف
المسرف ، وما وضعه من قبل هؤلاء (سهل بن هرون) و (علي بن داود)
و (أبان بن عبد الحميد) من الاسهار في الامثال الرمزية والحكمة العالية
والسياسة الرشيدة ، وما صنعه من قبل هؤلاء (عبدالله بن دأب) و (هشام
الكلبي) و (الهيثم ابن عدى)^(١) من الاخبار في الهوى العذري والسخاء
العربي في الاسلام والجاهلية ، كل اولئك موسوم بسعة العقلية العربية
الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

أما القصص في مصر فكان غالباً ، من عمل القصاصين والمسامرين ،
يلقونه من الكتب ، ويتلقفونه من الإخوان ، ويحدثون به الدهماء في

(١) عيسى بن دأب وهشام الكلبي والهيثم بن عدى من الؤضاعين لا يعتمد رواياتهم .

المجالس العامة . ورزق هؤلاء القصاص على قدر ما عندهم من القصص فإذا ما انقطع أحدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم لذلك مضطرون الى تطويل الموضوع بالاستطراد ، وبسط الحوادث بالتزيد ، وجذب القلوب بالإغراب والمبالغة . ومن ثم اتخذ الادب القصصي في مصر شكلا لا عهد للادب العربي به ، ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة (رومان) في الاصطلاح الغربي ، فإن المعروف الشائع من قبل إنما كان « Fable » والاقصوصة « Conte » والحكاية « Nouvelle » وهذه الانواع قد تولد بعضها من بعض على نحو ما يرى الاستاذ (بروتيير) الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب (دارون) على الانواع الادبية . فالاقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الاقصوصة ، والقصة نشأت من الحكاية باتساع الخيال وفعل المبالغة وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوؤها إلى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لان عملها يقتضي النطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب . والعرب في عهودهم الاولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الامور ، ثم كانوا في عصور النحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بأدبهم فيضطرون في حضرة الملوك أن يراعوا الادب ، فلا يفرقون في الحوادث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق .

أما القصاص المصري ، فقد تهيأت له الاسباب اللازمة لخلق القصة . كان سميح الاوزاع والعامية فلم يتقيد معهم بقوانين الخلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ . فهو يصطنع اللهجة الصريحة ، ويستعمل الالفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط والتلفيق قصداً الى الاغراب والتشويق . ويعتمد غالباً على المفاحآت القوية ، ويستطرد كثيراً إلى الحوادث الفرضية ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق ، لأنه يحملها ، والجمهور الذي يسمعه

لا يعلمها ، فاستطاع بذلك أن يزور أغرب الحوادث ، ويجمع شتى الأحاديث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة ، وللعمامة مصدر ثقافة .

كان القصص المصيري يعتمد في مادته على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والروايات الصحيحة والمُدخولة ، ثم يضيف الى ذلك ما تنوّل في مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين . فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة ، يدونون ما رأوا من الأعاجيب ، كما فعل اليعقوبي وابن فضلان وبزرك بن شهر يار مثلاً ، ثم يحدثون بها الناس ، كأن يقولوا لهم مثل ما حكاه ابن خردادبه من ان في بعض الامم رجالاً عراض الوجوه سود الخلود لا تزيد قامته أطولهم على أربعة أشبار ، في جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وأن فيهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كراس الكلب وجسمه كجسم الثور والاسد . وما جاء في كتاب (المستطرف) من أن في « البلغار » من طوله أكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل ، وما رأى الرحالون بالطبع هذه الاشياء ، وانما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس ، فظنوها حقيقة .

كان القصص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كبيرة الفصول والفضول تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد الى حوادث شتى لا يصلحها بحياة البطل إلا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة عنتره : بناها على حادثة أصيلة صحيحة هي (حرب داحس والغبراء) التي شئت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام ، ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو عنتره بن شداد العبّسي ،

فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والمحاسة والاجارة والشعر والغزو والسلب والثأر . ولكن حروب عبس وذبيان مهما هوت فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلا ولا تدّر عليه من المال كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنزة وبين فرسان العرب ، فيقابلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعاً بالنكول والعجز . والقصاص في أثناء ذلك ينقلنا في السهول والادوية ، ويقلبنا بين المضارب والاخبية ، حتى جلا لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل في خواطركم عن طريق التاريخ المقتضب المفكك إلا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك أن الشوق شديد ، وأن الامد الذي يريد بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ، ويقدم به الى مصر بلد القصاص ، فيقود بها عنزة حروباً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً ، لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه .

ثم يذهب به الى القسطنطينية ، ويواجه من امرأة رومية ، حتى إذا ظفرت المذون أخيراً بالشجاعة الخارقة ، عاد ابنه من (بينظرة) إلى الحجاز ، فطالب بعرش أبيه ، وحارب معاديه ومقتصبيه . والمهمة التي اختارها القصاص لعنزة تدل على قدرة فنية عجيبة .

وكان (لامتريين) لا ينفك بها معجباً ومنها طروباً ، فقد ذكر أن (الاسد الرهيص) أحد خصوم عنزة المقهورين الموتورين رماه غيلة بسهم مراش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق ، خشي على قومه من بعده شرّ الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر متطياً جواده متكئاً على رمح ، وأمر جيشه بالنهقر والنجاة ، فأرتد الجيش ، وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ، ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنزة ، حتى فاضت روحه على صهوة

جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه . فلما طال وقوفه وجاوز الحد سكونه ، ارتاب الجيش المهاجم ، فدبر حيلة لكشف الأمر ، فأرسلوا إلى جواده حَجَراً تهيجه ، فلم يكذب يراها الفرس حتى وثب وثبة خرو لها فارسه على الارض صريعاً .

والغالب فيما أظن ، أن القصص قد أخذ هذا الختام البارع من مصرع (سليمان بن داود) أمام عماله المسخرين من الجن ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة ، « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته فلما خرو تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة في عصر كان وادي النيل فيه منيع الحوزة باهر الجلالة صافي المورد ، لا يكدره والسع ولا واغل ، فكان استقلاله يلهم العزة ، وعروبته توحى الشهامة . فلما هبت الاعاصير الهوج بالبربرية الجاحمة فأطفأت منائر بغداد وزعزعت عرش الخلافة ، وعشت المعجمة الجاهلية بثرات العرب من علم وأدب وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر تنبح الهلال الآفل وتنهش المجد الطريد . رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة الآفلة تصويراً عجيباً ، ورأينا القصص قد اتسع خياله بقدر ما ضاق علمه ، فهو يخاف بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والحوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة ، ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة غفلاً عن أسماء مؤلفيها ، لان القصص المحترفين إنما كتبوها لانفسهم فيما أرجح ، ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنشرت على شكلها دون اسم ولا وسم ولا تعريف .

وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذي يزن والاميرة ذات الهمسة وفيروز شاه . فأما أنها كتبت في هذي العهد ، فذلك واضح لأدنى نظر من لغتها وأسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور . وأما أنها كتبت بصر ، فذلك ثابت من أماكن وقائعها وأسماء أشخاصها . فأبطالها جميعاً عاشوا بصر حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها ... فالمهل بن ربعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي يزن هو الذي أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحري الذي دفعه في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجيزة اسم من أسماء زوجاته . وسنبك الثلاث ودمهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع الى فرعي رشيد ودمياط لان الملك (سيفاً) وقف وهو قادم به من السودان يقاثل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراءه قد عبّ عبابه وطفحت أواذيه ، فاندفق شطر منه الى الشمال ، واتجه الملك بالشرط الآخر الى اليمين . ومدينة (سمند) أصلها سماء نود ، لان الحكيم (نودا) صاحبها قد عقد عليها سماء بالسحر توقفاً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل الى مصبه ، ثم دفعه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم - وقال إن قبره هو الذي يعرف الآن (بالجيوشي) .

وقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا الدور ، فان المواطن الدينية والحماسة القومية التي الهمتها في قلوب المسلمين هذه الغارات قد حملت القصص على أن يتملّق هذه المواطن ويغذيها بما يلفق من الاشعار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر . فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً ، يقتحم المعقل والارصاد على الوثنية والشرك في معالم الارض وبجاهلها وهو يقول :
(لا آله إلا الله ابراهيم خليل الله) ، وكذلك سائر الابطال في القصص ،

إلا أنهم كانوا قبل الإسلام لابعده .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم الماليك بفساده وحكم
الأتراك باستبداده ، قد أتيا على ما بقي من أركان الاجتماع ، وحلّت
أواصر الاخلاق والطباع ، ومني الناس بالاحاح الأوباء وشراسة الجُبّة
والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخلدوا إلى التصوف
أو إلى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والافيون ، وحارب بعضهم
بعضاً بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الدنيا بالحديعة والغيلة ،
وحال نظام الفتوة في مصر الى مناسر من اللصوص والعيارين يقطعون متون
السبل ويعبثون بالامن . والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء
ويجلونهم إجلال الزعماء ، ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة ،
فظهر حينئذ ذلك القصاص الوضيع الذي يمثل هذه الحال بحقارتها
وسفالتها ، وبصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها ، كالقصص الذي يدور
على (علي الزبيقي) و (أحمد الدنف) و (حسن شومان) و (دليّة
المحتالة) و (دالة المحتالة) كما يسميها المسعودي . وأصبح اسلوب القصص
في هذا الدور دائراً بين الجهالة والقحة ، فهو يستعمل في قصصه لغة
مبتذلة وتراكيب فاحشة وجمل محفوفة ووقائع واحدة يرددها في كل
قصة ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت
مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة ، واعتماد الناس في
الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر ، فتكدسوا في السوامر حول
القصاص . وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وافرة من الاساطير
والاسمار فهمتوا يدونونها ، كما دونت تلك السير من قبل ، فكان مما دون
في تلك الحقبة الغربية كتابنا وموضوع محاضرتنا (ألف ليلة وليلة) .

(الف ليلة وليلة) يا سادة ، كتاب شعبي ، تمثلت فيه طوائف الشعب
وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته ، وتكلمت فيه اساليبه ولهجاته ، فهو

كالشعب . وكل شيء للشعب قد لقي من جفوة الخاصة وترفع العلية أذى طويلاً ، أغفله الأدب . فلم يتحدث عنه ، واحترقه الأدباء فلم يبحثوا فيه ، ورآه محمد بن اسحق المعروف بابن النديم فقال إنه غث بارد ، لأنه نظر إليه نظره الى الأدب الارستقراطي الذي يصور الترف ، ترف الخيصال وجمال الصنعة . فلما حقق العصر الحديث تغلب الديمقراطية وسيادة الشعوب ؛ واستتبّع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي (الرومانتيكي) في الغرب بحياة السوق والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء ، وهب رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور) ^(١) الشرق ، أخذ أدباؤنا بحكم التقليد والعدوى يعطفون على أدب السواد ، فدوّنوا اللغة العامية ، وجعوا الاغاني الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا في رجفة من الدهش الى قول الأوربيين : إن في أدبنا الموروث كنزاً دفيناً من هذا النوع ، له في أدبهم أثر قوي وشأن نابض . ولكنهم لم يخلدوا بدياً الى هذا القول بثقة ، واستكثروا على هذا الكناب الخرافي السوقي أن يذكر في الكتب ، ويوضع في المكاتب ، وينبئه الناس الى فضله ، ويهينوا العرب بانتاجه ، حتى رأبنا بعيننا أنه نقل منذ أوائل القرن الثامن عشر الى كل لغة ، وحلّ الموقع الأول من كل أدب ، وظفر بأعجاب النوابغ من كل أمة ، حتى قال فولتير إنه لم يزاوِل فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشر مرة . وتمنى القصصى الفرنسى (استندال) أن يحوا الله من ذاكرته « ألف ليلة وليلة » حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته .

ثم قرأنا أن اقلام المستشرقين أخذت تتجادل منذ اوائل القرن التاسع عشر في أصله ، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وأن دوائر المعارف

(١) مجمع التقاليد والاساطير الشعبية لأنه من الامم .

الكبرى سجلته في حقولها وخصته بالطريف الممتع من فصولها ، وأن
الاستاذ (فكتور شوفان) أفرد له في كتابه « تاريخ المؤلفات العربية » جزءين
سرد فيها مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته وجزءين آخرين لخص فيها
طائفة كبيرة من حكاياته . وأن الكتاب الروائيين قد استفادوا للسبب
والمرح ، فاستخرجوا - والاول رواية « لص بغداد » والثاني « قسمت »
أو القضاء والقدر ، وأن رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا
قد اقتبسوا منه أدباً للأطفال فاخترصروه وصوروه ، ولقيت أنا منذ
عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر أمريكياً ، قد ارسلت الأول
جامعته والثاني جمعيته لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات ألف ليلة وليلة .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرأه وتسمعه . ومطابعنا الراقية تصححه
وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون اليه في تاريخ الأدب . ولكنهم الى
اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف
العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه قد سجل على توالي
القرون أطوار اجتماعنا ، وصوّر بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ،
ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ،
وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب ، والأدب الذي احتقر العامة ، فكان
منه للنقاد الاجتماعي والمؤرخ والفيلسوف والأديب الباحث والكاتب
القصصي منهل ثر الينابيع صافي المورد ، ثم كانت - فضلاً عن ذلك -
للشعب العربي في زمن انحلاله وضياح استقلاله وصعوبة اتصاله قيس يبعث
الحرارة في النفوس الخاملة ، وذكرى تلوع القلوب أسى على المجد الذاهب ،
وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون « ألف ليلة وليلة » علماً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان
أدل عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة

ومكانها البارز في التاريخ ، ذلك لأن آثارها المادية قد ألحّ عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محوها . أما هي في هذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخب ، وصداها مدوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في بغداد متحف زاخر بالأعاجيب ، دونه ما للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لأنه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث الى جميع الشعوب وهي صامتة ، حتى أصبح لفظ بغداد في جميع اللغات مردافاً للعمران الزاهر والترف العجيب ، واسم الرشيد رمزاً للعادل الشامل والزمن الخصيب . ذكر أحد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخي فقال : « كان ذلك في العصر الذهبي ، إذ كان يحكم الخليفة العادل هارون الرشيد » ..

ذلك بعض فضل الكتاب على بغداد . وقد ذكرت من قبل ، أنه لم يؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه أحد من بينها ، وإنما جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة . وطبع أول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة في القاهرة ، ثم كان حظ القاهرة من « كتاب ألف ليلة وليلة » أن صورها للناس مثابة للاحتيال والسطارة والجهل . بينما يصور بغداد مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً للكرم ، وعشاً للحب ، ومظهرأ للترف . حتى كان من جراء ذلك أن أهل بغداد لا يزالون يقولون (عياق مصر وحيال مصر) ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغدد فلان إذا أظهر البغدة . وهي كلمة مشتقة من « بغداد » على ما أرجح تدل على السرف والترف والبطر والنبل ^(١) .

(١) كان هذا الاشتقاق في الماضي البعيد لعهد السعيد . أما في العهد الحديث ، فقد راح اخواننا المصريون يطلقون لفظة تبغدد الرجل إذا كثر لحنه وسحق سيوفه حتى العظام . حدث للوفد الحقوقي العراقي برئاسة الاستاذ منير القاضي في الحفل الجامعي الذي أقامته الجامعة في القاهرة ان عثمان الشيخ سعيد شرع ينشد قصيدة الزهاوي التي حيا بها مصر ، ←

وسبب اختلاف حظ البلدتين من الكتاب أن القصاص المصري إذا تحدث عن مصر - وهو منها وفيها - تحدث عما يرى وعبر عما يسمع ، وقد علمنا في أي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . أما إذا تكلم عن بغداد فإنما يتأثر بعوامل أربعة : يتأثر بما وضع من الأفاصيل الجميلة في بغداد ، ويتأثر بما ملا الآذان وشغل الأذهان من عظمة بغداد واهية الخلافة ، ويتأثر بما ركب الله في طباع الناس من تقديس الماضي وتعميم البعيد ، ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الامم ، فأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت الرشيد ومصرع بغداد وذكبة المجد الأثيل .

أما بعد ، فأني أحاول الآن ، يا سادتي أن أكشف عن حقيقة « ألف ليلة وليلة » بمقدار ما تهيات لي المراجع في بغداد ، بعد أن توفرت على قراءته ودراسته في مختلف الطبوعات ، ووقفت على ما نشر عنه من الأبحاث في بعض اللغات ، وما أريد بالطبع أن ادفع السأم في نفوسكم بذكر ما لا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وإنما اجتريء بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جهله من هذا الكتاب .

وهنا يدركنا المساء كما يدرك شهرزاد الصباح ، فنرجي البقية الى الأسبوع المقبل إذا تفضلتم بالسباح (٢) .

« فأكثر من اللحن وأساء تقطيعها وتقدم ثان وثالث وأراه الاستاذ ، وهو نحوي كبير ولنوي ان يخفف الحال فوقع في بعض الخطأ ، فلما أخذ بعض المحتفين يلقون كلماتهم ، صار ينعنون الطلاب من يقع في اللحن بقولهم تبغدد الرجل .

(٢) كنت بين شهود هذه المحاضرة وكانت في يوم من ايام شهر رمضان . وبالرغم من ان اكثرنا كان صائماً ودداً لو استمر الزيات في محاضراته ، فقد خلب البائنا وسحرنا بالقائه الجميل وتقطيعه الحسن ونبرته العذبة .

المحاضرة الثانية عن تأريخ الف ليلة وليلة :

ألقى الاستاذ الزيات محاضرته الثانية في قاعة المدرسة الثانوية ببغداد بعد أسبوع من محاضرته الأولى ، وذلك في كانون الثاني سنة ١٩٣٣ م . وقد غصت القاعة بالمستمعين حتى ان الكثيرين قد اضطروا الى الوقوف لاستماعها . وقد وفي الاستاذ الموضوع تحقيقاً وبحناً ، وأوضح تأريخ هذه القصة وما دخل عليها من زيادات ، وذكر من عني بدراستها من الغربيين ، فجاء تحقيقه كافياً شافياً لم يبق لمستزيد طلباً في زيادة . وهذا نصها :

« ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كالف ليلة وليلة ، أصله مفقود ، وهؤلؤه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبّه به ، لأننا إذا فزعنا الى التأريخ نسأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الأديب ومنهاج المؤرخ . وإذا رجعنا الى نص الكتاب ندرسه لنتبين من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعقائد أهله نصيب كل جنس وجيل في تكوينه ، وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجة خادع الرأي قليل الغناء ، لأن كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه ففقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تجدد نسختين منه تتفقان ، لا في الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول : الصعلوك الثاني إنه قرأ القرآن بالروايات السبع وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراءات كالألفية في علم النحو . وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية ، ويكتفي بذكر الروايات السبع ، فلو أن ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمنا بأن هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ هـ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة

وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى أي الرقمين نعتد في تأريخ هذه الحكاية ؟

إذن لم يبقَ للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تأريخ الحضارات المقارن ، وعلى ما بقي في الكتاب من صور الأساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهها الناسخ ، ولم يعفّ عليها الزمن .

كان أول من ذكر ألف ليلة وليلة من المؤرخين على بن الحسين المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ في كتابه (مروج الذهب) ، فقد قال حين عرض لأخبار إرم ذات العماد : « إن هذه الأخبار موضوعة من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب من الملوك برواياتها ، وانت سبيلهما سبيل الكتب المنقولة اليها والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية . (وفي رواية أخرى الفهلوية بدل الهندية) مثل كتاب هزار افسانه وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرآزاد ودنيا زاد .

ثم جاء بعده محمد بن اسحق المعروف بابن النديم المتوفي سنة ٣٧٥ هـ فقال في كتابه الفهرست : « أول من صنف الخرافات ، وجعل لها كتباً ، وأودعها الخزائن الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ونقلته العرب الى اللغة العربية ، وتناولوه الفصحاء والبلغاء فهدبوه ونقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ، ومعناه ألف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة

وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك ، لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد . فلما حصلت معه ابتدأت تحدّثه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة . . . رزقت في أثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان الملك قهرمانة يقال لها دنيا زاد ، فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحميا ابنة بهمن .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : (والصحيح إن شاء الله أن أول من سمر بالليل الاسكندر ، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة ، وإنما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزاز أفسانه ، ويحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، لأن السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيت به بتامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث) .

فالرجلان كما ترون متفقان على أن الكتاب منقول عن هزاز أفسانه الفارسي . وأنه موضوع في خبر الملك والجاريّتين : شهرزاد ودنيا زاد ، وأن اسمه في عصرهما كان ألف ليلة ، لا ألف ليلة وليلة ، ولا عبرة بمجيء الكتاب في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب ، فان ذلك من زيادة المصحح . ويختلفان في نسب البنات والجارية . فيقول ابن النديم إن شهرزاد من أولاد الملوك ، وان دنيا زاد قهرمانة الملك ، ويزيد أن الكتاب يحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، وأنه ألف لحميا أو هميا او حماني او جمانة او خماني على اختلاف الروايات ، وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ، ولا يوجد غيرها

فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء ، اللهم إلا إشارة الى وثيقة
 ثالثة مفقودة نقل عنها المقرئ في الخطط ، والمتقري في نفح الطيب
 وعزواها الى مؤرخ مصري اسمه القرطبي ألف كتاباً في تاريخ مصر على
 عهد الخليفة العاضد الفاطمي ذكر فيه ألف ليلة وليلة ، وقايس بين
 قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا
 دليل على أن الكتاب على أي صورة من الصور ، كان معروفاً في مصر
 على عهد الفاطميين ، وأن اسمه كان اذ ذاك ألف ليلة وليلة ، وأن
 عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله ، ثم تجاهله بعدئذ أدبنا
 ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ولم يسجلوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس
 المستشرقين (البارون سلفسترد ساسي) فبدأ البحث العلمي في أصله
 بمقالين نشرهما في جريدة العلماء ، أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده
 بإحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد
 وأنه مؤلف في العهد الأخير ، وأنه عربي الوضع من فاتحته الى خاتمه .
 ودفع قول المسعودي أن فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية .
 فنقاش أدلته قوم آخرون أشهرهم (يوسف فون هامر الالماني) ، فقد
 نشر في سنة ١٨١٩ مقالة في إحدى المجلات الألمانية ، وفي سنة ١٨٢٣
 مقالة أخرى في المجلة الآسيوية ، أيد فيها رأي المسعودي تأييداً لا سبيل
 عليه لأخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ (وليم لين الانكليزي)
 قسماً من ألف ليلة وليلة ، وقدم له مقدمة حاول أن يثبت فيها أن
 الكتاب تأليف رجل واحد ، وأنه ألف بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد .
 ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من الشقات ، أشهرهم :
 كوجي ومولر ونولدكي واوستروب وكريمسي وشوفان وكارادفو ،
 فاستجولوا على قدر امكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب ، حتى أصبح
 من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جهلوه أن تثبت في هذا
 الأصل رأياً يقارب الصواب إن لم يكنه .

أصل هذا الكتاب نواة من الأقاصيص الهندية والفارسية تسمى (هزاز أفسانه) ترجم الى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان (ألف ليلة) وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم . ثم تجمع حول هذه النواة في الأزمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان : طبقة بغدادية صغيرة وطبقة مصرية كبيرة . فأما النواة أو الأصل أو الإطار كما يسميه الباحثون ، فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية : حكاية الملك شهریار وأخيه شاه زمان ، وهي مقدمة الكتاب ، وحكاية التاجر والجني ، وحكاية الصيد والجني ، وحكاية حسن البصري ، وحكاية الحصان الأبنوس ، وحكاية الأمير باسم وجوهرة السمندلية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان ابن الملك شهرمان والأميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال ..

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألمعنا الى ذلك من قبل ، ففريق يرى - ورأيه الأرجح - أن المقدمة وبعض حكايات الأصل هندية ، ويبني هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب . فأما المشابهة في الموضوع فإن في حكاية الملك شهریار وأخيه "مشابهة" من (كاثاسارت ساجارا) الهندية ، وأما المشابهة في الطريقة فإن ادماج حكاية وتوليد قصة من أخرى ، إحدى خصائص الأدب القصصي الهندي ، وهي ملحوظة في ملحمة (مهابها رامة) وقصة (بنجة تنترى) أصل كليلة ودمنة ، لأن الباعث الأول على القصص في الأدب الهندي كان بناء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور من عزمه ويحجز المتسرع عن وجهه ، كما فعل الببغاء مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية (سوكة سابتاني) ، فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلمو

الحديث عن زيارة خليلها في غيبة خليلها ، ويقطع حديثه دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً إذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات ألف ليلة وليلة . فلا نزاع إذن في أنها هندية . وأما المشابهة بالأسلوب فإن لوازم القاص الهندي أن يقول : لا تفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلاناً ، فيسأله السامع . وكيف ذلك ؟ فيجيب القاص على هذا السؤال برواية القصة . وهذا الأسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من ألف ليلة وليلة ، وقولهم فيها : وكيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية : (كانت ائات) . ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات ، وينتهي إلى أن هناك طائفة من الأفاصيص لا شك في أنها فارسية ، وهي حكايات الحصان الأبنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال ، وحكاية قمر الزمان والأميرة بدور وحكاية بدر باسم والأميرة جوهرة السمندلية وحكاية اردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى أن الأصل كله فارسي ، تأثر بالعقائد اليهودية والاعريقية والإسلامية ، ويريد أحدهم وهو الاستاذ (كوجي) أن يجعل بين هيككل (ألف ليلة وليلة) وبين قصة (استر) اليهودية صلة ونسبة ، ذلك لأن ابن النديم في الفهرس يقول إن هزاز افسانه ألّف لحماية بنت بهمن ، والطبري يقول إن استر هي زوج بهمن ، والمسهودي يجعل استر زوجة لبختنصر ويسمّيها دنيا زاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد أيضاً على أم حميا بنت بهمن أي على زوجة بهمن ، وهي التي سماها الطبري استر .

ويقول المسعودي أيضاً في موضع آخر : إن أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسهودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها ، وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الأولين . أما وجه الشبه

بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة ألف ليلة ، فهو أن الملك اسريوس كان كالملك شهریار ، لا يرى المرأة إلا ليلة واحدة فتزف اليه البكر مساء ليطردها من قصره في الصباح دون أن يقتلها كما يفعل شهریار ، واستر كانت كـشهرزاد تستهوي الملك وتحلب ليه ، فيستبقيها الوزير ، وشهرزاد بنت الوزير وهي تفرر بنفسها لتنفذ بنات جنسها من شر الفضيحة والذل ، وشهرزاد تفعل ذلك الفعل لتدراً عن بنات قومها خطر السباء والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الأصل عربياً بحتاً ، أو فارسياً بحتاً ، أو هندية مشوباً ، فهي أن القصص العرب قد عبثوا به عبثاً شديداً ، فبدلوا أسماءه ، وغيروا أسلوبه ، وموهوا لونه ، واخترعوا بعضه ، وطبعوه بطابع إسلامي محض . ثم بعثوه في جوانب الكتاب وثنايا القصص حتى التأت على المقابيس الفنية فرزه وتحديده . وأما الطبقة البغدادية فتتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب واتسمت بسممة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف ، تمثل حياة الطبقة الوسطى بأسلوب صحيح عذب ، وتصور حضارة بغداد في أيام العروس بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغنى في الاسواق ، وضجة الغلمان في الافنية ، وتصف الجوارى في المقاصير ، ومداعبة الزوارق اللاهية في دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملكاً رحمة ورسول عناية ، يحيى ، متنكراً وظاهراً في كل مكان بالثورة المحروم ، والعدل المظلوم ، والوصل للعاشق البائس . ولا أقصد بذلك إلى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون ببغدادية ، فان افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعلاه رمزاً للرجاء والعدل ، حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن

الرواة ودون في الكتب مستقلاً وغير مستقل ، فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الأدباء البغداديون ، ثم طواها الزمن . وقد عدّ ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي ابن أديم ومنهله وقصة عمرو بن صالح وقصاف وقصة أبي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة أحمد بن قتيبة وبانوجة ، وقصة ريحانة وقرنفل ، وقصة سكينسة والرباب الخ .

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكايات علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقه الأسى على جدّهما العائر ونهايتهما المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهيبة ، واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة ، وهو الرسائل الغرامية التي تجري بين العاشقين إذا عزّ اللقاء وعيل الصبر ، ثم حكاية انس الوجود وورد الاكمام وهي قطعة حب وشعر وغزل ، تجدون من فيها حباً أو حبيباً أو واصلاً بينهما ، والشعر الذي تضمنته إنما أنشئ لها خاصة ، فهو مطابق لمقتضى أحوالها مشتمل على أسماء ابطالها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سمالك أنس الوجود يا جامعاً ما بين انس وجود
يا طلعة البدر الذي وجهه قد نور الدنيا وعمّ الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الحمال والصعاليك الثلاثة ، ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليع ، ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني ، ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري ، ثم حكاية المعتضد مع أبي الحسن الخراساني وهي تدور على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل ، ثم حكاية الشاب البغدادى مع جاربه ، ثم حكاية الجواري الضرائر ، ثم حكاية السندباد البحري

وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخطرات في مياه الهند والصين قام بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في العمران والعظمة . وبما لا جدال فيه أنها كانت في الأصل رحلة حقيقية ، شوهدا الناس بالمبالغة وزيفها القصاص بالافتعال والتزويد ، ولعل صاحبها هو الذي نحاهها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهریار في كتابه عجائب الهند ، فلو صفیناها من سخف الاساطير وصرف الحديث كالسمكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وببضه الرخ التي يحسبها الراؤن قبة ، إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هذا الموضوع ، كوضع جزر المهرجاء أو المهرجان كما يسميه السندباد والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان وما ذكر عن الفيل والكركدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل النخ .

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف قلبه حب الاسفار ومصارعة الاخطار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض غمرات الهول ويكابذ غصص الفرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ ألا يزعم رحلة بعد هذه المرة ، فاذا ما عاد سالماً غائماً الى دياره ، ونعم حيناً بالعيش الرخي بين نداماد وسماره ، عادته الوله الشديد الى البحر الغادر ، وتازعته نفسه الطلعة الى الافاق البعيد ، فيجتوى الراحة ويعاف النعم ويبتاع البضائع ويكثرى السفينة ثم يقلع عن البصرة .

واما الطبعة المصرية :

فهي اوسع الطبعمات وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقها في اللهجة وأقلها في البلاغة ، تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليمودية

والأساطير الفرعونية . وقد قسمتها حسين حلتها الى طبقتين :

قديمة تنتهي بالقرن الثامن ، وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تدور على المغامرة والحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والأرصاد والجن والسحر والقدر ، كحكاية مسرور وزين العواطف ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والاحدب ، وحكاية مزين بغداد ، وهي قطعة فنية رائعة . ثم حكاية علي شار أو بشار مع زمرد ، والطبعة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الأسلوب جريئة العبارة ، تدور تارة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعبر . وظهور القصص المحتمال الداعر بجانب القصص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة - إنما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله ، وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن أن تبدو هذه الظاهرة ايضاً في قصص بغداد لولا أن مغامرات اللهو والحب فيها قد غلبت في نفوس القصاصين على كل شيء به ، وهم الى ذلك كتابون يتأهبون عن حياة العامة ، فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته أبو الباز ، شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص ٤٧٩ من طبعة مصر : « إنه برز في مكايده وما أورده من حيلة على « دالة المحتالة » وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم » . ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة . وكانت في بغداد كما كان في القاهرة نظام « التوابين » وهم اللصوص ، فإذا حدثت حادثة عارفوا فعل من هي ، ذكر ذلك المسعودي ايضاً في ص ٤٧٣ من الجزء نفسه ، وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء

والشيوخ كما يقصه (ألف ليلة وليلة) .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحيل إذن بطبيعة العمران ، فضلاً عن تأثرهم بما بقي مذكوراً على بعض الألسنة من أساطير اليهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا والصوص الأربعين مثلاً تشبه قصة وردت في (كتاب الأقاليم الشعبية القديمة) لكبير الأثريين الاستاذ (ماسبيرو) ، ثم تأثروا في أقاليم العبر والعظات بالاسرائيليات كحكاية مدينة النحاس ، وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك ما دعا الاستاذ (فكتور شوفان) الى أن يقول إن القصص المصرية الأخيرة ، إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الاستاذ ، لأن علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهور الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها ، وأشهر أقاليم هذه الطبعة حكاية علي بابا والأربعين حرامي ، وحكاية علاء الدين ابي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منها لص بغداد للسينا ، ثم حكاية معروف الاسكافي ، وحكاية أبي قير وأبي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وماكة الحيات ، وقصة مدينة النحاس ، وحكايات أحمد الدنف وحسن شومان وعلي الزبيق ودليلة المحتالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك الناصر والولة الثلاثة وحكاية الرجل الصميدي وأمراته الافرنجية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الأربع تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأقاليم الصغيرة ، ليبسغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد ، كقصة عجيب وغريب وسهم الليل ، وهي من قصص البطولة والحرب ، تستمر وقائعها في العراق بين العرب والعجم أو بين دين الحنفية والمجوسية ، وتستعير

صورها من قصة عنتره وسيرة ابن ذي يزن . ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير ، وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والاميرة دنيا ، وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد سخيخ لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي ملفقة من أمثال كليله ودمنة ، وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجلس الرشيد ، فان الجسارية كانت تجيب السائل في الفقه على المذهب الشافعي وتصرح بذلك ، وتفكر في التقويم الزراعي للشهور القبطية كهيك وبرمودة وبشنص ومسرى وأمشير ، ثم تقول في حضرة الرشيد ، الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان ، ومن الغريب أن الاستاذ (أوستروب) يقول في (دائرة المعارف الاسلامية) إن هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان (لادون لا تيودور) أو تودور ، ويظن تودد تصحيف تودور ، ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لأرى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها من مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة ..

وهناك عدا ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والأجواد ونوادر الأولياء والزهاد نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين ، لم يقصد بها إلا توسيع الكتاب .

مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته :

ذهبت جهود الباحثين باطلا في تحقيق هوية المؤلف ، لأن (هزار أفسانه) نقل الى العربية 'غفلا لم يُسمَ واضعه' ، ثم غشيت الطبعتان

البغدادية والمصرية على التدريس ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الأقلام دون أن يسندوها الى راو أو يعزوها الى مؤلف ، ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ ويقص لا ان يروي وينشر ؟ فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته ، قيض الله لها من ضم شتات ألفتها ، ونسق نظام وحدتها ، ثم دوّنها على هذه الصورة ، ولم يستطع ذلك الجندي المجهول أن يملئ اسمه على الخلود . إما لتواضع حمله على إنكار ذاته ، وأما لتواطؤ من النكران والنسيان أمات اسمه بعد مماته . ومن التوافق الغريب أن أسماء الكتّاب الذين وضعوا القصص الفرنسية الكبيرة في العهد الذي دوّن فيه (ألف ليلة وليلة) ، قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ، ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً ، فان الكتاب تكون على اليقين من أعمال مستقلة ، ثم نأ بالاتفاق على توالي الحطب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الأعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الامكان . أما التاريخ الذي قرّ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن أن نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و ٩٣٣ ، وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و ١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ (وليم لين) الانكليزي بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٣٥ للميلاد أي في مئتي وخمسين سنة ، فوافقناه في الغاية وخالقناه في البدء ، ولم نرَ هذا الرأي اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من جهة أخرى ، وإنما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي ، وهو أن الاستاذ الفرنسي (جلان) . قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك (لويس الرابع عشر) سنة ١٧٠٤ . وقد نقله

من نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر 'غفلا من التاريخ' ، ولكن الذي نقلها الى الشام وهو من طرابلس كتب عليها بخطه أنه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ، ثم انتقلت من يده الى يد آخر من حلب ، فكتب عليها أيضاً تأريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ ، فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل ٩٤٣ بزم ن قدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الأعلى . أما من جهة الطرف الأدنى ، فإنا نجد ذكر (القهوة) المعروفة بتردد في بعض الحكايات كحكاية أبي صير وأبي قير حكاية علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً ، وذلك لا يكون قبل العقد الأول من القرن العاشر ، لأن القهوة لم تنتشر في الشرق إلا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ (الباب العالي) وبعض النظم العثمانية تذكر في حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكافي وهي مصرية قطعاً ، والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوّن بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ ..

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل إن تيسر في حكاية تعذر في أخرى وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالاستاذ وليم بوير الأمريكي ، فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الاسوية جزم فيه بأن حكاية الوزيرين شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ، ويرجح أنها كتبت سنة ٧٠٦ ، وأن قصة الخياط والأحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الأخرى كمزين بغداد ، قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة ، والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا الى التفصيل الذي يحك في الروح ويخمد نشاط الحديث .

سمى العرب « هزاز أفسانه » (ألف ليلة) ولو أرادوا الترجمة الأمينة لقالوا (ألف خرافة) أو أسطورة ، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما أن الليلة كانت في اصطلاحهم مترادف للأسطورة باعتبارها زمناً لها ، وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق : (ابتدأ أبو عبدالله الجهمشداري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسرار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره . واحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسرار والخرافات ما يحلى بنفسه ، فاجتمع له من ذلك أربع مئة ليلة وثمانون ليلة سمر تام ، يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تكميمه ألف سمر) . وأما أن يكون عدد الألف في الأصل إنما أريد به التكثير لا التحديد ، على حد قوله تعالى (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ، وأخبر به أن يكون كذلك ، فإن ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً ، وقال : إن فيه دون المئتي سحر ، وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٢٤ حكاية ، قسمها المؤلف على ألف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة ، فإن (شهرزاد) يدرکہا الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق ، على أنه لم يبق مما رآه ابن النديم إلا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

أما زيادة الليلة على الألف ، فمن عمل القرن السادس ، لأن النسخة التي رآها القرطبي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم (ألف ليلة وليلة) ، ويقول (جلد مستر) في تعليل زيادة الليلة إن العرب يطيدون بالأعداد الزوجية ، وهو زعم غريب ما رأيت في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظل الكتاب أكثر من قرنين يسمى (ألف



الجالسون من اليمين : الشمالي ، الرصافي ، الزهاوي ، عطا الخطيب .
الواقفون : علي محمود الشيخ علي ، بهاء الدين النقشبندي ، جميل المدفعي ، طه الراوي ، موفق
الاولسي ، رؤف الكبيسي ، عبد المسيح وزير ، ابراهيم كمال ، محمود صبحي الدفتري ، احمد
حامد الصراف ، طه الهاشمي ، مزاحم الباججي ، علي ممتاز ، عبد العزيز المظفر ،
عبدالله الشواف ، محمد بهجة الاثري ، رفاثيل بطي وتوفيق السمعاني .

ليلة) ، وكان الجهمشيارى يريد أن يسمي كتابه (ألف سمر) ، وعندنا ألفية ابن معطي وألفية ابن مالك . وأغرب من هذا الزعم ان يؤيده (أوستروب) في (دائرة المعارف) ويزيد عليه أن ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً في هذه التسمية ، وليس في قولنا ألف ليلة وليلة كما تعاملون تسجيع ولا مزاجية والغالب في رأيي أن الليلة إنما زيدت فوق الالف لإفادة الكمال ، كطفحة الاناء وسقطة الميزان ، لان الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب ، فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً ، والكمال درجة فوق التام ، وان في لغة التخاطب ما يشبه ذلك ، فقد يقال في المن : قضيت لك ألف حاجة وحاجة ، وفي المبالغة زرتك ألف مرة ومرة ، وهلم جرا .

طريقة الكتاب واسلوبه :

كانت طريقة العرب في القصص أن يسردوا الاسمار والاحاديث على نط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها لا يربطها بما سبقها ولا بما يلحقها علاقة ، وترون ذلك واضحاً في أمثال لقمان وكتب النوادر ، فلما نقلت الاقاصيص الهندية الى العربية في القرن الثالث عن طريق الفارسية ، أدخلت في أدبنا القصصي طريقة طريقة تجعل الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات متعاقبة الخطوات ، متتابعة النسق ، وذلك على ضربين : الاول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية تكون فاتحة لبدائيتها ، وسبباً لروايتها ، ابتغاء التعويق عن فعل ما لا يحل ، وذلك في العربية مذهب كتاب الوزراء السبعة ، وكتاب كليمة ودمنة ، وأغلب كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو في الفارسية مذهب بختيار نامه ، وقصة جهار درويش ، وقصة نوروز شاه ، وكتاب طوطي نامه ، وأنوار سبيلي مثلاً .

والضرب الثاني أن تروي الحكايات موزعة في الكتاب على عدة أبواب

بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الأبواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه ، ومن هذا الضرب في أدبنا (كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع) لابن ظفر الصقلي المتوفي سنة ٥٦٥ ، وكتاب (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) لاحد بن عريشاه الدمشقي المتوفي سنة ٨٥٤ ، وفي أدب الفرس كتاب (مرزبان نامه) لمرزبان بن رسم بن شروان ، وقد ترجمه ابن عريشاه واستمد منه ذلك ، فضلاً عن الطريقة الفارسية التي احتذيناها في الاقاصيص الغرامية المطولة ، فألف ليلة وليلة إذن يجري على ثلاث طرق : يجري على الطريقة الهندية في الحكايات المتداخلة المتسلسلة كحكايات الاصل ، وحكاية البنات الثلاث والصعاليك الثلاثة ، وحكاية الخياط والاحدب والطبيب ، وحكاية جان ، شاه وحكاية وردخان .. الخ .. ويجري على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة المجردة ، كحكايات العشاق في بعض أقاصيص الاصل وما جرى مجراها من حكايات الطبعة البغدادية ، فانها مضروبة على قالب القصص الفارسي في الاعتماد على الحب الوهمي الذي يصيب ظرفاء الشباب على أثر طيف يزور في الكرى ، أو صورة تعرض في الطريق ، أو حكايات تلقى في المجلس ، ثم يجري على الطريقة العربية الخالصة في الاقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الادب ، كحكاية حاتم الطائي ، وحكاية معن بن زائدة ، وحكاية ابراهيم بن المهدي ، وحكاية خالد بن عبدالله القسري مثلاً ..

فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص ، فإذا حكنا عليه فإنما نحكم على جملة لا تفصيله ، ونتوخى الصفات العامة في نقده وتحليله ، فهو في عومه أسلوب سهل المأخذ ، مطرد السياق ، سوقي اللفظ ، مبسوط العبارة ، كثير الفضول ، كثير التضمن ، جريء الإشارة ، لا يعرف الكناية ولا يقنئ الحياء ، ولا يصطنع التحفظ ، لأن سبيله سبيل العامة ، فهو يسايرهم في ثرتهم وفضولهم وسذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم ، ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك ، يسير سير الأعرج المفالج وراء المذهبين الكتابيين اللذين راجا على التعاقب في عهده ، وهما مذهب ابن العميد في العراق ، ومذهب القاصي الفاضل في مصر ، فهو يسرف في السجع ، ويكثر من اقتباس الأمثال وتضمن الملح ، أحياناً بذكر مصطلحات النحو على سبيل التشبيه أو التورية كقوله في قصة قمر الزمان (باتا على ضم وعناق وإعمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كتنوين الإضافة معزول) وهو يغالي في تضمين الأبيات في خلال الحكايات ، ويتعن في ذلك غالباً حتى يئل ، وترصيع النثر بالشعر أسلوب لا يألفه الأدب العربي ولا الأدب الفارسي ، وإنما هو ميزة من مزايا الأدب الهندي أيضاً . اقتبسه الفرس ، ثم نقله ككتاب الينا في منتصف العصر العباسي ، وروجه في عهد بني بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات كأبن العميد والصاحب والبديع والحوارزمي ومن ترسم خطاهم أو سار على هدام ، وموضع هذه الأشعار يكون عادة في مواقف السرور والحزن والوصف وثوران العواطف ، ولكن القصص يسيء في الغالب استعمال التضمن ، فيخطيء مواضع الأشعار ، أو يجعل محل المناسبة ، أو يردد الأبيات نفسها في كل موقف ، وقد تدفعا السجاجة إلى الاستطراد الفث فيقول ، وقال الشاعر أيضاً في المعنى ، ثم يورد أبياتاً لا يصلحها بالموضوع سبب ،

كما فعل في مقدمة علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً ، فإنه حين وصف البستان لم يترك نوعاً من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق في ذلك خمس صفحات من الكتاب .

إن خير ما يمتاز به أسلوب ألف ليلة وليلة ، هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسبق الألفاظ إلى الذهن ، والصور تسبق الوصف إلى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه ويربط السامع والقاريء بموضوع القصة ، على أن القصص يعالج التصوير والحوار بدقة وبراعة في كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ، فإذا سما إلى مقام الملوك والخاصة خانت قدرته ، وغلبت عليه بيئته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي بالصيغة المحلية ، وهي أن يسند إلى الشخص ما يلئم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل ، فالأقاصيص الهندية والفارسية تشوبها روح القصص الإسلامية ، كحكايات قمر الزمان بن الملك شهرمان ، والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية ، كحكاية ابن الحسن الخليع ، ثم نراه يحري على لسان الخليفة الرشيد ما يأبى عليه جلاله وكاله أن يقوله ، ويجعله يفعل ما لا يجوز في العقل أن يفعله ، كان ينادي وزيره جعفرأ بقوله : يا كلب الوزراء ، ويكلفه في قصة الفتاة المقطعة بالعشور على القاتل في مدى ثلاثة أيام وإلا شنقه هو وأربعين من بني برمك ، وكان يخلع في حكاية علي نور الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقعة بالية قذرة لكريم الصياد ، فيفيض قملها على أطرافه ، ويسيل قدرها على منكبه وأعطافه . ولو أن ما كلف به الرشيد من التعب المزري كان لضرورة ملجئة لوجدنا له مَساعاً من الفن ، ولكنه جشمه ما جشمه ليتسنى للخليفة أن يسمع غناء أنيس الجليس ، وهي في قصر من قصوره ، وفي ضيافة خادم من خدمه .. فهو يدخله في هذا الزي المزري على الحبيبين والبستاني ليقدّم

اليهم ما معه من السمك فيكلفوه شَيْئَهُ في المطبخ فيشويه .

وكثيراً ما تدفع القصاص شهوة الأغراب إلى تجاوز المبالغة المعقولة ، فتفوته من الفن صفة الامكانية ، وهي أن يلبس القصصي الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة فيقرب ما بينها من الظروف ويمهد أسباب الوقوع حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد ، والأمثلة على هذا العيب مستفيضة في كل قصة .

وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصصي كلها كقصة الصياد والجني ، وقصة مزين بغداد ، ومقدمة حكايات السندباد ، وقصة علي بن بكار وشمس النهار ، هذا إذا نظرنا إلى الاسلوب في جملته وعمومه . أما إذا تتبعناه بالملح الخاطف في نواحي الكتاب ، وجدناه فيما بقي من الأقاصيص الهندية والفارسية وما يجري مجراها من الحكايات المحدثه المقلدة بين السذاجة ، أبله الإشارة ، لأنها من نوع الخوارق التي تدخل على القلوب الغريبة ، ولا تظفر إلا بتصديق العقل البسيط ، فهو جارٍ مع طبيعتها ، متفق اللون مع صورتها ، وفي الطبعة البغدادية تراه متين العبارة ، عفيف اللفظ ، حسن السلوك ، دقيق الوصف ، كثير السجع ، قليل الفضول ، لأنه في الغالب مكتوب يحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب ، وقد يسف في بعض الأقاصيص إسفافاً قبيحاً ، فيثقل بسخفه على الطبع ، ويعتدي بضعفه على الذوق ، كما نراه في قصة الخليفة مع النائم اليقظان مثلاً . أما الاسلوب في الطبعة المصرية ، فهو في قسمها الأول وخاصة الأقاصيص المكتوبة عنه أشبه شيء بأسلوب الطبعة البغدادية مع اتساع في السجع وجرأة على الحشمة ، والغالب عليه التقليد فتارة يجري على منهاج الطريقة الهندية كما ترى في حكاية وردخان والملك جليعاد ، وتارة ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله في قصة قمر الزمان الثانية ، وحكاية مسرور وزين المواصف ، وقد يجري في مجراه الخاص

من التهمك الساخر والمزاح المضحك ، فيكون رقيقاً كما نراه في قصة الاحدب وخاصة في مزين بغداد ، ولكنه في القسم الثاني وفي سائر القصص الالقائية التي ألفها القصاص ليلقوها في السوامر مهلهل النسيج ، عامي اللفظ ، مرذول المبالغة ، سيء التلفيق ، شديد الوطأة على الحياء والمروءة لصدوره من قصاص محترفين جهلاء ، يتملقون فيه شهوات العامة بالافحاش ، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة ، ثم يكثر فيه تردد الجمل المحفوظة الملتزمة ، فيقال دائماً في وصف القينة العازفة « فعملت على العود من غرائب الموجود إلى ان طرب الحجر الجمود ، وصاح العود في الحضرة ، يا داود . » وفي إشار البعد : « بعدك عن الحبيب أجل وأحسن ، عين لا تنظر ، وقلب لا يحزن . »

وفي غرابة الحادثة : « لو كتبت على آفاق البصر لكانت عبرة لمن يعتبر . »

وفي غرابة الحادثة : لو كتبت بالابر على آفاق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر . وفي وصف الشيخ الفاني : « وقد أبقى ما أبقى ، وعركه الدهر فما استبقى » ، كأنه مفنى ملقى في خرقه زرقاء ، تمر بها الأرياح غرباً وشرقاً كما قال الشاعر :

أرعشني الدهر أىّ رعرش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشي ولست أعيا واليوم أعيا ولست أمشي

وفي وصفه ساحة الحرب ومجالس الأنس ورياض الأرض وأثاث البيت ، لا يكاد يغير شيئاً من الاسجاع والاضاع ومقطوعات الشعر .

ذلكم يا سادتي ما استطعت استشفافه من صور الأساليب الأثرية في الكتاب ، وسترون حين تعيدون قراءته أن القصاص المصنفين والمصححين في مصر قد اخضعوه إخضاعاً شديداً للهجاتهم وأساليبهم وأمثالهم حتى جعلوا البحث اللغوي الفني من البعد بحيث لا تبلغ اليه وسبلاً ؟

ان من يطلب من ألف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة ، كمن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة ، وطبيعة ثابتة ، واغراضاً متفقة ، فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبي ، يصور الحياة الدنيا كما هي لا كما ينبغي أن تكون ، فاذا رأينا مذاهبه تتناقض ، ومراميه تتعارض ، وآراء تختلف ، فذلك لأن المجتمع الذي يصوره كذلك ، ولم يكن الكتاب نتاج قريحة معلومة ولا نتيجة خطة مرسومة حتى نتلمس في جوانبه الدوافع والنوازع والغاية ، إن هو الا صدى يتردد خافتاً لعقائد الشرق القديم وعقلياته وعاداته ، ففي الفلسفة نراه يتأثر بالافلاطونية الحديثة والاخلاق الاسلامية ، فيدعو الى القناعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال في اللذة والمبالغة في الحذر ، والتفويض المطلق للقدر ، فروحه من هذه الجهة تتنافر مع صوره والبرافة وسائله الطماحة وحوادثه المغامرة ، ثم نراه في أقاصيص أخرى ولا سيما الحديثة يزين الانانية ، ويرضي القسوة ، ويتشوف الى المكاسب الدنيئة ، ويشره الى اللذة الحسية ، ولا يكاد يمتقد بالعواطف الكريمة . وقد يصور المتعاضد الحسي واللهم الجموح بما لا يتمثل في الذهن إلا على سبيل الخيال ، كالذي يحكيه عن فتي من أبناء الملوك أُرسي الى جزيرة كل من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون ، فقصى بينهما في هذا النعيم أياماً أقل ما أصاب فيها من اللذة أنه كان يلقي الشبكة في الماء على سبيل اللهو ، فتخرج اليه من الاصداف خريدة من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجن النخ ..

فاذا اختبرناه في السياسة والاجتماع رأيناه ملكياً يقيم في كل مدينة عرشاً ، وينصب على كل مجمع من الاحياء ملكاً ، حتى الحيات والحشرات والطيور والوحوش والقردة ، ديمقراطياً يشرك الملك والصعلوك في متع الحياة ومجالي الانس ، عائلياً يبني نظام البيت ونائيل المجد على الزوجة

والولد ، لذلك تجدونه يستهل معظم أقاصيصه بجنين الوالدين الى النسل ، وفزعها الى الله أو الى المنجم من داء العقم ، وقد يسمو مغزاه الى الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والجمال ، فالجمال يؤديه الحمل الفادح ، وينهكه الحر اللافح ، فيلقي حمله على مصطبة امام بيت من بيوت التجار يتردد اليه النسيم الرطب ، وتفوح منه روائح العطر والطيب ، ثم يرى عظمة ذلك التاجر في كثرة خدمه وعلمانه ، ويسمع تغريد البلابل والفواخت في بستانه ، ويصغي الى رنين اوتساره وغناء قبانه ، وينشق أفاويه الطعام الشهي من صحافه وألوانه ، فيرفع طرفه الحائر الى السماء ويقول : سبحانك يا رب لا اعتراض على حكمك ولا معقب لأمرك ، أين حالي من حال هذا التاجر ؟ أنا مثله وهو مثلي ، ولكن حمله غير حملي .

على أن أسوأ ما سجله ألف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم هو القوة الجائرة على المرأة فان حظها منه مكنود وصورتها فيه بشعة ، وكيف ننظر من كتاب بني على خيانة المرأة أن ينصف المرأة ؟ إن شهرزاد المسكينة إنما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شريار أعجب القصص ابتغاء الخطوة لديه حتى تدرأ القتل عن نفسها والخطر عن بنات جنسها ، ومن الخطل الأليم أن يسند القصاص كل هذه النقائص الى النساء على لسان واحدة منهن في مقام الدفاع عنهن ، وأن يجري على قهما في حضرة الملك تلك الكلمات الخزية في وصف بهيمية الرجل .

ألف ليلة وليلة يصور لنا المرأة في القسم الهندي الفارسي خطالة خائنة تبيع عرض الملك للعبد في قصة شريار وأخيه ، لجوجة جروحة أنانية في قصة الحمار والثور تصر على أن يبوخ لها زوجها بسرّه ، وهي تعلم أن في افشائه ضياع أمره ، حاقدة كائدة منتقمة في قصة الوزراء

السبعة : قاسية عاتية مرهوبة في حكاية قمر الزمان الأولى ، وهي في بغداد سجين في قصرها مغلوبة على أمرها قد انتبذها زوجها وألقى زمامه في أيدي الجواري والقيان ، وعلى كلتا الحالتين من حرية ورق نراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة خدمة ، أما هي في مصر والشام فوجودها عدم ، لا تسمع لها صوتاً في بيت ، ولا ترى لها أثراً في سوق . فإذا خرجت من ظلام الستار الى ضوء النهار ، كانت طاغية جاهلة ، كزوجة معروف الاسكافي ، أو لصة حيالة ، كدليلة وبنتها زينب ، أو قوادة مرتادة ، كأولئك المعجائز اللاتي يتقلن الفتنة من مكان الى مكان ، ويصلن المنكر بين فلانة وفلان .

أما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقي في القرون الوسيطة من العادات والاخلاق والمواسم في السوامر والولائم والاعراس والمآتم والاسواق والمحاكم ، فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، إلا أن الطبعة المصرية في هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع ، لأن القصص وهم مصريون تكلموا عن علم ووصفوا عن رؤية ونقلوا عن سماع ، فإذا قرأتم مثلاً حكاية نور الدين وشمس الدين ، وجدتم المصريين كانوا في حفلة المعقد يطلقون البخور ويشربون السكر وينضحون الوجوه بماء الورد ، وفي زفاف العروس ينطقون المواشط وألقيان بالقاء النقود في الدف أو (الإطار) ، كما يسميه ألف ليلة وليلة ، أو (الطار) كما يسمى الآن في مصر ، وفي جلوتها على المنصة يجلسونها بين صفين من كرائم السيدات في يد كل منهن شمع موقدة ، ثم يلبسونها حلة بعد جلة في فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلال ، ومع كل سيدة من المدعوات الى الحفل صرة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلها خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة الى تمام السبع ، ولا تزال هذه العادات باقية في بعض البلاد وبعض الأسر في مصر .

وإذا قرأتم حكاية علاء الدين أبي الشامات ، وجدتموهم كانوا يستعملون الحشيش قوة للزوج ، ويتخذون المحال خلاصاً من الطلقة الثالثة ، وهما خلتان شائعتان في الطبقة الدنيا ، إقرأوا حكاية معروف الاسكافي ، تجدوه مثالا صادقا لبعض الناس هناك في ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب الابهة وتبذير ما في الجيب اكتمالا على الغيب واهتماماً للحق ، وتجذوا زوجه فاطمة العرة التي فرّ من جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها الى أقصى مجادل الأرض فتبعته ، لا يزال لها شبه في الباقيات الصالحات بمصر من عهد الجهالة .

أما الطبعة البغدادية ، فقد عث بها القصاص وشابوها بلهجاتهم وعاداتهم واكتنوها مع ذلك حرية بثقة الباحث إذا استطاع تنقيتها من شوائب البهرج والدخيل .

بقي علينا أن نعرف وجهة كتابنا في الدين ، وليس من العسير على القارئ أن يتبين تلك الوجهة ، فان في كل صفحة من صفحاته دليلا على أنه مسلم صادق الإيمان قوى العقيدة ، يأخذ تقاليد الدين صحيحة أو مشوبة مأخذ العامي الواثق المطمئن ، فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطبق ، حتى في مقام الحكمة والموعظة لا يكدأ يذكر حديثا أو آية ، وانما يستند في ذلك إلى مأثور الشعر ومنثور الحكم ، فسيب له في الدين أن يدعو اليه ويهتف به ويتعصب له ، لذلك نراه لا يتحدث إلا عن المسلمين ولا يتخذ اشخاصا لقصصه حتى الأجنبية منها إلا من المسلمين ، فاذا كان أحد اللجنة أو الناس غير مسلم واضطر الى الحديث عنه انتهى به الى الاسلام أو دبر له عقبى سيئة ، وذلك نادر ، كما فعل في حكاية مسرور المسيحي وزين الماوصف وزوجها اليهوديين ، فالحبيب والحبيبة أسلما فورفت عليها ظلال النديم والحب ، وظل الزوج يهوديا فدفتته امرأته حياء ،

وألف ليلة وليلة سنتي لا يكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الإسلام حتى الشيعة - وكان لهم على عهده في مصر دولة الفاطميين ، وفي العراق نفوذ البويهيين - لم يذكرهم إلا في حكاية علاء الدين ، وهي مكتوبة بصر على عهد المماليك . ولقد دلّ حين تعرض لهم في هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة ، فقد أشار في موضوع منها الى أن الروافض كانوا يكتبون اسمي الشيخين على بواطن الأعقاب ، وقال في موضع ثان إن أهل بغداد كانوا يغلّقون الابواب خوفاً من الروافض أن يلقوا الكتب في دجلة ، وقال في موضع ثالث إن الرشيد سأل الرجل الذي همّ باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان فنجاه أصلاً بن علاء الدين : أما أنت مسلم ؟ فقال : كلا ، وإنما أنا رافضي .

مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته :

صنّف المنقبون ما عثروا عليه من مخطوطات (ألف ليلة وليلة) ، فكانت ثلاث مجموعات مختلفة : مجموعة آسيوية ومجموعتين مصريتين . فأما المجموعة الآسيوية وهي أقدمهن فلا تشمل إلا على القسم الأول من الكتاب وإحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كلكتوتا ، وهي تحتوي على مئتي ليلة ، وقد شرع في طبعها الشيخ اليمني في جزءين بمدينة كلكتوتا سنة ١٨١٤ م ، وأتمها سنة ١٨١٨ م فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب في الشرق والغرب ، ثم نسخة (برسلو) وهي التي طبعها الاستاذ (هبكت) في اثني عشر جزءاً ، ظهر الجزء الأول في سنة ١٨٢٥ م والآخر سنة ١٨٤٣ . وأما المجموعتان المصريتان فهما أحدث من الأولى وبين نسخها اختلاف شديد في الأسلوب والترتيب والعدد والقصص ، ومن هاتين المجموعتين نسخة كلكتوتا الثانية التي جمعها ، وطبعها الاستاذ (ماك نوكتن) في أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التي طبعتها الحكومة المصرية في مطبعتها بالقاهرة سنة

١٨٣٥ في مجلدين ، وهي أكمل النسخ جميعاً وأصحها ، وعنهما صدرت جميع الطبعات في مصر والشام وبومباي ، ونقلت جميع الترجمات الى جميع اللغات ما عدا ترجمة (جلان) . فأما الطبعات ، فكلهن سواسية في قبح الشكل وسوء النقل وقلة العناية ، لصدورهن من أرباب المكاتب وأصحاب المطابع ، وهؤلاء يبتغون أوفر ربح في أيسر كلفة ، على أن أدبياً عن الأباء اليسوعيين قد طبعه بيروت طبعاً جميلاً في أربعة مجلدات بعد أن قصّ من قصه واقتضب من جملة وهذب من عباراته ، ثم جاء منشيء الهلال فأربى عليه بالحدف والبتير والاختصار وطبعه في مصر في خمسة أجزاء صغار ، وهاتان الطبعتان ، ولا سيما الأولى ألبق الطبعات بأخلاق الفق وحياء الفتاة ، ولكنهما لا تنقعا غلة الأديب الباحث .

فأما الترجمات فأولها في الوجود ترجمة الأستاذ (جلان) ، وهي أنيقة الأسلوب ، رائعة السبك ، إلا أنها غير دقيقة ولا أمينة ولا وافية ، على أن لها اليد الطولى على الكتاب في التعريف والتنويه باسمه والدلالة على فضله ، طبعت هذه الترجمة ببافيس في اثني عشر مجلداً ابتداء من سنة ١٧٠٤ الى سنة ١٧١٧ ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة انكليزية مختصرة في ستة مجلدات بعنوان الليالي العربية ، وأشهر الترجمات بعد ذلك في السعة والدقة والصدق ترجمة « بورتن » بالانكليزية ، وترجمة مارديوس بالفرنسية ، وترجمة هبكت بالالمانية .

ذلكم يا سادتي ما يتحمله المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وإنكم لترون من هذا الإجمال فعل القريحة العربية فيه ، ومظهر العقيدة الاسلامية في جميع نواحيه ، وطابع العقلية السامية في أخيلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحبيبة القاهرة والشخصية الأمرة في آبائنا ، وإلا فبماذا نفسر هذا ؟

لقد خلفوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً في رسالة محمد ،
وخلفوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً في فلسفة ابن رشد ،
وخلفوا الرومان على الحضارة فبهرت العالم بالعمران والعدل في
عصر الرشيد ، وخلفوا الفرس على الأدب فأخضعوا ألسنتهم وأقنعتهم
لأدب القرآن ، وخلفوا الهنـد على القصص فأروهم روعة الخيال وقوة
الإلهام في ألف ليلة وليلة ، وخلفوا الأمم العظمى على أكثر الأرض
فأوشكوا أن يعربوا العالم ، فليت شعري أتغيرت الصحراء ، أم
فسدت الدماء ، أم ضويت الأبناء ، أم هي ربضة الاسـد ، واستجـامة
للمنـعب ، واستجـماعـة الوائـب ، ثم استـثـانـاف الهجـمة الأولى على الموقع
الأول في الحياة ؟

لقد اعنتسكم طويلاً ، وأتعبتكم كثيراً ، وكدت أخرج من المحاضرة
إلى الخطابة ، فعذراً يا سادتي وشكراً .

صديق الكلاب

كتب هذه القصة وهو في العراق ، قصها عليه رجل بدوي اسمه عبد الواحد ، كان يقوم على خدمته ، حكاهما له بلغته البدوية الجميلة ، فعاد الزيات فسجلها بلغته الفنية . وللزيات قصص قصيرة ، كتب بعضها في (الرواية) وبعضها في (الرسالة) ، ولو جمعت لحصل منها كتاب في الأقصوصة البارة ، قال :

« شرب عبد الواحد وسقانا ثلاثة أقداح من الشاي المعطر ، ثم أطلق من حنجرتة القوية جشاة طويلة عريضة كخوار المعجل ، ثم حضأ النار بأنامله وشيع ضرهما في بقية الفحم ، ثم أشعل منها سيمكارته العربية ، وأرسل في رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام ، وكان كلبي الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوي وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهب . فرأيتة يطيل النظر إليه في طرف ساكن ووجه ساهم ، فقلت مداعباً :

لملك ذكرت بالكلب حبيبتك وهي في خباثتها بين كلامها وشاتها ، غابتسم ابتساماً العذراء الحفرة ، وقال : الحمد لله ، ما ذكرت على فقري حياة البرمنذ هجرتة ، ولكني ذكرت رجلاً كان في بغداد يدعى (أبا

الكلاب) . فسألته : وما حديث أبي الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟
فلمع في عينيه البشر ، لأن سروره كان في أن يتحدث وأسمع ، وذهب
به شيء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم ما لا نعلم يرفعه قليلاً فوق قدره ،
لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظر ، ويلهج لهجة الأمير ، ويقرر
تقرير العالم .

قص عليّ هذه الأقصوصة ، وهو على يقين منها جازم ، وما كان أسرني
وأسرّك لو استطعت أن أنقلها إليك بلغته الجميلة التي تأخذ من لحن
بغداد ومن لحن البادية ! على أنني سأحاول ما أمكنتني القدرة أن
أترجمها ترجمة صادقة ، تكشف عن أثرها وفعلها في نفسي ..

كان في بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تعزّز بنسب العرب من
جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم ، فبهي مزاج معتدل من
عقليتين متباينتين ، لا يجمع بينهما غير الدين ، والدين في مثل هذه الحال
يكون أوثق وأمتن أسباباً ، لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية
القرية . فالوالدان صالحان تقيان لا يفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن ،
ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان من دار السلام وفروق^(١)
إلا انهما بلدان في طريق واحد ، والولدان جميلان بارّان ، يكبر الذكر
منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا في
حنان الأيوين على كفاف من العيش يؤتیه متجر غير نافي .

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة ،
فكان كلامه عنها مرسلًا بجملاً ، لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ
حادث ، ولا يعين مكان منزل ، حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يحد في

(١) فروق مقر الخلافة العثمانية وهي الاستانة .

ذكرها ما يفيد الحديث .

فهو يحذف ما يزعمه فضولاً ، ويسير قدماً الى هيكल الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول :

إن الغلام كان عمره اثني عشر ربيعاً حينما صحب خاله الى الاستانة ، والاستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة الى السطوة والثروة والعلم ، فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه ، أو تخفيفاً لآبائه ؟ فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم في إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين واهيه وعونه ، ثم اندفع في غمار المدينة الصاخبة يداور الامور ويلتمس المكاسب ، ثم أوغل في مدن البلقان وشعاب الاناضول ، حيناً في خدمة الجيش ، وحيناً في طلب العيش ، حتى انقطع علم ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الاخطار في كل فج ، وبصارع الاقدار في كل لج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولاسرته خفض العيش في ظلال بغداد الجميلة ، فلما ملأ الدهر يديه بما أمل ، كان وا أسفاه ربيعاً قد أدبر ، وربعه قد أقفر ، وحلمه قد تبدد ، فان والديه البائسين قد ألحّ عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما في حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين .

وأما البنية اليتيمة ، فقد حنا عليها بعض ذوي المروءات من أهل البيوتات ، فضعها الى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه .

عاد المهاجر الى وطنه يحمل في جيبه المال وفي قلبه الامل فما وطئت قدماه ثرى العراق الذهبي حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره . ولكن شعوره بلذة العودة الى الارض التي أبصر عليها الدنيا ، والسماء التي تقبل منها الروح ، والهواء الذي رفّ

عليه الصبا ، والماء الذي نضح قلبه بالنعيم ، والاسرة الحنون التي براه اليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذي ينتظره في بغداد ، كل أولئك قد شعب فؤاده ، وشفى كبده ، ومسح ما به .

عرف المحلة والدار بعد لأي ، لطموس المعالم القديمة ، ثم قرع الباب بيد مرتجفة فاذا المالك الجديد يخرج اليه ، فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعا يسأله : هنا كان مهبط نفسي ، فأين أبي ؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمي ؟ وهنا كان لي مهد وأخت وملعب وجيرة . فقل لي بربك يا سيدي : أين تحمل بكل هؤلاء القدر ؟

وكان بين المسؤول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ربح المنون قد عصفت بأهله ، فارتد إلى الفندق لا يملك دمه ولا قلبه ، ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ، ويمالج بعض الهموم ، حتى رأم الزمان والايام جروح صدره ..

وقع في نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم اسرته . فافترحت عليه جارة عجوز أن تخطب له فتاة يقولون إن بينها وبين بني فلان عاطفة رحم ، ويؤكدون أنها تنزع الى عرق كريم المهنذب وجمالها المحتمم ، فاطمأن قلب الخاطب الى رأي الخاطبة ، واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسمي الصداق وعينت ليلة الزفاف ..

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من جمال وأحسن من ظرف وسمع من أدب ، فافتر في وجهه السرور ، وحمد الله على حسن توفيقه . ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفي ذات ليلة تجاذب الزوجان أطراف السمر وشققا بينها الحديث حتى أفضى الى علاقتها بوليها فلان (بك) فأحب الزوج أن يعرف درجة

القراية بينها ففضت الفتاة من طرفها وشاعت حمرة الحجل في وجهها ، وقالت في صوت خافت متهافت من الخزي والخوف (الحقيقة ان ليس بيني وبين هذا الرجل قرابة ، إنما هو نبيل محسن آواني ورباني بعد ما فجعني البين في أخي والموت في أبي ، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشر ، ثم تتابعت الاسئلة من الزوج وتسارعت الاجوبة من الزوجة ، وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه واقشعر بدنه واشتد وجيب قلبه ، وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسبته الى الخداعه في أصلها ، فضت تعضل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر في طلاقها وعذابها ، ولكنها لم تكمد تلمس الحجاب الاخير حتى رأت زوجها قد قف شعره وارتعدت أطرافه ثم انفجر صارخاً يقول : واويلتاة ! لقد تزوجت أخي ، ثم خرّ مغشياً عليه ، فلما تاب اليه بعض رشه ، نظر الى اخته فوجدها فاقدة الوعي ، فتركها وابندر الباب ، وخرج مسرعاً لا يلوي على شيء ولا يلتفت إلى أحد .

خرج طريد القدر من بيته خروج أوديب الملك من قصره ، ثم هام في الطرف الضيقة المنشابكة يسأل الرائح الغادي عن مفتي بغداد . فلما دخل عليه ، باح له بسر الخطيئة ، فحول عليه الشيخ التركي بعقابها ، وبألغ في جرائرها واعقابها ، ثم اقتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة وخرج عن أثيل الملك واستتر بأخلاق الشباب وقضى عمره في جمع الخبز للكلاب الشوارد .

أذعن الخاطيء البريء لحكم الفقيه الاحق ، ونزل المروجة الاخوت عما يملك ، وارتدى طمراً من القطن الغليظ ، وجعل على عاتقه مخللة ، ومضى يقرع كل بيت ويقصد كل مطعم فيجمع الفتاة والخبز ، ثم يقف بالميدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحي .

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشي في الأزقة وخلفه منها قطيع ، وينام في العراء وحوله من شدادها حرس مطيع ، وتحين الوجبة فلا تجد كلباً طليقاً في بغداد الا أجاب نداءه ، وتناول من يديه المحموتين غدائه . ولكن الوالي رأى على طول الزمن أن يدي أبي الكلاب على رعيته عافية وربيح ، فسمن هزيلها وكثر قليلها ، حتى اختنق بلهائها النهار وصمّ بنباحها الليل ، وأصاب الناس من عضاضها وأمراضها شر كبير ، فأقام في ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الضواري وألقوها فيها ، فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب الى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ، ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح .

وفي ضحوة من الايام أوم الوالي لاسراه وليمة (السفتاح) لبني أمية ، فما نجا من بعدهما لاهث ولا نابج . وجاء أبو الكلاب فرأى آلافه الخلصاء على أديم الأرض صرعي لا يتملقن بعين ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى صريع اليأس ، ولبت مكانه لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه .

تقدير الجمهورية العربية للزيات :

نال الزيات جزاء خدمته وتقدير أدبه جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٢ في الأداب . وهي أعلى جائزة تمنحها الجمهورية العربية للعلماء والكتاب ، الذين قاموا بأعمال اصيلة مبتكرة اثرت في بناء الحياة القومية والانسانية ، وهي التفاتة من الدولة بارعة وكريمة هي بعض ما يستحق الزيات من تقدير وتقويم لأدبه وخدمته الطويلة ولأمثاله من حملة القلم ودعاة الاصلاح فهم المجاهدون الأولون وهم الأساس في نهضة الشعوب ويجب أن يكونوا في المحل الأرفع والمكان الاسمي قبل حملة الرشاش

والمدفع ، وحقهم يجب أن يراعاه الحاكمون .

وانتخب عضواً في الجمع اللغوي في القاهرة منذ سنة ١٩٤٦ ، وراح يعمل على تحقيق الأهداف التي من أجلها انشئ الجمع ، واشترك في لجانه العامة .

منها لجنة تدبير الكتابة ، ولجنة اصول الحضارة ، ولجنة معجم الفاظ القرآن ، ولجنة الادب ، ولجنة اللهجات ، ولجنة المعجم الوسيط . وهو أحد الاعضاء الاربعة الذين تولوا اخراج المعجم الوسيط ، وشارك بعدة اقتراحات ببناء للمجمع منها :

فتح باب الوضع على مصراعيه بوسائله المعروفة ، وهي الارتجال والاشتقاق ، ومنها : اطلاق القياس بالفصحى ليشمل ما قاسه العرب ، وما لم يقيسوه ، فان توقف القياس على السماع يبطل معناه ..

ومنها اطلاق السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما يسمع اليوم من طوائف المجتمع ، كالحدادين والنجارين والبنائين ، وغيرهم من ذوي المهن .

وقدم اقتراحات بشأن المعجم الكبير وذلك بأن يوصي المجلس لجنة المعجم التاريخي الكبير ان تنجز طريقته بطريقة فيشر وان تدخل في المعجم جميع الزيادات التي انفرد بها معجم فيشر ، ومنها : اقتراحه لجمع ما تفرق من أعمال الجمع في محاضر الجلسات على طول السنين ليسهل على الاعضاء الرجوع اليه فلا يقع في عملهم تناقض ولا تكرار .

واقترح عرض انتاج الجمع في صورة منتظمة على الجمهور ليستفيد منه من يستفيد ويعقب عليه من يعقب .

وألقى بحوثاً وكلمات قيمة ، منها : الوضع اللغوي وهل للمحدثين رأي فيه ، والجمع واللغة العامة ، وفي ألفاظ الكتاب المحدثين ، وكلمة أبتن فيها

الاستاذ ابراهيم مصطفى ، وكلمة عن فقيدنا العلامة الشيخ رضا الشبيبي .

أشهر مؤلفاته :

١ - وحي الرسالة المجلد الاول تضمن ما كتبه الزيات في افتتاحيات الرسالة من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٣٩ .

٢ - المجلد الثاني من وحي الرسالة من سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٣ .

٣ - المجلد الثالث من وحي الرسالة من سنة ١٩٤٤ - ١٩٥٠ .

٤ - المجلد الرابع من وحي الرسالة من سنة ١٩٥١ - ١٩٥٤ .

٥ - تاريخ الادب العربي . اعيد طبعه طبعات متعددة احبها جاوزت الست عشرة وفي كل طبعة ينتج ويختصر او يزيد بهض فصول الكتاب وأصبح المرجع المعتمد لدارسي الادب ولا سيما طلاب دور المعلمين والثانويات وحل محل الوسيط والمدخل والمجمل وغيرها من الكتب المقررة وفق مناهج التعليم في العراق .

٦ - دفاع عن البلاغة ، والزيات رحمه الله يدافع عن البلاغة ابلغ دفاع ويعرضها أجمل عرض ويذكر أسباب التنكر عن البلاغة ، ويفصل فصولاً مبتكرة عدداً من دعائم البلاغة مثل العلاقة بين الطبع والصناعة ، والذوق ، والاسلوب ، ودعاة العامية والرمزية وموقف البلاغة من هؤلاء المقوضين لاصل البلاغة ، ويتجلى حرص الزيات على الفصحى والدفاع عن لغة الكتاب الكريم صيانة للقرآن الخالد وحفظاً لتراثنا الأدبي والحضاري وفي الكتاب دراسات نافعة لظهور المدارس النقدية وتوجيهه الى كتب النقد الصالحة .

٧ - من الادب الفرنسي :

وموضوعه فصول أدبية اختارها واقاصيص وقصائد ترجمها من نوابغ

الكتاب ، وعرب نماذج من القصة القصيرة وضعها أمام عشاق القصة نشر
أكثرها في مجلته (الرواية) .

٨ - في أصول الأدب :

كتاب في النقد ودراسات تهدف إلى توضيح أغراض الادب وأهدافه
وأساليبه ، ودراسة المسرحية ، ومن موضوعاته محاضرته القيمة (ألف
ليلة وليلة) وأثرها في الادب الغربي ، وكتابه هذا كان مصدراً عن
مصادر الدراسة الادبية ، ونواة لكثير من البحوث التي يتقدم بها
الجامعيون ، وفيه عرض لآراء بعض المستشرقين والرد على دلتس منهم
على أدبنا ولغتها .

٩ - وختم أديبنا الراحل حياته بتأليف كتاب لم يرَ النور بحياته
ذلك هو (عبقرية الاسلام) ، والزيات فيها كتبه عن الاسلام وأيامه الخالدات
في مدى حياته في الرسالة والازهر ليبدل دلالة واضحة على حرصه
وعقيدته وتشرب روحه لمفاهيم الدين الخنيف ، ولا غرابة وهو الازهري
المتشبع بأدب الاسلام ولغة القرآن ..

نماذج من آرائه وأدبه

تقدير الزيات :

وبعد فهذه أقباس من أفكار الزيات ونماذج من نثره الفني ، تشع بالنور وتنسم بالصدق وتنشج بالتجديد ، وتحمل طابع الإصلاح والثورة على الجمود ، وتدعو الى العزة الاسلامية والكرامة القومية ، وتبشر بالعروبة والوحدة ، خلد الزيات أفكاره ومقالاته في مجلدات أربعة - وحي الرسالة - وما سطره في الرسالة الجديدة وكتبه في افتتاحيات مجلة الأزهر ، لو جمع لكون مجلدين أو أكثر ، وفي جمعها بكتاب تخدم القارئ وعشاق البلاغة ..

وكتب يخاطب زعماء العرب سنة ١٩٤٥

وكانوا قد اجتمعوا للتشاور والتباحث في وضع القواعد والاسس التي يرونها كفيلة لقيام الجامعة العربية فكتب يذكرهم :

« اذكروا يا زعماء العرب وأنتم اليوم بسبيل التشاور في تجديد وحدة العرب .. ان الركن الأول من اركان دينكم هو التوحيد ، وأن العمل الاول من أعمال نبيكم كان التوفيق اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فأنف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » . واذكروا إحسان النبي

إليكم إذ كنتم اشتائاً فجمع شتيت شملكم ، فاقمتم على وحدته ملكاً
وسلطاناً ، اذكروا ان الوحدة هي التي مكنت العرب بالأمس البعيد من
تراث كسرى وقيصر ، وهي وحدها التي تستطيع في الغد القريب أن
تنقذكم من وارث أساطين الاستعمار موسوليني وهتلر وتشرشل ... قولوا
المعوقين منكم ، والخلفين عنكم ، ان العصبية التي توسوس في بعض
الصدور بالرياسة والسيادة والعزة ، إنما كانت في تاريخنا الحافل بالأحداث
والعبر علة العلل في انشقاق العصا ، وانقسام الرأي وتحلل العقيدة
وانتشار الأمر ، وتعدد الدول هي النعرة التي قامت يوم السقيفة تقول :
منا أمير ومنكم أمير .. وهي الهامة التي خرجت من قبر عثمان ،
وظلت تصيح على دار الخلافة نحن هاشميون ، ونحن أمويون ، ونحن
قيسيون ، ونحن يمانيون ، ونحن علويون وعباسيون ، ونحن عرب وشعوبيون ...
نتقاطع في الدين وتتعادى في الدنيا ... »

الرجل المنتظر :

وفي ٢٩ نيسان سنة ١٩٤٠ كتب تحت هذا العنوان « الرجل المنتظر »
والعالم يومئذ يغلي كغلي الحميم ، ويهدر بالحم كهدير البركان ، والخوف قد
ملك كل انسان والممالك تنطير في خارطة أوربا يومها كتب يقول :

« ليكون لنا حاسب يوم نطالب أن يكون لنا في الدست رجل
يحاسب المنتصرين يوم يوزعون الاسلاب ، وكأنه كان ينظر بعين الغيب
ليكشف المحجب عن أوصاف الرجل المنتظر فراح يخطط له المنهج ، ويوضح
له المهيض ويمهد له الأرض ، قال :

« لهذا الرجل الذي تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له ، وتدل عليه ،
فمن الآيات المهيضة لظهوره ، انحلال الاخلاق ، فلا تتأسك في قول ولا

فعل ، وتقاطع القلوب فلا تتواصل في وطن ولا دين ، واستبثار النفوس ، فلا تتعفف في صداقة ولا نسب ، وجوح الشهوات فلا تنقذ بلين ولا بشدة ، واستبها المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ، وانقطاع الامة عن ركب الحياة فلا تتحرك قبلة ولا دبرة ، ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه : ولأتمته قبل أسمرته ، وللانسانية بعد وطنه ، ومصادق تلك الآيات أن تموت « أنا » في لسانه وتحيا في ضميره ، ويتحد في ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه فهو يحس الله لأنه مجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويعلم قياده لأنه مظهر إرادته ، وهو في سمو نفسه ونزاهة هواه ، قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض ، فلا يطمع ، لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابي لأن فضله أوسع من العصية ، ولا يقول قولا ولا يعمل عملا إلا إذا وافق الدين الذي يعتقده ، والمبدأ الذي يؤيده ، والشعب الذي يقوده ، ثم هو في المعية ذهنه ، ورضائه لبه ، وصلابة عوده ، وبعد همته يعظم على الأحداث ويعلو على الحوائل فلا ينضج رأيا إلا أمضاه ولا يرمي غرضاً إلا أصابه ، ولا يروم أملاً إلا أدركه ، هذا الرجل الملهم الموهوب هو الذي ترقب ظهوره كل فرقة وترصد نجمه كل أمة ... »

الجهاد عدة الاسلام :

وكتب في العدد الثاني من السنة التاسعة والثلاثين ، من مجلة الأزهر ، صفر ١٣٨٧ - مايس ١٩٦٧ مقالا بعنوان - الجهاد عدة الاسلام - على أثر النكسة التي هزّت الأمة العربية وأقضت مضجعها ، وعرفت حقيقتها كياناتها الهزيلة واستعداداتها الضعيفة وقياداتها المتشاكسة المتواكمة المفرورة . جاء فيه :



عبد العزيز الشعالي

مق يؤدي المسلم فريضة الجهاد ، إذا لم يؤديها اليوم ؟ دينه يتقحم عليه الكفر بخاريه مع الصهيونية ، ووطنه تنفجر على جوانبه الدواهي والاستعمار ، وأخوته في فلسطين ، اخرجتهم الدول النصرانية من ديارهم وأموالهم ليدخلوا فيهن من صنعوا الصليب للمسيح من سلسلة يهوذا وشعبه في أقطار العروبة وديار الاسلام ، لا يزال في معتك الحطوب ، ومشتبك المطامع ، يحار بالشكوى ، ويصرخ من الظلم ، ويفضب للكرامة ، ويثور للحق ، فلا ينال من الضمير الغربي ، إلا ما تناله هبة الريح من الصخر الاصم ، والجواب : - ان المسلم المؤمن ، لا يزال على ذكر من أن دينه قرآن وسيف ، وتأريخه فتح وحضارة ، وشرعه دين ودنيا ، وحره جهاد وشهادة ، وحكومته خلافة وقيادة ، فهو مجاهد أبداً ، لا ينفك عنه الجهاد أصفره وأكبره ، فإذا لم يجاهد عدوه جاهد نفسه ، وإذا لم يراقب ثغوره راقب ضميره ... والمسلمون منذ استيقظ وعيهم على رجفات الحرب العالمية الاولى ، ادركوا ان علة ما أصابهم من الاستبعاد والاستعمار ، انما هي اعتمادهم على الحق دون القوة ، وعلى القول دون العمل ، واصل ذلك الضعف - والضعف يحافي طبيعة العربي - وينافي حقيقة المسلم ... فتنادوا من وراء الحدود المصطنعة والستور المضروبة ، بلسان الأدب ، وألهام الروح ، ووحى العقيدة الى العمل سراً وعلناً للاستقلال الذي يحرقهم الى الالفه التي تجمع ، ثم الى الوحدة التي تضوى ، ثم الى القوة التي تدافع ..

وهذه المراحل الوعرة المهلكة التي تؤدي الى الحرية والعزة ، لا يقطعها إلا الجهاد الفدائي الذي فرضته شريعة الله ، واقتضه طبيعة العرب .

وذلك الجهاد الفدائي هو بذل المال والنفس في سبيل فكرة سامية ، كأعلان كلمة الله أو تكريم ذات الانسان ، او تحقيق حرية الوطن .

وهو فرض عين ، على كل مسلم قادر ، إذا وقع المسلمون في خطر عام لا يقدر على دفعه قوم دون قوم ، كالاستعمار والصهيونية ..

والقيام به لا يتقيد بزمان ولا أرض ولا جنس ، مثله في ذلك مثل الأركان الخمسة للإسلام ، ولكنه يختلف عنها في أمر دقيق ، وذلك ان المسلم قد تضعف في نفسه الدواعي إلى إقامة هذه الأركان كلها او بعضها ، فيترك الصلاة والصوم ويهمل الزكاة والحج . وإذا ذكره بها واعظ ، أو حثه عليها خطيب جعل قوله دبر اذنه ، ولعل السبب في هذا الضعف ان العمل بهذه الأركان قائم بين المسلم وربه ، فلا وازع لها من ضميره .

أما عقيدة الجهاد فقائمة على الصلاة بينه وبين ربه ووطنه وولده وماله وتراثه وذكرياته وأمانيه ، فهي لا تزال حية في نفسه على تراخي الزمن وشدة الترك كالنار في البركان الهادئ ، تسكن ولا تنطفئ ، وتكن ولا تظهر ، حتى إذا أثارها الحمية لدين هان ، او لوطن يهاجم ، انفجرت في نفوس المسلمين انفجار الحمم ، فما تذر من شيء أتت عليه إلا دمرته ..

بذلك نفسر هذه الصيحة الاسلامية العامة التي أخذت دول الاستعمار من جميع الأقطار المسلمة ، على انقطاع السبب وتباعد الشقة ، تستنكر تكامرها على مصر وتستعد لدفعه عنها بالأموال والأنفس ، وبذلك تفسر هذه القضية العربية الشاملة لما يصيب مصر وسوريا من بغى الاستعمار الفاجر ، وعدوان اسرائيل المبيت ، وما تبغ هذه القضية من تعاون العرب على امدادها بالرجال والمال والعتاد ، في ميادين الحرب وتأييدها بالرأي والصوت في مجالس الحكم ..

وما عطف المسلمين على مصر ، ولا غضب العرب لفلسطين لعصبية الجنس أو لحق الجوار ، وإنما هو لتلك الحفيظة الدينية ، التي اوحاها الله في

الكتاب ، وبينها الرسول في السنة وفضلها الفقهاء في الفقه ، والجهاد كسائر الأركان يستند الى نص القرآن الكريم ...

وان من سوره ما موضوعه الحرب والسلم والغنائم والأسرى والعهود ، وجملة ما يتألف منه قانون الحرب في الاسلام كسورتي « التوبة » ، « الانفال » .

ومن المغازي الدقيقة في القرآن الكريم ، انه لم يعرض لأسرى المسلمين بنظام ولا معاملة كما عرض لأسرى العدو ، لأنه يأمر بالثبات ، وينهى عن الهزيمة إلا لخدعة أو نجدة ..

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً الى فئة » ، فقد بآء بغضب من الله .. » أما سر القوة في المجاهدين فعلمه عند الاسلام وحده .

كان العرب من قبله قوى مبعثرة ، على رمال الصحراء لا تجمعها وحدة ، ولا تربطها رابطة ، فلما اصطفاه الله لأداء رسالته ، أدمم بروح من عنده ، وحدت الشيت وألفت النافر ، وجمعت الكلمة « لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم » ، ولكن الله ألف بينهم ..

ثم قوى هذه الروح فيهم بمعقيدة القضاء والقدر ، فقال لنبيه صلوات الله عليه : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ثم ضمن للمجاهد الفوز باحدى الحسنيين : النصر الذي تعقبه العزة لله والحرية للوطن والكرامة للانسان أو الشهادة التي يعقبها البقاء في الدنيا بالذكر والخلود في الجنة بالروح .. بهذه الروح الالهية ، خرج البدريون وهم زهاء الثلاث مئة الى أئمة الكفر من أبطال قریش وهم زهاء الالف ، فككبكبهم قتلى في وادي بدر ، وعادت الفئة القليلة الى يثرب بالنصر

والأسرى ، وعادت الفئة الكثيرة الى مكة بالهزيمة والجرحى ... وبهذه الروح المنبثقة من روح الله خرج بدو الجزيرة من أجواف الاودية وأعماق القفر ضئال الجسوم ، قلل العدد ضعاف العدة ، الى الامبراطوريتين اللتين تقسمتا يومئذ ملكوت الارض فقوضوا الايوان على ملك كسرى ، وحطموا العرش على سلطان قيصر ...

وبهذه الروح المنبهة في دماء المجاهدين ، ثبتت بور سعيد بالأمس لمئة وستين ألفاً من أعقاب الصليبيين ، وثبتت مصر وإخوانها لعدوات اسرائيل ومن وراءها من الامريكيين والبريطانيين والجهاد بعد أولئك كله سعادة لا يؤتاها إلا من اجتباهم الله لاكرام خلقه وأعزاز حقه واصلاح أرضه ، وقد سبىهم الله الشهداء وجعل مقامهم في الجنة مع الصديقين والانبياء ..

خواطر من المعركة :

وكتب ثانية في مجلة الازهر الجزء الثالث - السنة التاسعة والثلاثين - جمادي الأولى ١٣٨٧ هـ - آب ١٩٦٧ قارن بين الغزوات الصليبية الثمان التي شنتها أوربا النصرانية على الشرق المسلم في مدى قرنين من العصر الوسيط وهذه الصليبية التاسعة التي تشنها امريكا وأوربا على فلسطين مدفوعة باطماعها الامبريالية واللصوصية والصهيونية قال فيها :

« تلك الغزوات كان مبعثها الفروسية المسيحية والعصبية الدينية صدرت عن الإيمان وابتغت مرضاة المسيح - هذا زعم مسعريها - وهذه غزوة بعتها اللصوصية الدولية والطماعية الدنيوية فصدرت عن الكفر وابتغت مرضاة يهوذا ، ويهوذا هو اليهودي الذي باع المسيح الى عدوه بدوانق معدودة قبل أن يصبح الديك ، وهو الذي روى بالدم شجرة الصليب

خافرت العذاب للناس والحراب للارض ، ولا يزال يهوذا المسيح ينافس في الشر إبليس آدم ، ينبغي الفرائل لاتباع عيسى كما ينصب الجبائل لاتباع محمد . فلكل مصلح من يديه صليب ، ولكل نهضة من رساوس نصيب ، ولكل أمة من دسائسه فتنة .

ومن أعجب الأمور أن تتعاون اليوم دول النصرانية على أن تجعل صانع الصليب سادنا لقبر المسيح وكاهناً لكنيسة القيامة .

ان نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة ، وغلبت على كل عاطفة ، فالفكر فيها والحديث عنها ملء القلوب وشغل الاسن ، ولكن الكلام هواء والبكاء ضعف والمنى أباطيل والمهادنة غش ، والمفاوضة عجز ، فلم يبقَ إلا أن نسكت لنعمل ، وندبر لتنفيذ ، ونتقوى لنسود . وننسلخ لننجح ، ونقتل لنحيا ونظم لنحتدم .

وان من علامات الساعة أن يخرج اليهودي من البنك الى الشكنة ، ومن الدكان الى الميدان ليحارب العرب على فلسطين ويشار للفرنح من صلاح الدين .

كذلك من علامات الساعة ان ينهزم العربي أمام اليهودي ولو ظاهرته حادية الامريكان وخديعة الانكليز ، فان الثعلب يكفيه ان يشم ريسح الاسد من بعيد ليجحجر ، وان الفسار يكفيه أن يبصر الهر من فوق الجدار ليسقط .

لقد سمعنا ان اليهود يحتلون البلاد بالنساء والذهب ، ولكننا لم نسمع قبل اليوم انهم يحتلونها بالرجال والحديد .

الفدائية :

ان مصر وإخوانها تملك العناصر الجوهرية للنصر وهي حسن الاستعداد ووقوة الاعتماد وشدة الكراهية للعدو ، ولكنها تملك أيضاً عنصراً رابعاً لا يتيسر امتلاكه لأي شعب إلا إذا ارتفعت الوطنية في نفوس افراده الى مقام العقيدة الدينية الصوفية فيتحده وجود الفرد بوجود الشعب ، ووجود الشعب بوجود الوطن ، وذلك العنصر هو الفدائية الشاملة التي تنتظم الفرد والاسرة والامة والحكومة والدولة ، فيكون كل واحد من هؤلاء فداء ضرورياً للآخر .

والفدائية في سبيل الوطن أو الدين أدل على خلوص القلب وصراحة الإيمان من الاستشهاد في سبيلها بالجهاد ، لأن الفدائي يبذل ولا يطمع في العوض ، ويضحى ولا يفكر في الثواب ، كل سعادته أن يشعر وهو يسبل عينيه على شعاعة من نور الدنيا أن نفسه مقبضة لأداء واجبه ، مطمئنة الى لقاء ربه . أما المجاهد فهو يبيع ماله ونفسه ليشتري من الله - الجنة - « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » فالتضحية في ذهنه بيع وشراء وعمل وأجر .

على ان الفدائي الذي يقتل في سبيل شعبه تكتب له شهادة المجاهد في سبيل ربه ..

روح الله :

روح الله هو ذلك السر الذي لا يزال كامناً في الجهاد والاستشهاد والايثار ، لم ينفك أبداً عن مسلم ولم يخذله أبداً في حرب ، كان يتمثل له في صور الملائكة تقاتل معه ، ويتحقق عنده في الوعد الصادق من الله

بالنصر أو الجنة ، ثم يقويه في نفسه على توالي الاعقاب والاحقاب الانقياد لله وللرسول . وقد جمع الله تدبير الحروب في آيتين من كتابه في قوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » . وفي قوله : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا » ، ثم الايمان بالقضاء والقدر ، وقد قال الله لنبيه « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

فالمؤمن بمقدور الله يرمي نفسه في وجه الموت لا يبالي أن يقتل أو يقتل ، لأنه في إحدى الحالتين سيعظم بأحدى الحسنين : النصر أو الشهادة .

وكان في أكثر هجياته يصيب ، وفي أقلها يصاب ، ولذلك قالوا عن عقيدة وتجربة : أطلب الموت توهب لك الحياة والحذر لا ينجي من القدر .

الله أكبر :

الله أكبر جملة تضمنت سر الاعتقاد وسر الجهاد وسر الفداء وسر النصر ، ولاشتغالها على هذه الاسرار كانت ركناً جوهرياً في الصلاة ، يدخل بها المصلي الى الله ، ثم يرددها في ركوعه وسجوده ، وفي قيامه وقعوده ، ثم كانت هتافاً حماسياً في الحرب يصيح بها المجاهد عند الهجوم فيكبر في نفسه النصر ، ويصغر في عينيه الخطر ، وكان غالباً ما يكون هذا الهتاف الله أكبر فتح ونصر ، فإذا جاء نصر الله والفتح انقلب هذا الهتاف القوي نشيداً قومياً ينشده المجاهدون في كل مسجد ، ويردده المصلون في كل عيد وهو : الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، لا إله إلا الله وحده ؛ صدق وعده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وقوة هذه الكلمة آتية من اعتقاد المسلم بأن الله أكبر من كل كبير ،

وأقدر من كل قدير وأعلى من كل علي ، فهو في حى هذا الاعتقاد
يهاجم الجيش الكثيف ولا يخشى ويقتحم الخطر الداهم ولا يبالي ، وكيف
يخشى ضرراً أو يبالي خطراً ، والله الذي تفرد بالسلطان الأعظم واختص
بالقدرة العليا بحميه من وراءه ويكفيه من أمامه ...

ومن مقال بعنوان (مالي لا اكتب) :

« وإذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخذك تقرر »

أن نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة ، وغلبتا على
كل عاطفة فالفكر فيها والحديث عنهما ملء القلوب وشغل الالسن ...
ولكن الكلام هواء والبكاء ضعف والمنى أباطيل ، والمهادنة غش ،
والمفاوضة عجز ، فلم يبقَ إلا أن نسكت لنعمل وندير لننفذ ، ونتقوى
لنسود ، ونتسلح لننجح ؛ ونقتل لنجيا ونظلم لنحترم ، لو كان في الدنيا
حق لما كان لفلسطين قضية ، ولو كان في الناس عدل لما اصطلحت على
ظلمنا الشيوعية والرأسمالية ولو كان في الأمر اختيار لما تركت سيوفنا من
بني يهوذا بقية .

عشرون سنة انسلخت على الشعوب العربية وهي تملأ الدنيا ادعاء
واحتجاجاً ، تقول ولا تعمل ، وتهدد ولا تنفذ ، وتخدع حكوماتها شعوبها
بالاستعداد والقسليح وتدبر وتهيب جيوشها لليوم الموعود يوم نسترجع الارض
السلمية ونعيد المشردين الى ارضهم ووطنهم ويومئذ نعيد كرامتنا فلما
حى الوطيس خسرتنا كل شيء وظهر زيف الاعداد والاستعداد وبان عجزنا
ورحنا نتهم أنفسنا ونرمي قادتنا بالخيانة والعمالة ، وأعلننا اننا خدعنا
وباغتنا عدونا وظهرته قوى الشر امريكا وبريطانيا والمانيا الغربية ،
والحقيقة المرة أقولها انما الذي سبب نكستنا هو ضعفنا وعدم استعدادنا
وغرورنا واتكالنا على الكثرة والكثرة لا تقني من غير سلاح متكافي مع

سلاح عدونا وكانت الكفاءة تنقصنا والخبرة تعوزنا ، وجهلنا بما بعد عدونا وبما عنده من قوة جعلنا نخسر الجولة وعسى أن يكون فشلنا في هـ حزيران ١٩٦٧ حبيب بنا الى أن نعمل لنقلب في الجولة الثانية التي لا محالة أننا سنخوضها ان لم تكن برغبتنا فستكون رغم انوفنا أو نضطر إليها ، ولكن هانحن قد مضت سنة وشهران ، فهل نحن بمستوى المعركة ؟ كل الدلائل تثبت اننا لم نكن نعمل إلا لتوسيع الخلافات وتنفيذ المؤامرات والإنقلابات ليقفز مغامرون وطامعون الى المناصب والراسات والوزارات وتوزيع الغنائم على الانصار والاغرار وليكن من بعدهم الطوفان ..

اضعف الايمان :

قال الرسول الكريم صلوات الله عليه : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » .

ودول العالم اليوم وأممه - وفيهم المؤمنون بصاحب هذا الحديث يقفون أمام المنكر الامريكي والانجليزي الصهيوني باضعف الإيمان ، فيطوون صدورهم على السخط ، وقد يحركون ألسنتهم بالانكار ، ومن هؤلاء من يستطيعون دفع العدوان بالقوة ولكنهم يتلكأون ويترددون لغرض أو مرض ..

وكفاحك المنكر بالقلب أو باللسان وأنت قادر على كفاحه باليد نقيصة من نقائص النفس البهيمية لا تخرج عن الجبن أو الخبيث .

على أن ضحايا الشعوب أحياء من ضحايا الدول ومن المتوقع ان هذا الانكار الشعبي باللسان سينتهي الى أنكار الدول باليد ، وحينئذ يطمئن محبوا السلام والمدنية على أن الدنيا لا تزال بخير .



الاستاذ كامل الجادرجي

وكتب بعنوان « الجهاد بالمال فوق الجهاد بالنفس » .

ويقول الله عز اسمه وجل علاه « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » ، « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » .

فهو سبحانه - في هذه الآيات الثلاث . وفي سائر الآيات التسع التي ذكرها الجهاد بالاموال والانفس يقدم الاموال على الأنفس لحكمة يؤيدها التاريخ ويؤكدها الواقع ، ذلك لأن المال عصب الحرب ، بغير روحه لا تتحرك وبغير وقوده لا تشتعل ، هو زاد الجندي وعتاده ، يضع القوات في فمه والسلاح في يده والنصر في وجهه ، وهو وسيلة الاعداد التي أمر الله بها المسلمين في قوله :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

والبديل اليوم من رباط الخيل هو الطائرات والدبابات والصواريخ والمدافع والقذائف ، لأن رباط الخيل بحكم التطور العسكري والتقدم العالمي لم يعد يرهب العدو ولا يكفل النصر .

وهذه الأسلحة الجبارة يكلف شراؤها مئات الملايين من العملة السهلة والصعبة ، والانتكال في تدبير هذا المال الضخم على الدولة يربك ميزانيتها فتتوء بطالب الانتاج والخدمة فلم يبقَ إلا أن يجاهد الشعب بالمال ليوفر السلاح للجيش المجاهد بالنفس كما يفعل العدو ، فان اليهود في العالم هم الشعب وعليه المال واسرائيل في فلسطين هم الجيش وعليه القتال .

والغائلة التي نزلت بالعرب من ائثار الاستعمار والصهيونية في أوائل هذا الصيف فسلبتهم بعض الأرض وأفقدتهم أكثر السلاح كان من وسائلها الفعالة السلاح الأمريكي الحديث والمال اليهودي المتدفق ، فلولاً المال ما كان لليهود دولة ولولا الدولار ما كان لاسرائيل جولة ولا صولة .

ان الذي يبذل نفسه في الجهاد يقدم الى الجنة شهيداً بمفرده ، ولكن الذي يبذل ماله في المعركة يقدم الى الأمة جيشاً بجوعه ، وان جيش العسرة لو لم يسنده المؤمنون الصادقون بالمال لما سار جيش الرسول الى تبوك ، ان قانون الحياة على طوله وفصوله يرجع في أصله الى مادتين اثنتين مادة الهجوم على القوات ، ومادة الدفاع عن الذات .

وما كلمات النباهة والمجد والخلود إلا طعوم مغريات في يد الطبيعة ، فتذرع بها الى ضمان الحياة بالوفرة ، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة الى بقاء النوع بالولادة ، فالحي الخلق بالبقاء تتوفر فيه - ولا ريب - قوة السعي لنفسه وقوة الوقوف لغيره فاذا فقد هاتين القويتين أو أحدهما كان طفيلياً على مائدة الحياة وفضولياً في ملكوت الطبيعة ، وليست العزة التي تأخذ القاصر حين يرشد ، أو الشاب حين يستقل ، إلا بقطة الانانية في طبعه ، وثورة الحيوية في دمه ، وهذا الذي نشهده اليوم في مصر وإخوانها من التسابق الى أعداد القوة ، والتنافس في إنشاء الدفاع ، انما هو استكمال لاحدى وسيلتي العيش ، واستعمار لارقي طبيعتي الوجود . ومن هنا كان منهاج الثورة قائماً على الانتاج والدفاع انتاج اليد والآلة والعلم والفكر ، ودفاع الفقير والجهل والمرض والعدو ، وما عدونا للحقوق اللدود إلا اليهود من كيدهم للمسلمين في يثرب ، الى يوم طردهم للعرب من فلسطين ، ومن أصدق من الله في قوله :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود الذين اشرکوا » .

وطلمت الثورة تعد العدة وترصد الالهة خمس عشرة سنة لاستئصالهم من قلب العروبة حتى بلغت من ذلك مبلغ الامان والقدرة ، ولكن الاستعمار الذي غرس شجرتهم الملعونة في أرض الهدى والسلام ، ومهبط الوحي والإلهام ومجتملى عين موسى ومسرح قلب عيسى ومسرى روح محمد ، وقدر الأديان الثلاثة وقبله الإسلام الأولى ومهد الأنبياء ومقبرة الرسل لم يرد لاسرائيل أن تموت لأن موتها في فلسطين يعني موته في الشرق ، فتعدى غضب الله عليهم ، ونبؤة المسيح فيهم بأن وضع في أيديهم السلاح والمال والعلم والحديعة فقتلوا من قتلوا واحتلوا ما احتلوا وشردوا ما شردوا ونهبوا ما نهبوه وذنسوا مساجد الله وقوضوا مساكن الناس وانطلقوا يخربون المدن ويحرقون الحقول ويقطعون السبل ويحصدون المؤمنين الآمنين ...

ان مؤتمر الرؤساء والملوك في الخرطوم قد أحيا الأمل وجدد الثقة ووثق العقدة ودل بقرارته الحازمة أن اخوة النضال والعقيدة والوطن قد ادركوا ما يراد بهم من شر وما يدبر لهم من كيد ، فاجمعوا أمرهم على الجهاد بالأموال والانفس ليظهروا الوطن من احتلال الدخيل ويحرروا فلسطين من اغلال اسرائيل .

أيها العرب في جميع الارض من طنجة الى البصرة : ان معركتنا مع الصهيونية معركة بقاء أو فناء فاختاروا لانفسكم ، ولا تحسبن ان بني اسرائيل لا يزالون صعاليك « خيبر » وسكان « الحارة » وباعة البانصيب وزنابير النحل وعصافير البيدر وحشالة المجتمع ، انما أصبحوا اليوم بفضل المال أعيان « نيويورك » وأعضاء « الكونكرس » وقوام « البيت الابيض » وأرباب الاعمال والاموال والاعلام في سائر الارض : يسألون فيجب (ولسون) ويأمرون فيطيع (جونسون) ويلوحون بالرغيف الذهبي

للأمم المتحدة فيشبعها منها كل كلب ويطلبون من المنظمات اليهودية أن تقدمهم بالمال فتقدمهم بعد العدوان بخمسة مئة مليون دولار ، فتجهزوا لهم بجهازهم وهو المال واستعينوا عليهم بعدتهم وهي الايمان ، والمال قوة اليهود المالية به ، والايمان بالتوراة والتلمود هو قوتهم المعنوية ، انهم يؤمنون بقول الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين : (في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك اعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات) . فإذا كان (يهوه) قد أعطاهم هذا العطاء ، ووعدهم هذا الوعد ، فان « الله » وهو أصدق القائلين يقول لنا في كتابه : « لن يضروكم أذى وأن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون . كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين - وإذا أذن ربك لبيعن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب - ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، وقول الله هو الحق ووعدوه هو الصدق فلا مغرقة كاهن ولا افتراء حاخام .

ان اسرائيل - يا قوم - طغت على القناة وفجرت على الاردن ، وقد بسطت امريكا على جرائمها البشعة ضباب العمى وحجاب السمع فلا تبصر ولا تسمع ، واستجرت أوربا الخاقدة لدعايتها الخادعة فلا تعي ولا تدرك ، فليس أمامنا إلا أن نحقق وعد الله بأموالنا ودمائنا وإيماننا دون الاعتماد على شرق أو التجاء الى غرب » .

إن الاسلام قوته فيه ودفاعه منه ، ولا يزال كتابه في ايدينا يعمر القلوب بالقوة ، ويغمر النفوس بالحياة ، والقوة قوة الإيمان ، والحياة حياة الروح ، أما قوة الاساطيل على الماء وفي الهواء ،

فند يأتيا أمر الله ليلا أو نهراً فتصبح دخانا في السماء وحطاما
على الأرض .

* * *

ياالغزة الاسلام لذلة العرب :

تحت هذا العنوان كتب في مجلة الازهر الجزء التاسع - السنة التاسعة
والثلاثين ذي القعدة ١٣٨٧ - اثبتته بنصه لما فيه من تعبير لواقعنا المؤلم

ربنا رب العزة ، وديننا دين القوة ، ورسولنا رسول الجهاد وأدبنا
أدب الحماسة ، وعلمنا علم الحياة ، وتأريخنا تأريخ البطولة ، وجندنا جند
الفتوح ، فن أين تأقينا الذلة بالاستسكانة ، ويصيبنا الخور والهزيمة ،
ويخالجنا اليأس والقنوط ، وتمترينا أدواء الامم الحقيرة من نخاذل وتواكل ،
ومن تحاسد وتباغض ، ومن خيانة وغش ، ومن اختلاس ورشوة ؟

يأتينا كل هذا حين نسينا الله وأتبعنا غير سبيل المؤمنين ، تلك السبل
التي قال فيها الرسول صلوات الله عليه « تركتكم على الواضحة ليلها
كنهارها لا يزيغ عنها بعمى إلا هالك » .

واقد نسينا الله وزاغت قلوبنا عن نهج رسوله فأخذنا التقيمة وتركنا
التقوى ، وعرفنا الاثرة وأنكرنا الايثار ، واقتضينا الحق ومطلنا الواجب ،
وخدمننا الاسرة وأهملنا الأمة ، وعبدنا النفس وكفرنا بالناس ، وحفظنا
الدنيا وأضعنا الآخرة وتحللنا من قيود الدين لننتلق في الارض انطلاق
السائمة في المرعى تشطح وتنطح وترعى وتفزولا بوجهها إلا الغريزة ولا
يدفعها إلا الشهوة .

أجل نسينا أنفسنا حتى غدونا مسلمين من غير إيمان ، وعرباً من غير
عروبة ، واو بقينا على اسلام محمد وأبي بكر وعمر ، وعلى عروبة خالد
وسعد وعمر ، لما صرنا من جهلنا بالدين وعجزنا في الدنيا على أخلاق
العبيد يطاطىء اشراقهم فلا يندى لهم جبين وتنقص أطرافهم فلا يحصى
أنف وتزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير
عليهم العدو فيتوكلون توكل الاخوة دب فيهم الحسد وتجمعهم الخطوب
فتفرقهم دواعي الهوى والطمع .

ان الله الذي كتب الذلة على بني اسرائيل ، جعل العزة له ولرسوله
والمؤمنين ، فلو كنا مؤمنين بقرآننا على سباحته وهداه كما يؤمن اليهود
بتملؤهم على قسوته وضلاله ، لما انقلبت عزتنا ذلة وكثرتنا قلة ، ولما
بلغ بنا الهوان ان اسرائيل تطأ بأقدامها النجسة بعض وطننا
المقدس فتخرب المدن وتقتل الابرياء وتستحيي النساء ، وتشرد الامنين وتنتهك
المساجد وتنتهب الاموال وتحتل القدس ، ثم يكون لها في الامم المتحدة
صوت كهوت الأقوياء . وفي عالم السياسة رأي كراي الاعزة .

فالعلة إذن لهذا الانقلاب هي ضعف القوة الروحية وفقدان التربية
الدينية : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من
السماء والأرض » وبركات الله السماوية والأرضية والروحية والمادية من
عزة ونصرة وقوة وثروة .

ان البيت المسلم لا يذكر فيه اسم الله ولا تتلى فيه آياته فالأم لا تقيم
الصلاة والأب لا يعرف المسجد والاولاد لا يحذون القدوة الحسنة في
أبويهم فينشأوا مسلمين باللفظ ملحدون بالمعنى لا يخشون الله ولا يقرأون
القرآن ولا يؤدون الشعائر ولا يفقهون الدين ، فاذا تركوا البيت الى
المدرسة وجدوا قشور الدين وقصور المنهج وضعف المعلم ، فالمنهج يجعل

للدين حصتين في الاسبوع ، ولا يجعل له في الامتحان وزناً في السنة ،
فينصرف التلميذ عن درسه لأنه لا يقدم ولا يؤخر في حساب نجاحه .

والمعلم يعلمه على أنه نافلة في المنهج وضفر في الامتحان ، فيعرض
صوراً للشعائر من غير شعور ، ويلقي سوراً من القرآن من غير أمانة ، ثم
لا يجد من عمله ولا من تقواه ما يبعثه في نفوس الاطفال ليكون عوضاً
لهم عما فقدوه في الاسرة فتضعف ثقتهم به وتقل هيبتهم له ، وينتشر
عليهم أمر النظام فينتفق أكثر الحصة في إسكات المتكلم واسكان المتحرك
وإقرار المضطرب ، ثم تساور الطلاب الشكوك وتهاجم الشبهات في الجامعة
فلا يجدون من أساتذتهم من يحلوها لهم أو يدفعها عنهم ، لأن فاقده
الشيء لا يعطيه ، ولأن الدليل الحائر لا يخرج التائه من التيه . لذلك أصبح
الاسلام رسماً محيلاً في قلوب بعض ، وصوراً شوهاء في إذهاب بعض ،
فالخاصة قنعوا بمظهره ثم جعلوا شرعهم غير شرعه ، ودستورهم غير
دستوره ، وقبلتهم غير قبلته ، والعامّة عبثوا بجوهره فقلبوه صوفية
جاهلة لا صلة بين شعوذتها وعباداته ، ولا نسبة بين سلبيتها ومعاملاته
وهؤلاء وأرئلك لا يجدون في أنفسهم معنى الاسلام الصحيح ولا مغزى
الإيمان الصادق فيفقدون السور التي تجمع ، والقبلة التي توحد ، وحينئذ
يصبحون كما هم اليوم ضعفاء على العدو اقوياء على الصديق ، يشوب في
أرضهم الغنية وهم جياع ، ويعيشون في وطنهم العزيز وهم اذلة ، وبلغ
بهم الشتات ان يقف مائة مليون عربي أمام مليوني يهودي وقفة المهزوم
يطلب الرحمة والمظلوم يطلب العدل ، ولو كانوا من الذين آمنوا ولم
يلبسوا إيمانهم بظلم لصدق فيهم قول الله تعالى : « أن يكن منكم عشرون
صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين
كفروا » ولكنهم لم حق النصر على من قال وهو أصدق القائلين « وكان
حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ان التربية الدينية هي رياضة المجتمع الاسلامي على الرجوع الى النهج الذي سنه الله في كتابه ، وبينه الرسول في سنته ، وأتبعه الصدر الأول في سلوكه فبلغ بالعرب البداة الجفاة زعامة الدنيا في السياسة والملك وقيادة العالم في الحضارة والعلم ، وأمامة الدول في العدالة والحكم وريادة الامم في الجهاد والتضحية .

وهذه الرياضة لا تدرك بخطب المساجد ولا عظات المحافل ولا مقالات الصحف ، فقد ملت الآذان بهذا الكلام لطول اعتياده وكثرة ترداده وسوء عرضه ، إنما تدرك بالاسوة الحسنة في البيت والتنشئة الروحية في المدرسة ، والحياة الخاتمية في البيئة .

والسبيل الى ذلك كله اعداد الأم التقيّة وتخرج المري الصالح وتهيئة الجو الملائم ، ووضع الحوافز والجوائز لحفظ القرآن ، وجعل الدين مادة اجبارية في الامتحان ، وأخذ الاطفال بعزائم الله منذ الصغر ، والإفادة من الشاشة والمسرح في تصوير الشرائع الحميدة في مواقف الاحسان والعدل ، وتمثيل الفتوة الاسلامية في مشاهد الحق والخير ، وتجسيد الخلال العربية في ميادين الجهاد والمروءة ، وتطهير المجتمع من عوامل الفساد في الصحافة والاذاعة والكتاب والشارع ، وترغيب النشء في بيوت الله بالمنظر الحسن والفراش النظيف والدرس المشوق والخطبة البليغة ، وإقامة المعسكرات الخلوية يجتمع فيها الشباب للرياضة الروحية على نحو ما يفعلون في الرياضة البدنية ، وإنشاء منظمة قيادية في الأزهر تسن منهجاً لرعاية العقيدة وتنميتها في نفوس الطلاب ، ثم تقوم على تنفيذه في الأسرة والمدرسة والجامعة ، وهذه المنظمة المرجوة ستكون الشكنة الحميدة لجند الله ، أسلحتها المصاحف لا القذائف ووسيلتها الحياة لا الموت وغايتها التعمير لا التدمير ، وغنيمتها الخير للناس والسلام على الأرض ، وان القائد الصالح

المصلح جمال عبد الناصر قد دعا في ميثاقه وخطبه الى رجوع الأمة الى رحاب الله وبناء المجتمع على قواعد الدين ، فهو حرى أن يكون من وراء هذه المنظمة يؤيدها بالرعاية لنقوم ، ويدها بالدعاية لنتشر ، فيضم الى ثكنات القوة العسكرية ثكنة القوة الروحية ، ليجمع بين أسلحة المادة وسلاح الروح ، بوائيم بين مادة العلم وروحية الدين ، ويبعث في القلوب الزائفة مامات فيها من فضائل الاسلام ومناقب العروبة ، ليعود بمجتمعنا كما كان في صدر الدعوة حياً بالجهاد قوياً بالصبر نقيماً بالفطرة ، متآلفاً بالحب متضامناً بالمرءة متعاملاً بالتقوى لا يحقد فيه الفاقد على الواحد ، ولا ينام به الغني الطافح أو القوى الطامح ملء جفنيه وإخوته في الدين والنسب لاندون بملاجيء البؤس معذبون في أسار العدو لا يحدون الولي الذي ينصر ، ولا السخي الذي يجود .

لذلك قطعت القرية المادية بين النفوس وذلك النبوع الإلهي الذي يفيض على الموات فيحيا وعلى الجذب فيخصب ، وعلى الصلب فيلين ، وعلى الخامد فينشط ، وعلى العليل فيصح ، حتى أصبحت من الجفاف تتناكر تناكر الغرباء وتتدابر تدابر العدو ، وتتلس جوانبها المظلمة فلا تجد فيها شعاعاً لقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ولا أثراً لقول الرسول الكريم « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فالإن يعق أباه والأخ ينكر أخاه والصديق ينافق صديقه والتاجر يغش زبونه ، والعامل يزيّف عمله والموظف يقتل ضميره ، والمجتمع الذي يتألف من هذه الرذائل القاتلة لا يقوى وأن كثر عدده ولا يغنى وأن توفر مدده ، فإن مائة مليون صفر لا تزيد قيمتها على قيمة صفر واحد ، وأن ما فوق الأرض وما تحتها من مال وركام لا ينفع الشعب إذا لم يكن لله وللوطن .

ان علاج هذه الرذائل بالنظم والقوانين علاج مسكن ، يخفف الألم

ولا يحسم الداء ، إنما العلاج الناجع هو النور لمن أظلم عليه الليل ، والدليل لمن استبهم أمامه الطريق والامان لمن ساورته مخاوف الحياة ، وكل أولئك في كتاب الله الذي أنزله هدى للناس ورحمة ، وجعله للمسلمين رباطاً وعدة ..

النقد الادبي تقويم وتقييم :

هذا آخر ما كتبه أديبنا الكبير ، أعده لمجلة الازهر ، وهو المقال الشهري الذي ظل الزيات يواصل كتابته لمجلة الازهر منذ أن تولى رئاسة تحريرها سنة ١٩٥٢ ، بعد أن اختفت الرسالة التي كانت بحق رسالة الأدب والفكر والنقد والتوجيه ..

وللقارىء العربي ، ولكن العصبية الحديثة من حملة الافكار المتطرفة والذين يهيمنون على الصحافة في مصر رأيت في الرسالة خطراً على الأفكار والمذاهب التي يعززون نشرها وتروييحها بين القراء فأمرُوا بحجبها ...

والزيات في مقاله بل وفي كل ما كتب ، بارع الحكم صريح فصيح ، ذو ثقافة واسعة وعلم رصين ينقل اليك أصول النقد المتعارف عند علماء النقد بأسلوب رصين ولفظ متين وكلام سلس ، وفكر فيه العمق والرؤية ، أسلوب يتمتع النفس ويبهز العقل ، لا يجهدك فهمه ولا يملك سبأه ، تحس وأنت تقرأ ما يدبج كأن المعاني قدساب الى نفسك والآراء تتمدق الى خاطرك ، وما أصدق قول أبي العيناء في وصف كاتب معاصر له أحسبه ابن المقفع ..

« كلامه صريح ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن بيانه إؤلؤ منشور ، ووشى منشور وروض معطور » .

والزيات فيما يكتب من مقال : يلتزم القصد والأمانة لا يحب الإطالة إلا بقدر ما يتطلبه المعنى من الوضوح ويتكلف بالإيقاع ولذلك كثر في كلامه الازدواج والسجع من غير التماس لهما وكأنهما يأتیان عفواً الخواطر أو من وحي الطبيعة وكان يتحاشى استعمال الغريب وبنأى بقلمه عن الحوشي لأنه يرى استعمال الغريب هو العي بعينه - وقد يتفصح بعضهم باستعمال الغريب فيظنه البلاغة وما هو من البلاغة بنصيب ، لا من بعيد ولا من قريب ... قال رحمه الله :

« نقد العمل الأدبي معناه تقويم عوجه بالاداة الصالحة ، وتقويم مادته بالوزن الصحيح ، وأداة الناقد بهذا المعنى ملكة غنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة ، والناقد بهذا الاعتبار ، يشارك المشرع في صدق التمييز ، والفيلسوف في دقة الملاحظة ، والقاضي في قسوة الحكم ، ومن هنا كان نوابغ النقد في العالم اندر من نوابغ الشعر والكتابة .

أما عند العرب : فقد انحصر - لأسباب لغوية لا محل لذكرها في هذه الكلمة الموجزة - في جزء واحد من النقد بمعناه العام عند الافرنج ، فلم يعالج غير أبيات وفقرات من الكلام المنظوم والنثر المسجوع ، وأغفل القصيدة باعتبارها وحدة لا تتفرق ، والكتاب باعتباره كلاً لا يتجزأ ، ولم يحفل بما ألف بالنثر المرسل من الكتب والقصص .. وجرّ ذلك الى أن الكتاب والشعراء أوغلوا في البديع وتفننوا في الزخرف ، وأهملوا فن القصص فتركوه لادباء الشعب ، ولم يعنوا منه إلا بالمقامات لأنها مظهر الصنعة ، ومحك القدرة ، فحرموا الأدب العربي فتأ كانوا هم بسليقتهم أقدر الناس على التوفر له والافتنان فيه ..

أن من يطلع على ما أثر عن السلف في النقد والموازنة يجد الخطأ في الاقيسة ، والخلل في الموازين ، والشطط في الاحكام ، وذلك

لتحكم الهوى الخاص ، وإرسال الناقد الحكم على غير قاعدة مرسومة
ولا مذهب معين ..

فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك ، والاسلوب الرصين والمهلل ،
والمعنى المسروق والمطروق ، والمطلع الجيد والردىء ، والتخلص الحسن
والقبيح ، ويجرون في كل أولئك على أذواق تختلف باختلاف الطبقات
والهينات والاجناس ، وربما اكتفوا في تقديم شاعر أو تفضيل بيت
بالعبارة العامة أو الإشارة المبهمة أو الالتهاء المोजز كقولهم : « والله دره
إذ يقول : » وهذا ما لم يسبق إليه أحد ، وما أحسن هذا البيت ، ولم
يعنوا بالخطوط التي تميز كلاماً عن كلام ، ولا بالحدود التي تفرق بين شاعر
وشاعر .. فلو نقلت ما قالوه من المدح في شاعر الى شاعر آخر ، لما تغير
المعنى ولا اضطراب السياق والأمر كذلك في كل ما ألفوه من الكتب على
طراز « اليتيمة » للشعالي ، ودميسة القصر للباخري ، وخريسة
القصر للاصبهاني ، وريحانة الألباء للخفاجي ، وخلاصة الأثر للمحيي ..

من ذلك يتضح ان فهم القدماء لحقيقة الفن الشعري والكتابي حصر للنقد
البياني - كما قلت - في الصور والاشكال ، وهذا الحصر نفسه ، قد وجه
الادباء الى الاحتفاظ باللفظ دون المعنى ، وبالصورة قبل الفكرة ، ففات
أكثرهم ان روعة الكلام لا تكون بالرونق والاناقة والصنعة وحدها ، وإنما
تكون مع ذلك بقوة التعبير عما تكنه الضمائر وتحسه المشاعر ، وبدقة
التصوير لمختلف الطبائع والعواطف والاخلاق والشهوات والصفات ، حتى
نرى صور أصحابها الحقيقيين أو التخيليين تحرك وتعمل وتقول على مقتضى
الغرائز الثابتة والفطر الاصلية وتكشف الغطاء عن طبيعة الشخص بكلمة
تجري على لسانه ، أو حركة تصدر عن يده ثم تكون روعة الكلام ، ببراعة
الوصف لمناظر الطبيعة ومظاهر الكون ، حتى تحس فيها الحياة والحركة ،

وتدرك ما بينها وبين النفس في انفعالاتها من اتصال وعلاقة ، ثم تكون أخيراً بشدة التأثير في الافئدة حتى تستيقظ فيها روافد الاهواء والعواطف فتطرب النفس ، أو تغضب ، وتهداً أو تثور ، وتفرح أو تحزن ، وتحب أو تبغض ، ولو أن نوابغ الكتاب والشعراء فطنوا الى ذلك لكان من هم الناقد أن ينظر - فوق ما ينظر من الالفاظ والصور - في تنسيق المعاني وترتيب الافكار في جملة الكتاب أو القصيدة ، أو المقالة ، أو القصة أو الكلام على العموم ، لأن سلامة الجزء المنفصل أو بلاغة البيت المنفرد ، لا تدل حتماً على سلامة الكل أو على بلاغة القصيدة .. كذلك كان من هم الناقد البياني ، لو اتجه الى المضمون أن يحلل ما ينشأ في نفس القارئ لروائع الكتاب والشعراء من العواطف ، وأن يبين كيف يستطيع الكتاب أو الشاعر أن ينشئ هذه العواطف أو يوجهها ، ومن ثم كانت كتب النقد عند الافرنج عملاً فنياً قائماً بذاته يبوئ أصحابه مقاعد النبوغ والخلود.

على هذه الحالة من الشكلية والسطحية والتعسف مضى النقد العربي حتى بلغ جيلنا الماضي ، فكان الناقد منذ قريب يعتمد الى الكتاب القيم في التاريخ أو القانون قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحق ، ينقد في بعض صفحاته فعلاً عدسى بغير حرفه أو اسماً جمع على غير قياسه ، أو لفظاً لم يجده في معجمه ، ثم يحكم على الكتاب كله بأنه سخي لا يقرأ ، وضعيف لا يعيش ، ومن النوع أو قريب منه كان نقد طه حسين لنظرات المنفلوطي في أوائل هذا القرن .

ثم أخذ النقد الفني يتطور مع الوعي والتعليم ، والاطلاع على أدب الغرب في الربع الثاني من القرن العشرين ، فغاص من السطح الى القاع ، وانتقل من الشكل الى المضمون ، وتدرع باللغة والعلم والمنطق في نقود العقاد والمازني وشكري ومن لف لفهم .. ثم كاد ينحصر اليوم في القصص والمسرحيات

بما كان يكتب مندور ورشدي وحقي .. ومن جرى مجراهم ، ولعلّ
 النقص الذي يعتور النقد الفني الحديث أنه في جلته لا ينبثق من طبيعة
 الادب العربي ، ولا من بيئته ، وإنما ينبثق من طبيعة الادب الغربي وقواعده
 ومذاهبه ، فلو أن هؤلاء النقاد اتجهوا بعقليتهم المنحرفة ، وثقافتهم
 المتجددة الى دراسة أدبنا تحت الضوء الصادر عنها لأوجدوا فيه فناً
 مستقلاً من النقد المبني على العلم والخبرة والإصالة ، يتم ما بدأه عبد القاهر
 وأبو هلال وابن الاثير . أما ما نقرأه في الصحف العربية من حين الى حين
 مما يسميه أصحابه نقداً ، فإنه لا يدخل في هذا الباب ، إلا كما يدخل
 المحون في نطاق الجد ، أو العبث في سياق المنطق ، كالرجل يقعد به العجز
 من اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف ، يلزم هذا ويتنادر
 على ذاك ، ويزعم أنه هو وحده المسيطر على ثرات إلذهن فيحكم بذوقه
 الخاص على هذا بالقبح وعلى تلك بالفجاجة ، وأمره كله لا يخرج من مألوف
 الطباع الساخرة الفكهة ، تصور الحق بألوان الباطل لتضحك وتبرز الجميل
 يظهر القبيح لتسيء وعيب الناس طبيعة في بعض الناس ، لا يكلفهم إلا
 تحريك اللسان إذا ألفوا سامعاً أو تحريك القلم إذا وجدوا صحيفة ..

هذا الضرب من النقد أما أن ينبعث من الحقد فيرمي الى التجريح ، وأما
 أن ينبعث عن الغرور فيسمى الى الهدم ..

عن مجلة الازهر ، الجزء الرابع للسنة الاربعون جهادي الاخرة سنة ١٣٨٨ هـ

آب وايلول سنة ١٩٦٨

آراء في القيمة للزيات

فتح الزيات في نثره الفني آفاقاً جديدة وأضاف الى المقالة الصحفية باقة يانعة فيها الكثير من قطوف المعرفة ، فاحتل بذلك مكانة فريدة في النثر ، وعالج موضوعات أدبية ، ونقدية ، واجتماعية ، وسياسية وتاريخية ، والزيات كما قدمنا من الكتاب الذين ثقف الأدب العربي والفرنسي ووسع مداركه بالاداب المترجمة من ثقافات الغرب فتكون لديه تراث شامل من الافكار والاحاسيس فكان رحمه الله كاتب فكرة ومبدأ فظهر في آرائه المصلح الاجتماعي والناقد الذي يرسم لمجتمعه وأمة مناهج الاصلاح والعلم والخير - في تعبير بارع التصوير ، دقيق الفكر جميل الדיباجة ، في قوة لفظ ودقة معنى .. ولذلك رأيت من الخير أن اقتبس بعض افكاره ، وأسجلها في ختام هذه الدراسة لتضفي ضوء على صاحب الترجمة ولتكشف أعماقه الفكرية فيزداد به القارئ علماً وخبراً ..

قال في الموقف الأدبي ص ١٣٩ - ١٤٢ وحي الرسالة :

« والحق ان المسارعة في الانتاج العام قبل استكمال وسائله ميزة بينة في أدب الجيل الحديث فان الامام باللغات الاجنبية والوقوف على قواعد الفن الاوربية لا يجعلان المرء كاتباً في العربية ما لم يدرس هذه اللغة دراسة قوية تردها طبيعة لقله ، لينة على لسانه ، والاعتقاد في اكتساب الأدب على محاكاة

النماذج ، وتقليد المثل لا يقوم عليه فن ، ولا ينهض به فنان معدود ، وما كان المثل ليفني عن القاعدة وهو لا يضيء إلا ناحية من الطريق ، والقريحة نفسها وهي غريزة الادب والفن في الانسان ليست على الكمال اليوم بحيث تجزى عن القواعد ، كذلك الذوق وهو أداة الجمال كما ان العقل أداة الحق ، لا يمكن أن يكون طريقاً مأمونة الى عمل صحيح ، فانه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الاجناس ، وتحتاج الى المراتة بالدرس والعادة ، وليس لها ما للعقل من سلطان واطمئنان وثبوت ، وانك لتجد عقلاً مستقلاً لا يختلف ولا يتغير ، لأن هناك حقيقة مستقلة تتميز بالوضوح والجلء ، ولكنك لا تجد مهماً تستقرىء وتستقصى ذلك الذوق المطلق المستقل الذي لا يختلف باختلاف الألوان والأزمان والامكنة .. أما القواعد فهي نتيجة التجارب وخلاصة الملاحظات على طول القرون ، وضعها القرائح المنطقية المتعاقبة بعد أن فقهت أصول الأشياء ، ودرست علائق هذه الأصول ، واستخلصت نتائج هذه العلائق ، ثم صافت هذه النتائج قواعد وقالت لها انها أمثل الطرق لاحسان العمل ... دون أن تخضع عبقريةك لها ، ولا أن تسمح لهاك بالخروج عليها ، فان بين الاستبداد والفوضى نظاماً أحق أن يؤثر ويتبع .

وبعد : فان الفنان والناقد إنما يتعاونان على فهم الجمال ، كما يتعاون القاضي والحامي على فهم العدل ، فليس من الخير لأحدهما أن يكون مع الآخر على خلاف ، وان الادب الشيخ والأدب الشاب ليتعاونان على قيادة النفس ، كما يتعاون البصر والجناحان على قيادة الطائر ، فليس من خير أحدهما أن يكون من الآخر على قطيعة ..

والأدب الرفيع من بعد ذلك كله صلة المرء بربه ، ينفي الأذى عن لسانه ويذهب الغل عن قلبه ..

ان النقد ملكة فنية وتربية أصيلة وثقافة شاملة للاصول مرتكزة على القواعد والذوق السليم ، ولا يحق للناقد ان يمارس هذا الفن الجليل من غير وسائله ومعرفة قواعده ومذاهبه ، أما ما يفعله بعض من تصدى للنقد من الناشئين وحقى غير الناشئين بالتماس الاغلاط الاملائية أو الاخطاء البسيطة أو تسفيهه فكرة وتقبيح أسلوب والحكم على الكتاب بالفهاة أو السهاجة فليس من فن النقد وإنما هو من باب الهدم والشم ، وبإحدى هذه الطرق والغيرة أو سوء الفهم .

النقد المزيف :

يقول الزيات في مثل هذا النوع :

« ان هذا الضرب من النقد ، أما أن ينبعث من مكان الحقد فيرمي الى التجريح وأما أن ينطلق من مواضع الغرور فيسعى الى الهدم ، كان الناقد منذ قريب يعتمد الى الكتاب القيم في الفلسفة ، أو التأريخ ، أو القانون ، قد ألفه مؤلفه من دمه وعصبه وعقله وعمره وماله ، فيقف منه موقف الحاسد الأحق ينقد في بعض صفحاته فعلاً عدائي بغير حرفة ، أو اسماً جمع على غير قياسه ، وقد يكون لكل منهما وجه — ثم يحكم على الكتاب كله بأنه ضعيف لا يقرأ وضعيف لا يعيش ، ثم أصبح اليوم يعرض للموضوع فيقول :

هذا قديم لأنه يدور على بحث في تأريخ الشرق أو على معنى من معاني الدين ، أو على أثر من آثار البلاغة ، وهذا جديد لأنه يقوم على حادثة من حوادث الغرب أو على رجل من رجال الاكاديمية ، أو على غانية من غواني المسرح ، وهذا مقلد لأن أسلوبه شريف ممتنع ، وهذا مجدد لأن أسلوبه مبتذل ممكن ، ثم تقصف باقلامهم اللينة نخوة الحفاظ

وحماسة القوة فيصبحون : أميتوا أدب العاطفة وأحيوا أدب القوة ،
أبيدوا أدب الخاصة وأوجدوا أدب الشعب أنبذوا أدب المقالة والزموا
أدب القصة ..

صيحة قرارها ومقامها باطل ، فان اجماع الناس واقع أن خلو الأدب
الحديث من أدب القوة ، وأدب القصة خلل لا بد أن يسد ، ونقص
لا بد أن يكمل .. ولكن من الذي يقول ويعني ما يقول : ان وجود هذه
الانواع يقتضي عدم الأخرى ؟

أن لكل فن من الادب طبقة من الناس تتذوقه ، وإذا منعها إياه
طلبته ، والناقص لا يكمل برفع نقص ووضع نقص ، والبناء لا يتم بهدم
ركن وإقامة ركن ..

أرايتك ^(١) إذا كان الأدب كله قوياً يخشن الصدور ، وحماسياً يؤثر
الحفاظ ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذي يصور ألوان الحياة المريرة
ويترجم القلوب الكبيرة ، ويرقق حواشي الانفس الجافية ؟

أرايتك إذا كان الأدب كله شعبياً يعبر بالسنة السوق وينقل عن
عواطف العامة ، أفما كنت تقول : أين الأدب الذي يرضي أذواق
الخاصة فيجمع بين سمو الفكرة ونبل العاطفة وقوة الاسلوب في صورة
من الفن الرفيع تسمو بالنفوس الى المثل الأعلى وتغمر الشعور بالجمال الخالد ..

الأدب صورة النفس ، فلا بد أن ترسم فيه مشاعر الفرد ، والأدب
مرآة الحياة فلا بد أن تنعكس فيه ألوان المجتمع ، وما دام في الناس
الحساس والبليد ، والخوار والجليد ، وفي الدنيا التفاوت الذي يوجد

(١) ارايتك : بمعنى اخبرني .

بالتأيز ، والالم الذي يفجر بالدموع ، واللذة التي تبعث المسرة ، والمدنية التي
تخلق التنوع ، فلا بد أن يكون الأدب الصحيح صدى لكل أولئك ..

ليست وظيفة النقد أن يهدم أو يثبت أو يشرع ، تلك وظيفة
الطبيعة التي تطور كل شيء ، وتغير كل نظام وتسد كل عوز
وفق قانون ثابت ..

إنما وظيفة الناقد أن ينظم الموجود ، وينبه الأذهان إلى المفقود ،
أما أن يحاول تغيير الطباع بقانون وقلب الأوضاع بمقالة ، ومحو الثابت
بنكتة ، فذلك عبث لا يخلق بكرامة انسان ، وتهريج لا يزكو
بضمير فنان ..

صدق الفن : (١)

« والصدق في الفن ، جوهر بلاغته ، وسر دوامه ، وهو في البيان
وضع اللفظ في موضعه ووصف الشيء بصفته ، ومطابقته الكلام لمقامه ،
واكذب ما يكون البيان إذا ترادف لفظ ولفظ وتشابه معنى ومعنى ،
وتناقض رأى ورأى وتعارض وجه ووجه ، ولعلك لا تجد فيما تقرأ من هذه
المقالات (٢) لفظا يحاكي المعنى ولا معنى يحاكيه الحق .. وأسلوب الكتاب
الايجاز ، والايجاز ملاكه الاناة والفتنة ، فاذا قرأته قراءة العجلان ، لا
تظفر منه إلا بقبسة العجلان » .

الجمال في البلاغة والشعر :

« ان ابيّن خصائص خصائص الجمال الذكاء والوفرة ، فتزاحم العواطف ،
وتكاثر الصور وتوافر الافكار ، ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذي

(١) مقدمة الجزء الاول من رحي الرسالة .

(٢) افتتاحيات الرسالة .



المشير طه الهاشمي

يحبيها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يملأ شباب القلب بالاعجاب وذلك الاعجاب الذي نحسه هو عاطفة الجمال .

خصائص الجمال :

« ان الخصائص المميزة للجمال هي : القوة ، والوفرة ^(١) ، والذكاء ، والمراد بالقوة شدة العمل وحدته . وبالوفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، والذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل ، ولا جدال في ان الحواس ليست كلها أهلاً لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسها نقلاً قوياً يثير الدهش والاعجاب واللذة . أما الإنفعال الذي يأتيك عن طريق الشم واللموسة والخشونة والصلابة والادونة والحرارة والبرودة ، فأحاسيس بسيطة عقيمة ، قد توقض في النفس ذكرى خافية أو عاطفة غافية .

الجمال في المادة :

وشأن الجمال في المادة لا يختلف عن شأنه في الفكر والعاطفة ، فإنك إذا ذهبت تبحث في الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة أو الوفرة أو الذكاء . ففي الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة ، ففي جمال الأسد القوة ، وفي جمال الطاووس الوفرة ، وفي جمال الإنسان الذكاء ، ولا أقصد ذكاء الإنسان في نفسه ، وإنما أقصد

(١) الوفرة : اذا كثر الشيء واتسع وتم وكمل .

ذكاء الطبيعة في تهينته وثقيفه ، وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملائمة وسائلها لغاياتها ، فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل في الزوجين ، وتباين مقياس الجمال في الجنسين ، أرادت الطبيعة من الرجل أن يعمل ويقاتل ويحمي زوجته ويعمل أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضي تلك الإرادة تركيب وثيق يحكم تم ملاحظه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الاعضاء متناظر الشكول متوازن الاوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أي صورة وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتحتلج على الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف في الإنسان مزايا الجمال المذكر فإذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهي تكونه عرفت ما تفعل وفعلت ما تريد .

جمال المرأة :

« ولعلّ جمال المرأة ابداع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرته ، وسر الاعجاب فيه هو سر الاعجاب في جمال الرجل ، أعني الذكاء ، والذكاء كما قلت ابداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق يحكم ، فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها ، وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من المواءمة التي تسترق الافئدة وتدق على افهام البشر .

السياسة :

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو بالأدب ، والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التي لا تتحزب ، ولا

تتعصب ، ولا تعرف تخوم المكان ولا حدود الزمان ، ولكن بينها وبين السياسة الدنيا تفاعلا وتبادلا لا يفترقان فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها ، وهي تغير منهما وهما يغيران منها ، والخلق بخاصة مساك الامة ، وملاك الأمر ، ولم تؤثر النهضات القومية في الشرق إلا من جهة فساد ، ذلك لأن الحال في الأمة العائدة أو الناشئة التي يخرج أهلها وحدانا من ظلام الجهل والغفلة ، أن يسمى المرء فيها ليغنى ، ويفنى ليتزعم ، ويتزعم ليحكم ، ويحكم ليستبد ، ويستبد ليظفى ، ويظفى ليتأله ، سلسلة من القرائن الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والاثرة والجموح والبغى ، يصل بينهما جميعا أنانية غالبة ، وفردية أصيلة ، فالأهل والأصحاب والاحزاب إنما يتعاملون بغير الحق ، ويتجادلون بغير المنطق وابتغاء الفوز من وراء الباطل ، والغلبة من طريق القوة لأن «الانا» لا يعرف الغير ، والذات لا تدرك المعنى ، إلا إذا أضاء العلم ما حولهما فظهرت الاشخاص وبانت الفروق ، ووضحت الحقوق ، وتبرزت المعالم ، حينئذ يقول كل امرئ لنفسه أول مرة أن في العالم ناسا غيري وان لهم حقاً كحقى ، ومتى شعر المرء بالناس وفطن الى وجود الحق ، تولدت فيه معاني الإنسانية والديمقراطية والعدل ، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى وللوطن إذا تزعم والدولة إذا حكم ..

نحن الى اليوم لم نخرج عن ذواتنا في العمل والسياسة والحكومة ، نقيس كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة ، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد ، ونغلب ارادتنا على إرادة الأمة في الحق المشاع ، حتى اقننح المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل .. وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم ، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادئ الشورى كان ذلك مقبولا محمولا والجهل غاش على العيون رائن على الأفتدة ، أما الآن فقد تذبذ الغفلان الى أن من استطاع أن يرفع المظلوم

يسهل عليه أن يخفض الظالم .. وتذكر النامي أن له دستوراً يجعل مصدر السلطات في فم المحكوم لا يد الحاكم .. فمن ذا الذي يوسوس إليه شيطانه أن يرفع في وجه الاسود وأشبال الاسود عصا القطيع ؟ ومن ذا الذي يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ويقول أنا سيد الجميع ؟

لقد كان لبعضكم يا زعماء الساعة اخطاء على الامة في بعض الامور ، ملكت عليها الصبر ولم تملك لها المغفرة ، وقد أتاح لكم القدر هذه الفرصة لتصحيحوا بصواب اليوم خطأ الامس ، وتبددوا بيقين الحاضر ظنون المستقبل ، فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطيب بالرجل الاخشم .

أن بعضكم بلغ ساحل الحياة ، وبعضكم جاوز حد الثروة ، وكلكم تفرع ذروة الجاه فماذا يقعدكم عن ابتناء المجد المؤثل وابتغاء الذكر الخالد ..

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه ، ولشعبه دون حزبه ، ولغدده قبل يومه ، حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الإخوة في ظل الوطن ، وعزة الحرية في كنف الدستور وجمال المساواة في حمى الحكم الصالح . نريد أن تلتفوا سياسة الخطب وتقصروا السنة الوعود وتخفتوا ضجيج المظاهر ، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان وبطر الجاه ، فان العربي أكره الناس للزعيم المغرور والوزير المتعطر والنائب الأثر ...

« وحي الرسالة ص ٤٣٥ - ٤٣٧ »

جزء ٢

وكتب تحت مقال - كيف نعالج الفقر :

« ميهات أن يكون في الأرض ايمان ، مبادام في الأرض فقر ،
فان أسباب الفقر ممدودة من الطمع والشح والآثرة ، وهذه الخلال
السوء لا تطمئن عليها نفس مؤمنة ، وان من ظلال الافهام والأقلام ان
تعالج الفقر على أنه ناجم من ندرة العمل في البلد أو قلة الخير في الدنيا ،
فان العمل ميسور للقادر ورزق الله موفور للحني ، وإذا شكت الامم
اكتظاظ المعامل ، ونضوب الموارد ، وضيق الرقعة ، فان مصر الجديدة
البكر بينهما وبين هذه الشكوى أن تمصر المصانع والمعامل والمتاجر
والمصارف والشركات وما بالقليل ذلك ..

لا تطلبوا من الفقير العمل قبل أن توفروا له القدرة عليه ، أنه جاهل
فاشرعوا له منهل العلم وأنه عليل فانهجوا له سبيل الصحة ، وأنه
معدم فدبروا له رأس المال ومن بلادة الحس أن الغني يسمعك وأنت
تقرأ هذا الكلام ، فلا يظن المخاطب به أحداً غير الحكومة ، فيشارك
في النقد ويسرف في الانكار ، ويلج في الطلب ، لأن الحكومة في
رأيه يجب أن تلي كل نداء وأن تؤدي كل واجب . والحكومة لو
درى هذا المتواكل الغد لا تتسع مواردها لكل رغبة ، فإنها لم تحب
منه ومن أمثاله إلا حق العبارة والأمن ، أما حق الله عنده فقد وكلت
ادامه الى ضميره ، يعطيه من يشاء متى يشاء وكيف يشاء ، ولكن
الضائرت نامت على هدمدة الشهوات ، والعواطف قست على جفاف المادة ،
وبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة ذهب وازع الدين ، فلم يبق إلا
وازع السلطان ...

فهل يفكر أولو الأمر أن يعالجوا الفقر بما عالجهم الله ، فيجبوا الزكاة ، وينظموا الإحسان ؟ انهم أن فعلوا ذلك لا يجدوا في البيوت عائلا ، ولا في الطريق سائلا ولا في السجون قاتلا ...

وحي الرسالة الجزء الثاني

٦ شباط سنة ١٩٣٩

ومن مقال - اقتلوا الجوع تقتلوا الخروب :

« لا يزال في قدرة الله أن يكابد بنو آدم عقابيل البهيمية الأولى ، فيوطأ المواني ، ويسترق العاني ، ويؤكل الضعيف ، ويكون هنا الطمع والكزازة والأثرة ، وهناك الحسد والحزازة والثورة ، ثم لا يفصل بين الواحد والفاقد غير الحرب ، فالجرب لا تنفك مشتملة وبين الفرد والفرد وبين الاسرة والاسرة ، وبين الامة والامة ، بالقول أو بالفعل ، وفي السر أو في الجهر ، حتى يتدارك الله عباده فيهيء نفوسهم لغض هذه الخصومة ، بغير هذه الحكومة .. »

والخصومة الأبدية بين الناس هي المادة ، والنكبة الازلية على النظام والحق هي الفقر . وكل ثورة في تأريخ الأمم أو جريمة في حياة الأفراد إنما تمت بسبب قريب أو بعيد إلى الجوع . حق الشهوة ، شهوة الغرام أو الانتقام لا تقع في تأريخ الجناية إلا في الحل الثاني بعد الجوع لأنها لا تكون إلا عرضاً من أعراض الشعب ، من أجل ذلك جاء دين الله يخفف عن الفقير بالإحسان والعدل ، ويدفع عن الضعيف

بالمودة والرحمة ، ولكن عرام النفوس كان أقوى من أن يرده الثواب
المغيب والعقاب المؤجل ، فنبت على أمر الله ، وعالت نفسها بالنجاة
من باب التوبة المفتوح ، ومن طريق المغفرة الواسع ، ثم جاءت فلسفة
الناس أن تجد سلام المجتمع في أنظمة متناقضة بعضها في صدر بعض
فوق العالم من جراء النزاع بين الفردية والاشتراكية ، والصراع بين
الدكتاتورية والديمقراطية ، في حرب عنيفة رعناء لا تأصرها آصرة ولا
تدركها شفقة حتى أكلت من أمة الأسباب وحدها مليوناً وربعاً من
شبابها الآمل العامل ، ثم أخذت تخمد في هذا الميدان الضيق المحدود
التستمر في ميدان لا حدّ لمرضه ولا نهاية لطوله هو العالم ...

وحي الرسالة الجزء الثاني

ص : ٤٩ - ٥٠

المحتوى

ص	
٣	الاهداء
٥	مقدمة
٨	مولد الزيات ونشأته
١٢	الاستقامة والوضوح سمة الزيات
١٤	الزيات في العراق
١٤	تحية بغداد
١٧	الأدب العربي
١٩	الزيات يشارك في تأبين عبد المحسن السعدون
٢١	مشاركة الزيات في حفلة تأبين عبد الرسول الجلي
٢٢	كلمة الزيات : الشباب الذابل
٢٥	تأمل ساعة
٢٩	مأساة الشاعر وضاح اليعن
٤٢	من الاثري الى الزيات
٤٨	رد الزيات
٥٣	عود على بدء
٦٥	مطارحة أدبية للدكتور مهدي البصير

- ٧٠ الأدب وعوامله وحظ العرب من تأريخه
 ٨٣ نسائم النيل الى وادي الرافدين
 ٨٦ تأريخ ألف ليلة وليلة
 ٨٩ لقاءات وصلات
 ٩٢ القهوة الضحيانة
 ٩٣ الحلقة
 ٩٧ ذكريات الصيف في بغداد
 ١٠٠ كيف كان العراقيون يتقنون الحر
 ١٠٧ الزيات والزهاوي
 ١١٧ وضوح العروبة لدى الزيات
 ١٢٠ الزيات عضو في الجمعية الثقافية العربية
 ١٢٧ حديقة النادي العسكري
 ١٣٢ من كتابه المفقود
 ١٣٧ الزيات بصحبة الملك علي
 ١٣٩ رستم حيدر
 ١٤٧ شباب العراق في مصر
 ١٤٩ نعي الزهاوي
 ١٥٣ الزيات والرصافي
 ١٥٩ موقف الزيات من مقتل حسن سيف
 ١٦٤ رأي الدكتور طه حسين عن عروبة مصر
 ١٧١ الدكتور زكي مبارك يدافع عن العراق
 ١٧٣ مكانة مصر في العراق
 ١٧٦ تأريخ العراق المعاصر في حياة الشبيبي

١٩٥	بين الزيات والراوي
٢٠١	أصلوب الزيات للدكتورة عائكة الحزرجي
٢١٤	من ذكريات بغداد
٢٤٧	تأريخ ألف ليلة وليلة
٢٧٠	أصل الكتاب وطبعاته
٢٧٤	الطبعة المصرية
٢٧٧	مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته
٢٨٢	طريق الكتاب وأسلوبه
٢٨٤	أسلوبه
٢٨٨	فلسفته ومراميه
٢٩٢	مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته
٢٩٥	صديق الكلاب
٣٠٢	أشهر مؤلفاته
٣٠٤	نماذج من آرائه وأدبه
٣٠٥	الرجل المنتظر
٣٠٦	الجهاد عدة الاسلام
٣٢٧	النقد الادبي آخر مقال للزيات نشر بعد موته
٣٣٢	آراء في القصة للزيات
٣٣٤	النقد المزيف
٣٣٩	في السياسة
٣٤٢	كيف نعالج الفقر
٣٤٣	اقتلوا الجوع تقتلوا الحرب

من مؤلفاتنا المطبوعة

- ١ - أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية - بغداد ١٩٦٧ .
- ٢ - الجزائر بلد المليون شهيد دراسات وانطباعات - بغداد ١٩٦٩ .
- ٣ - الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر - تأليف علي علاء الدين الألوسي « تحقيقه » - بغداد ١٩٦٦ .
- ٤ - محمد كرد علي - بغداد ١٩٦٦ .
- ٥ - أدب الزيات في العراق - بيروت ١٩٧١ .